شرح

الأربعين النووية وتتمتها

د. عبد الملك القاسم

دار القاسم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبد الملك محمد عبدالرحمن
شرح الأربعين النووية وتتمتها. / عبد الملك محمد عبد الرحمن القاسم. ـ الرياض، ١٤٤٠هـ
٥٢٠ص، ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٠-٠٧٨٤-٥٣-٦٠٣-٩٧٨
١- الحديث - شرح أ-العنوان
ديوي ٢٣٥ ١٤٤٠/٩٢٥

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩٢٥
ردمك: ٠-٠٧٨٤-٥٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى: ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

فروع دار القاسم
الفرع الرئيس الرياض هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ ـ فاكس: ٤٠٣٣١٥٠
الدمام: هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ ـ فاكس: ٨٤١٣٠١١
البريد الإلكتروني: Sales@dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

شــرح
الأربعين النووية
وتتمتها

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام، على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن من أشهر مصنفات علماء المسلمين كتاب: «الأربعين النووية» نسبة إلى جامعها الحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ـ رحمه الله تعالى ـ وأصل كتابه: «الأربعون النووية» أن ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع ستة وعشرون حديثًا كلية فزادها النووي ستة عشر حديثًا فبلغت اثنين وأربعين حديثًا، فسميت بـ:«الأربعون النووية» تجوزًا، ثم زاد عليها الحافظ ابن رجب ثمانية أحاديث فصارت خمسين حديثًا. وهي التي شرحها في كتابه: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم».

ولقد أكبّ العلماء على هذه الأربعين بالتدريس والشرح، واشتهرت بذلك، فإنها مشتملة على أحاديث جامعة لقواعد كلية في الاعتقاد والفقه والسلوك.

ولرغبتي الإسهام بشرح ميسر لها استعنت بالله، ولتمام النفع أكملتها خمسين حديثاً من جامع العلوم والحكم، وقد جعلت المتن باللون الأحمر(١).

أسأل الله أن يجعل أعمالنا صوابًا خالصة لوجهه الكريم.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

---

(١) وأصل الكتاب: (الخطب المنبرية لكتاب الأربعين النووية) ط دار القاسم ١٤٤٠هـ.

الحديث الأول

جاء في الحديث الذي رواه إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزيه البخاري، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري في صحيحيهما الذين هما أصح الكتب المصنفة.

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ».

هذا حديث جليل متفق على صحته، وعظيم موقعه، وكثرة فوائده، وهو أصل من أصول الإسلام، ومن جوامع الكلم التي أوتيها الرسول الله ﷺ، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام. لأن موضوعه الإخلاص في العمل، وبيان اشتراط النية وأثر ذلك.

قال الإمام أحمد عن هذا الحديث: (يدخل فيه ثلث العلم).

وقال البيهقي: (وسبب ذلك؛ أن كسب العبد يكون بقلبه ولسانه وجوارحه).

وروي عن الشافعي أنه قال: (يدخل هذا الحديث في سبعين بابًا من الفقه، واستحب العلماء أن تستفتح المصنفات بهذا الحديث تنبيهًا للطالب على تصحيح النية).

قال أبو داود: (كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما تضمنه هذا الكتاب - يعني كتاب السنن -، جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: أحدها قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» والثاني قوله ﷺ: «**من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**». والثالث قوله ﷺ: «**لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه**». والرابع قوله ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**».

وفي الحديث قول عمر رضي الله عنه «سمعت رسول الله ﷺ» أي؛ سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ بلا واسطة. وهذا الحديث لم يروه عن رسول الله ﷺ إلا عمر رضي الله عنه مع عظم شأنه وأهميته، لكن له شواهد في القرآن والسنة، ففي القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا

تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فهذه نية، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩] وهذه نية، وقال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في في امرأتك**» [رواه البخاري] فقوله: «**تبتغي بها وجه الله**» فهذه نية.

والنية في اللغة: القصد والعزم على فعل الشيء ومحلها القلب، ولم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه في النية لفظ بحال، وما كان في الحج إنما هو إهلال بالحج ودخول في النسك.

والنية محلها القلب، ولا ينطق بها إطلاقًا، لأن المسلم يتعبّد لمن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والله تعالى عليم بما في قلوب عباده، ولهذا لم يرد عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتلفّظون بالنِّية؛ ولهذا فالنطق بها سرًّا أو جهرًا بدعة يُنهى عنها.

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ: (وللنية فائدتان:

أولًا: تمييز العبادات عن بعضها، وذلك كتمييز الصدقة عن قضاء الدين، أو صيام النافلة عن صيام الفريضة.

ثانيًا: تمييز العبادات عن العادات فمثلًا: قد يغتسل الرجل ويقصد به غسل الجنابة فيكون هذا الغسل عبادة يثاب عليها العبد، أما إذا اغتسل وأراد به التبرد من الحر فهنا يكون الغسل عادة فلا يثاب عليه).

إذ المقصود بالنية: تمييز العبادات بعضها من بعض كالنفل مع الفريضة، أو تمييز العبادات من العادات.

وفي الحديث قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» إنما للحصر؛ أي: لا يعتدّ بالأعمال الشرعية بدون النية. والأعمال: جمع عمل، ويشمل أعمال القلوب وأعمال النطق، وأعمال الجوارح. فتشمل هذه الجملة الأعمال بأنواعها، والمراد بالنية: عزم القلب. قال البخاري: باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى، فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة والحج والصوم والأحكام.

وفي قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات...» كلمة جامعة كاملة، فإن النية للعمل كالروح للجسد، وهي ميزان لكل عمل باطن.

وفي قوله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» ميزان للأعمال الظاهرة. وفيها وجوب الإخلاص لله ﷻ في جميع الأعمال، لأنه أخبر أنه لا يَخلصُ للعبد من عمله إلا ما نوى، فإن نوى في عمله

الله والدار الآخرة، كتب الله له ثواب عمله، وأجزل له العطاء، وإن أراد به السمعة والرياء، فقد حبط عمله وكتب عليه وزره.

ومعنى قوله ﷺ: «وإنما لكل امرئ ما نوى» أي جزاء ما نواه. وفيه تحقيق لاشتراط النية والإخلاص في الأعمال.

والنية نوعان: **الأولى**: نية العمل نفسه، وذلك قي قوله: «إنما الأعمال بالنيات».

والثانية: نية من لأجله العمل وذلك في قوله: «وإنما لكل امرئ ما نوى» وهذه هي التي عليها المعول في الإخلاص وضده.

وقوله ﷺ: «وإنما لكل امرئ ما نوى» أي: ما نواه، فإذا نوى المرء شيئًا فلا يكون له من الأجر أو الثواب إلا بقدر ما نوى، فمن نوى الثواب الدنيوي فإنه لا يثاب عليه ثوابًا أخرويًا، أما من نوى الأجر الأخروي فإن الله ﷻ يثيب العباد بإعطائهم الثواب الدنيوي على ما نووا به ثواب الآخرة. وإذا نوى العبد بعمله الأجر الأخروي ووجه الله تعالى فإن حصل شيء من النعيم في الدنيا فإنه يحصل تبعًا بغير نية له.

قال ابن رجب في قوله: (وإنما لكل امرئ ما نوى): (إخبار أنه لا يحصل له من علمه إلا ما نواه، فإن نوى خيرًا حصل له خير، وإن نوى شرًا حصل له شر، وليس هذا تكريرًا محضًا للجملة الأولى،

فإن الجملة الأولى دلت على أن صلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده، والجملة الثانية دلت على أن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة، وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة، وقد تكون نيته مباحة فيكون العمل مباحًا، فلا يحصل له به ثواب ولا عقاب، فالعمل في نفسه: صلاحه وفساده وإباحته بحسب النية الحاملة عليه المقتضية لوجوده، وثواب العامل وعقابه وسلامته بحسب نيته التي بها صار العمل صالحًا أو فاسدًا أو مباحًا).

وفي الحديث: بيان أن جزاء العامل على عمله بحسب نيته من خير أو شر، وبيان أن العمل لا يجزئ إلا إن عُينت نيته، والأعمال لا يُعتد بها شرعًا إلا بالنية الموجودة لها.

والنية أمرها عظيم، قال الحافظ التيمي: (النية أبلغ من العمل، ولهذا تُقبل النية بغير العمل، فإذا نوى حسنة؛ فإنه يُجازى عليها، ولو عمل حسنة بغير نية؛ لم يجازَ بها).

والنية الصالحة الصادقة لها مكانتها، قال ابن المبارك: (رُبَّ عمل صغيرٍ تُعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية).

والمسلم ينبغي له أن يستحضر النية. أي؛ نية الإخلاص في جميع العبادات. فينوي مثلًا الوضوء، وأنه توضأ لله، وأنه توضأ امتثالًا لأمر

الله؛ فهذه ثلاث أشياء: نية العبادة، ونية أن تكون لله، ونية أنه قام بها امتثالًا لأمر الله.

والمسلم يكثر النيات في العمل الواحد، وينوي به تحصيل أكثر من أجر بهذا العمل، كمن يتصدق وينوي أن يكون بالصدقة في ظل عرش الرحمن، وأن يصل بها رحمه، وأن يكسو بها مسلمًا، أو يطعم جائعًا، وأن يتداوى بها، وأن يفرج بها عن مكروب حتى يفرج الله عنه كربات الدنيا والآخرة، إلى آخر هذه النيات الحسنة.

وفي الحج ينوي أداء فريضة الحج، وينوي اتباع النبي ﷺ في قوله «**خذوا عني مناسككم**»، وينوي الدلالة على الخير في الحج، ومساعدة الضعيف والفقير، وإعانة المحتاج والكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من النيات الصالحة.

وفي طلب العلم ينوي: رفع الجهل عن نفسه، وعبادة الله على بصيرة، والتقرب إلى الله، وطلب الخشية، ورفع الدرجات عند الله، ونفع المسلمين وتعليمهم، وهكذا...

ويجوز تعدد النيات في العمل الواحد، وليس لها عدد محدود ما دامت في حدود المشروع من النوايا. ذكر عن داود الطائي أنه قال: (رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك به خيرًا وإن لم تنصب).

وعن مطرف بن عبد الله قال: (صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية).

وضح النبي ﷺ قوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» بمثل بيِّن؛ هو تتمة الحديث، وذلك بقوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فقد ذكر مثالًا من أمثال الأعمال التي صورتها واحدة، ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف النيات، قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله» أي: من كانت هجرته إلى دين الله وإتباع رسوله نية وقصدًا، فهجرته إلى الله ورسوله حكمًا وشرعًا.

وقوله ﷺ: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها» أي يحصل عليها وينالها من مال وغيره «أو امرأة ينكحها» أي يتزوجها «فهجرته إلى ما هاجر إليه» ذكره بالضمير تحقيرًا له، حيث أبهم ما يحصل لمن هاجر إلى الدنيا، لأن الهجرة لأمور الدنيا لا تنحصر بخلاف من هاجر إلى الله ورسوله، فإنه صرح بما يحصل له وما ينال من الخير والأجر، وليتناول ما ذكر من المرأة وغيرها. وأيضًا فالهجرة إلى الله ورسوله واحدة فلا تعدد فيها، فلذلك أعاد الجواب فيها بلفظ الشرط.

وقد أخبر ﷺ أن هذه الهجرة تختلف باختلاف النيات والمقاصد بها، فمن هاجر إلى دار الإسلام حبًّا لله ورسوله، ورغبة في تعليم دين الإسلام فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقًّا. ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام لطلب دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها في دار الإسلام، فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك؛ فالأول تاجرٌ. والثاني خاطب، وليس واحد منهما بمهاجر. وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى، فصلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها، كالجهاد والحج وغيرهما.

وسبب هذا الحديث: أن رجلًا هاجر من مكة إلى المدينة ليتزوج امرأة يقال لها: أم قيس، لا يريد بذلك فضيلة الهجرة، فكان يقال له مهاجر أم قيس.

والهجرة في اللغة الترك. وفي الشرع الانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان. وهي واجبة على القادر عليها، العاجز عن إظهار دينه وأداء واجباته، ومستحبة للقادر على إظهار دينه لمعونة المسلمين، والأمن من غدر الكفار، وأما القادر على إظهار دينه وأداء واجباته، الداعي إلى الله على بصيرة، فالإقامة له أفضل لما يترجى من الدعوة إلى الله ودخول غيره في الإسلام.

قال ابن عثيمين - رحمه الله تعالى -: (المقصود من هذه النية تمييز العادات من العبادات، وتمييز العبادات بعضها من بعض.

وتمييز العادات من العبادات مثاله:

أولًا: الرجل يأكل الطعام شهوة فقط، والرجل الآخر يأكل الطعام إمتثالًا لأمر الله ﷻ في قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [الأعراف: ٣١] أكل الثاني عبادة، وأكل الأول عادة.

ثانيًا: الرجل يغتسل بالماء تبردًا، والثاني يغتسل بالماء من الجنابة، فالأول عادة، والثاني: عبادة، ولذا لو كان على الإنسان جنابة ثم انغمس في البحر للتبرد ثم صلى فلا تجزئه ذلك، لأنه لا بد من النية، وهو لم ينوِ التعبد وإنما نوى التبرّد.

ولهذا قال بعض أهل العلم: عبادات أهل الغفلة عادات، وعادات أهل اليقظة عبادات.

عبادات أهل الغفلة عادات مثاله: من يقوم ويتوضأ ويصلي ويذهب على العادة. وعادات أهل اليقظة عبادات مثاله: من يأكل امتثالًا لأمر الله، يريد إبقاء نفسه، ويريد التكفف عن الناس، فيكون ذلك عبادة. ورجل آخر لبس ثوبًا جديدًا يريد أن يترفّع بثيابه، فهذا لا يؤجر، وآخر ليس ثوبًا جديدًا يريد أن يعرف الناس قدر نعمة الله

عليه وأنه غني، فهذا يؤجر. ورجل آخر لبس يوم الجمعة أحسن ثيابه لانه يوم جمعة هذه عادة، والثاني لبس أحسن ثيابه تأسيًا بالنبي ﷺ فهذه عبادة، وعلى هذا فقِس.

ويشهد لما ذهب إليه العلماء قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: **«إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امراتك»** [رواه البخاري] قال النووي: (وضع اللقمة في فم الزوجة يقع غالبًا في حال المداعبة، ولشهوة النفس في ذلك مدخل ظاهر، ومع ذلك إذا وجد القصد في تلك الحال إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله).

والعمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضًا، بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم. وعملهم حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه في أصله بطل وحبط. في الحديث القدسي: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»** [رواه مسلم].

وأما إذا كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان

خاطرًا ودفعه، فلا يضره، وإن استرسل معه فإن عمله لا يبطل بذلك ويجب عليه مدافعته.

وأما إذا كان العمل لله خالصًا، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره ذلك.

ومن عمل للدنيا لا يحصل له إلا ما نوى إذا شاء الله، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

وفي الحديث: دلالة على أن النية من الإيمان، لأنها عمل القلب، والإيمان عند أهل السنة والجماعة تصديق بالجنان، ونطق باللسان، وعمل الأركان.

وفيه: الحث على الإخلاص، والتحذير من إرادة الدنيا بعمل الآخرة وبيان حقارة ذلك.

وفيه: فضل النية الصالحة والقصد الحسن. وأنه يجب تمييز العبادات بعضها عن بعض.

الحديث الثاني

نبينا محمد ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله - تعالى -. و الوحي الذي هو مصدر الرسالة، ومداد الدعوة؛ مراتبه أقسام:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكان مبدأ وحيه ﷺ.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**». [رواه أبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني].

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا. كما في الحديث الذي سوف يأت معنا في هذه الخطبة.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك، حتى أن جبينه ﷺ لتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد

جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضُّها.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر ﷻ ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

وقد زاد بعض العلماء مرتبة سابعة وهي تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف.

وفي هذا الحديث الذي رواه الإمام مسلم عَنْ عُمَرَ قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ. حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْت. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ. قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ. قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟. قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ».

قال النووي: (وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعًا من التلبس بشيء من النقائص احترامًا لهم واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال مطلعًا عليه في سره وعلانيته).

وفيه: من آداب التعليم وفرائض الإسلام والإيمان، وعلامات الساعة التي ذكر منها النبي ﷺ علامتان:

الأولى: «أن تلد الأمة ربتها»، وهذا إشارة إلى فتح البلاد وكثرة جلب الرقيق حتى تكثر السراري ويكثر أولادهن، فتكون الأمة رقيقة لسيدها، وأولاده منها بمنزلته.

والثانيـة: مـن علامـات السـاعة «أن تـرى الحفـاة العـراة العالـة يتطاولون في البنيان» إما لكثرة الخير، أو فساد وضياع الحقوق.

ومن علامات الساعة التي وردت في أحاديث أخرى: ظهور الدابة، ونزول عيسى ﷺ، وخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها.

وهـذا الحـديث عظيم القـدر، عليـه مـدار الإسـلام، مشتمل على جميع الأعمال الظاهرة والباطنة، وهـو أصـل جامع لأصـول الـدين الاعتقادية والعملية، وعلوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه، فهو كـالأم للسُّنة، كمـا سـميت الفاتحـة أم القـرآن، لمـا تضـمنته مـن جمعها معاني القرآن.

قوله: «إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب» فيه دليل على تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك؛ فإن جبريل أتى معلمًا للناس بحاله ومقاله.

«لا يـرى عليه أثـر السفر ولا يعرفـه منا أحـد». أي أنـه لـيس مـن أهل المدينة.

قال: «فأخبرني عن الإسـلام»؟ فقـال رسـول الله ﷺ: «الإسـلام أن تشـهد أن لا إلـه إلا الله» وحـده لا شـريك لـه في ألـوهيتـه وربوبيتـه وأسمائه وصفاته.

«وأن محمدًا رسول الله» أرسله الله بالهدى ودين الحق، ومقتضى ذلك طاعته فيما أمر وإجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع.

«وتقيم الصلاة» المفروضة بأركانها وواجباتها وسننها في أوقاتها. «وتؤتي الزكاة» لمستحقيها. «وتصوم» شهر «رمضان». «وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلًا».

وجاء في الحديث أن جبريل عليه السلام:

«ووضع كفيه على فخذيه» أي: على فخذي النبي ﷺ كأنه من جفاة الأعراب، وقيل: على فخذي نفسه: أي: جلس جلسة المسترشد والمتعلم.

وقال: «يا محمد أخبرني عن الإسلام.. إلى آخره» فيه دليل على أن الإيمان أخص من الإسلام؛ لأنه سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان؛ فترقى من الأعم إلى الأخص ثم إلى الأخص منه، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]. وقد يطلق الإسلام ويراد به الإيمان، كقوله

تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]. فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا.

ثم سئل جبريل رسول الله ﷺ: «قال فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر».

الإيمان بالله؛ هو التصديق بأنه سبحانه وتعالى موجود، مستوي على عرشه، بائن من خلقه، موصوف بصفات الجلال والكمال، منزه عن صفات النقص؛ وأنه واحد أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، لا إله غيره، ولا رب سواه.

والإيمان بملائكته؛ هو التصديق بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

والإيمان بكتبه؛ التصديق بالكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله كالتوراة والإنجيل والزبور، وأعظمها القرآن الكريم كلام الله ﷻ، وأن ما تضمنته حق وصدق. ومن ثمرات الإيمان بالكتب: شكر الله على لطفه بخلقه وعنايته بهم حيث أنزل إليهم الكتب المتضمنة إرشادهم لما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة.

ومنه ظهور حكمة الله تعالى حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها. وكان خاتم الكتب القرآن العظيم مناسبًا لجميع الخلق إلى قيام الساعة.

والإيمان برسله؛ هو تصديقهم فيما أخبروا به عن الله تعالى، أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأنهم بلغوا عن الله رسالاته، وبينوا للمكلفين ما أمرهم الله به. قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والإيمان باليوم الآخر؛ هو التصديق بيوم القيامة، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت والحشر والنشر، والحساب والميزان؛ والصراط والجنة والنار. وأنهما دار ثوابه وجزائه للمحسنين والمسيئين، إلى غير ذلك مما صح من النقل.

ثم قال ﷺ: «وتؤمن بالقدر خيره وشره» أي: تصدق بأن ما وقع من شيء فهو بتقدير الله ﷻ. والمراد أن الله تعالى علم الأشياء قبل إيجادها، ثم أوجد ما شاء منها، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩].

ومن ذلك قوله ﷺ في حديث ابن عباس: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**» [رواه الترمذي].

ومذهب السلف وأئمة الخلف أنَّ من صدَّق بهذه الأمور تصديقًا جازمًا لا ريب فيه ولا تردد كان مؤمنًا حقًا سواء كان ذلك عن براهين قاطعة أو عن اعتقادات جازمة.

قوله: «فعجبنا له؛ يسأله ويصدقه» لأنه سأل سؤال عارف محقق مصدّق. وفي رواية: «قال القوم ما رأينا رجلًا مثل هذا كأنه يعلم رسول الله ﷺ يقول له: **صدقت صدقت**».

ثم سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: «فأخبرني عن الإحسان؟ قال ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وإحسان العبادة: الإخلاص فيها والخشوع ومراقبة المعبود. وحاصله راجع إلى إتقان العبادات ومراعاة حقوق الله تعالى ومراقبته واستحضار عظمته وجلالته حال العبادات.

وأشار ﷺ إلى حالتين: أرفعهما أن يغلب على العبد مشاهدة الله بقلبه حتى كأنه يراه بعينه.

والثانية: أن يستحضر أن الله مطلع عليه يرى كل ما يعمل.

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].

قال الإمام المناوي في معنى: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك): (بأن تتأدب في عبادته كأنك تنظر إليه، فجمع بين بيان المراقبة في كل حال، والإخلاص في سائر الأعمال).

ثم سئل جبريل عليه السلام: «قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ﷺ ما المسئول عنها بأعلم من السائل» أي: لا أعلمها أنا ولا أنت ولا أحد من الخلق، بل لا يعلم وقت مجيئها إلا الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

قوله: «فأخبرني عن أماراتها؟» أي: علاماتها. فقال: «أن تلد الأمة ربتها» أي: سيدتها. وفي رواية: «ربها» أي: يكثر التسري فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه بأبيه، وقيل معناه أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة والسب.

ثم قال في بيان بعض علامات الساعة: «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان» قال القرطبي: المقصود الإخبار عن تبدل الحال بأن يستولي أهل البادية على الأمر، ويتملكون البلاد

بالقهر، وتنصرف هممهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به، ومنه الحديث الآخر: «**لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع**» ومنه: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**».

ثم جاء في الحديث: «ثم انطلق» أي، ذهب جبريل ﷺ «فلبثت مليًّا ثم قال ﷺ: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». في رواية الترمذي والنسائي «فلبث ثلاثًا». وفي رواية البخاري عن أبي هريرة: «ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئًا، فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

وهذا الحديث فيه ذكر الإسلام، والإيمان، والإحسان. وفيه أن هذه الثلاثة هي الدين، لأن النبي ﷺ قال في آخره: «أتاكم يعلمكم دينكم».

والإحسان أفضل منازل السائرين، وأعلى درجات العبادة، وأحسن أحوال عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ومن فضائل الإحسان: أن الله تعالى مع من أحسن العمل؛ معية خاصة بنصره وتأييده وحفظه ومعونته وإصلاح شأنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ومن فضائل الإحسان: محبة الله تعالى لعبده الذي أحسن القول والفعل قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ومن فضائل الإحسان: أن الله تعالى يجعل للمحسنين من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، قال تعالى عن يوسف عليه السلام وأخيه: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] إلى غير ذلك من الفضائل العظيمة والعطايا الجزيلة.

قال القاضي عياض: (اشتمل الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداء وحالًا ومآلًا، ومن أعمال الجوارح من إخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشبعة منه).

وفي الحديث: بيان حسن خلق النبي ﷺ وأنه يجلس مع أصحابه ويجلسون إليه، وفيه بيان حسن أدب الصحابة مع الرسول ﷺ وتعظيمهم له.

وفيه: بيان بعض علامات الساعة.

وفيه: فضل الإحسان ومراقبة الله عز وجل في الخلوة والجلوة.

الحديث الثالث

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ».

أورد المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الحديث لا شتماله على مباني الإسلام العظام، وهو أصل عظيم في معرفة الدين، وعليه اعتماده، وقد جمع أركانه في لفظ بليغ وجيز.

قال ابن حجر: (هو حديث عظيم، أحد قواعد الإسلام، وجوامع الأحكام، إذ فيه معرفة الدين، وما يعتمد عليه، ويجمع أركانه، وكلها منصوص عليها في القرآن، وهو داخل ضمن حديث جبريل).

راوي هذا الحديث هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي، وأمه زينب بنت مظعون، أخت عثمان بن مظعون، ولد قبل البعثة بسنة، أسلم بمكة قديمًا مع أبيه وهو صغير وهاجر معه، وكان من فقهاء الصحابة وزهادهم، كان من أعلم الناس بالمناسك، توفي

سنة ثلاث وسبعين للهجرة، وعمره سبعًا وثمانين عامًا. رضي الله عنه وعن أبيه.

وفي هذا الحديث بين ﷺ حقيقة الإسلام ودعائمه وأركانه العظيمة.

جاء في الحديث؛ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس» قوله ﷺ: «بني الإسلام» الذي بناه هو الله عز وجل، وأبهم الفاعل للعلم به، كما أبهم اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

«على خمس» أي؛ خمس أعمدة أو دعائم وأركان، وفي الحديث استعارة تمثيلية شبهت حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خباء أقيم على خمسة أعمدة. فقطبها التي تدور عليه الأركان وهو الشهادة بمنزلة العمود الذي في وسط الخباء، وبقية شعبه بمنزلة الأوتاد، فتكون مغايرته لهذه الأركان كمغايرة الخباء للأعمدة. ومن أتى بهذه الخمس فقد أتم إسلامه.

وفي رواية: «**بني الإسلام على خمسة**» أي: خمسة أركان، فمثَّل الإسلام بالبنيان الذي لا يثبت إلا على خمس دعائم فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان.

قال القرطبي: (يعني أن هذه الخمس أساس دين الإسلام وقواعده التي عليها بني وبها يقوم، وإنما خص هذه بالذكر ولم يذكر معها الجهاد مع أنه يظهر الدين ويقمع عناد الكافرين لأن هذه الخمس فرض دائم، والجهاد من فروض الكفايات وقد يسقط في بعض الأوقات).

وقال ابن رجب: (والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان، ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان، وهو قائم لا ينتقض بنقض ذلك، بخلاف نقض هذه الدعائم الخمس، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعًا بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين).

وأول هذه الأركان «شهاد أن لا إله إلا الله» أي؛ الاعتراف والاقرار أنه لا معبود بحق إلا الله.

ولا تتحقق الشهادة إلا بركنين:

الأول: نفي الألوهية والعبادة عن سائر الأنداد والآلهة والطواغيت من شجر وحجر وملك وجني وولي وغير ذلك.

الثاني: إثبات الألوهية والعبادة الحقة لله دون ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ

ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والإيمان بالله، وهذا يشمل إقرار اللسان بأن يتكلم المرء بذلك، ويشمل أيضًا إقرار القلب، ويؤمن به ويعتقده ويجزم به

«وأن محمدًا رسول الله» أي، تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع. والإيمان برسوله بتصديقه وإتباعه وطاعته ونشر سنته والذب عنها.

«وإقام الصلاة» الإتيان بها جامعة الأركان والشروط. وهي خمس صلوات في اليوم والليلة.

قال في الحديث **«وإقام الصلاة»** ولم يقل أداء الصلاة لأنه ليس مقصود الشارع فعلها فحسب، وإنما مقصوده أداؤها تامة بشروطها وأركانها، والمحافظة على أوقاته ومراعاة سننها وآدابها، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقد جعل الله الصلاة عمود الإسلام كما في الحديث: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة**». وقال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون من الأعمال شيئًا تركه كفر غير الصلاة.

«وإيتاء الزكاة» أي؛ إعطائها مستحقها. والزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام. وهي عبادة مالية نفعها متعد، وقد أوجبها الله في أموال الأغنياء على وجه ينفع الفقير ولا يضر الغني لأنها شيء يسير من مال كثير. قرنها الله تعالى بالصلاة في كتابه في اثنين وثمانين موضعًا. وقد ذكر الله أهل الزكاة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وسميت صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان باذلها. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

«وحج البيت» أي؛ قصد بيت الله في مكة لاداء فريضة الحج لمن استطاع إليه سبيلا؛ وهو في العمر مرة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال النبي ﷺ: «**السبيل الزاد والراحلة**» [رواه الدار قطني].

«وصوم رمضان» أي؛ صوم شهر رمضان الذي بين شعبان وشوال. وصوم رمضان هو الركن الرابع من أركان الإسلام. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]. وقد ورد مرفوعًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**من أفطر يومًا من رمضان لغير عذر لم يقضه صيام الدهر وإن صامه**» [رواه البخاري].

قال عطاء الخرساني: (الدين خمس لا يقبل الله منهن شيئًا دون شيء، بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، والإيمان بالله وكتبه ورسله، وبالجنة والنار، والحياة بعد الموت هذه واحدة. والصلوات الخمس عمود الدين لا يقبل الله الإيمان إلا بالصلاة، والزكاة طهور من الذنوب، ولا يقبل الله الإيمان ولا الصلاة إلا بالزكاة؛ فمن فعل هؤلاء الثلاث ثم جاء رمضان فترك صيامه متعمدًا لم يقبل الله منه الإيمان ولا الزكاة؛ فمن فعل هؤلاء الأربعة ثم تيسر له الحج فلم يحج ولم يوصى بحجته ولم يحج عنه بعض أهله لم يقبل الله منه الأربع التي قبلها).

قال ابن عثيمين: (فهذه هي أركان الإسلام؛ من أتى بها فهو المسلم، وقد بنى على أساس متين، ومن لم يأت بها فهو بين فاسق

أو كافر، فمن لم يأت بالشهادتين فهو كافر، ومن لم يصل فهو كافر، ومن منع الزكاة فهو فاسق، ومن لم يحج فهو فاسق، ومن لم يصم فهو فاسق، والله الموفق).

والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والإنقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، الإسلام هو ما جاء به الرسول ﷺ، وهو دين جميع الأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] فلا نجاة إلا بالتمسك بالإسلام فإنه سبيل النجاة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا ينجو به من الكفر والشرك، وينجو به من الفتن والمحدثات، وينجو به من الأفكار المنحرفة، وفي الآخرة ينجو به من النار، ويدخل به الجنة، وهذه هي السعادة الأبدية في جنات النعيم.

ولا يقتصر دين الإسلام على ما ذكره النبي ﷺ من الأمور الخمسة في هذا الحديث بل يشمل أعمالًا وشعبًا كثيرة، وإنما اقتصر النبي ﷺ على ذكر هذه الأركان الخمسة لأنها بمنزلة الدعائم للبنيان ولا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام تتمة للبنيان، فإذا فقد

منها شيء نقص البنيان وهو قائم لا ينتقض بنقص ذلك بخلاف نقص هذه الدعائم الخمس فإن الإسلام يزول بزوالها جميعًا بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين.

فحافظوا على دينكم، وأدوا حق ربكم، وأروا الله منكم خيرًا.

وفي الحديث: ذكر مبان الإسلام وأركانه.

وفيه: التمثيل وتقريب الأمر للأذهان.

وفيه: حرص النبي ﷺ على أمته وتبليغ رسالته.

الحديث الرابع

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ -وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ-: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ؛ فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أسلم قديمًا بمكة سادس ستة، ثم هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وشهد بدرًا، وبيعة الرضوان، والمشاهد كلها، وصلى إلى القبلتين، ولي قضاء الكوفة ومالها في خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثم رجع إلى المدينة ومات بها سنة اثنين وثلاثين، ودفن بالبقيع.

وهذا الحديث متفق على صحته، وتلقته الأمة بالقبول وخرجه الشيخان في صحيحيهما.

وفيه: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق)، يعني الصادق فيما يقول، والمصدوق فيما يوحى إليه من الوحي، وفيما يقال له من الوحي. وإنما ذكر ذلك لأنه سيخبر عن أمر غيبي لا يعلمه إلا الله عز وجل لا تدركه حواس البشر ولا إمكاناتهم في ذلك الزمان -مما يتعلق بعلم الأجنة وأطوارها. ولأن التحدث عن هذا المقام من أمور الغيب التي تخفى بما في ذلك كتابه الرزق والأجل والعمل وشقي أو سعيد.

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يجمع» أي يضم ويحفظ ويقدر ويمكث. «خلقه» أي؛ مادة خلقه، أو ما يخلق منه.«في بطن أمه أربعين يومًا نطفة» أي؛ في رحم أمه. نطفة: وهي الحيوان المنوي الذي يكون منه تكون الإنسان، وسميت نطفة لأنها من الماء الذي ينطف. أي؛ يسيل.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعرة وظفر، فتمكث أربعين يومًا، ثم تنحدر في الرحم، فتكون علقة، قال: فذلك جمعها).

«ثم يكون علقة» أي؛ يصير دمًا جامدًا، لأنها إذ ذاك تعلق بالرحم. «مثل ذلك» أي؛ أربعين يومًا.

«ثم يكون مضغة مثل ذلك» أي؛ قطعة من اللحم، قدر ما يمضغ مقدار أربعين يومًا، وفيها يصورها الله ـ تعالى ـ ويجعل الأعضاء والسمع والبصر. فإذا تمت صار ابن مائة وعشرين يومًا.

قوله: «ثم يرسل إليه الملك» والمرسل هو الله رب العالمين «فينفخ فيه الروح» أي الملك؛ بعد كمال الجسم وخلقه. فهذه سبع تارات ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١١-١٤] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

وقوله ﷺ: «فينفخ فيه الروح» الروح ما به يحيا الجسم، وقد سُئل النبي ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وبهذا فإن أطوار الجنين قبل نفخ الروح ثلاثة: نطفة، فعلقة، فمضغة، وأن مدة كل طور أربعون يومًا. وفي هذا علم من أعلام نبوة محمد ﷺ، لأن هذه الأطوار وهذه المقادير لم يكن في العادة الاطلاع عليها.

قال بعض أهل العلم والحكمة: في هذه الأطوار رفق بالأم لان الله قادر على خلق الإنسان مرة واحدة.

وفي الحديث أنه بعد مضى هذه الأطوار الثلاثة - وقدرها مائة وعشرون يومًا - تنفخ فيه الروح، فيكون إنسانًا حيًا، وقبل ذلك هو ميت، وقد جاء في القرآن الكريم أن الإنسان له حياتان وموتتان، كما قال الله ﷻ عن الكفار: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

فالموتة الأولى؛ ما كان قبل نفخ الروح، والحياة الأولى من نفخ الروح إلى بلوغ الأجل، والموتة الثانية؛ من بعد الموت إلى البعث، وهذه الموتة لا تنافي الحياة البرزخية الثابتة بالكتاب والسنة، والحياة

الثانية الحياة بعد البعث، وهي حياة دائمة مستمرة إلى غير نهاية، وهذه الأحوال الأربع للإنسان بينها الله بقوله: ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

قال ﷺ: «ويؤمر» أي ذلك «الملك بأربع كلمات»:

قال الطيبي: (الكلمات: القضايا المقدرة، وكل قضية تسمى كلمة، قولًا كان أو فعلًا).

قوله: «ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه» والرزق هنا: ما ينتفع به الإنسان وهو نوعان: رزق يقوم به الدين وهو الأكل والشرب واللباس والسكن والمركوب وغير ذلك، وفيه: الحض على القناعة والزجر الشديد عن الحرص لأن الرزق سبق تقديره. والثاني: الرزق الذي يقوم به الدين وهو العلم والإيمان.

«وأجله» أي؛ مدة عمره، أو الوقت الذي ينقرض فيه ويموت، وهو مدة بقائه في الدنيا.

«وعمله» ما يكون منه من عمل صالح أو غيره، من الأعمال القولية والفعلية والقلبية.

«وشقي أو سعيد» أهو من أهل النجاة والسعادة، أو من أهل الشقاء؟ ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

قال ابن عثيمين: (ولو سقط الجنين قبل تمام مائة وعشرين يومًا، فليس له حكم من جهة الصلاة عليه، بل يؤخذ ويدفن في أي حفرة من الأرض، ولا يصلى عليه. أما إذا أتم مائة وعشرين يومًا يعني أربعة أشهر صار حينئذ إنسانًا، فإذا سقط بعد ذلك، فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه، ولو كان قدر اليد، فإنه يصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين إن كان مسلمًا، وإن كان من أولاد النصارى، يعني أمه وأبوه من النصارى، فلا يدفن في مقابر المسلمين، بل يخرج به ويدفن بدون تغسيل ولا تكفين لأنه وإن كان طفلًا، فإن الرسول سُئل عن أولاد المشركين فقال: «**هم منهم**» [رواه البخاري]).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**». وفي حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة**».

وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار**». فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «**اعملوا فكل مُيسر لما خلق له، وأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

ثم قال ﷺ: «فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

قوله ﷺ: «فوالله الذي لا إله غيره» هذا قسم مؤكد بالتوحيد فيه؛ دليل على مشروعية الحلف في الأمور المهمة.

«إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع» أي حتى يقرب أجله تمامًا. «فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

وفيه العبرة وأخذ الحذر فإن الأعمال بالخواتيم، فلا يغتر الإنسان بعمله، وليس في الحديث القعود عن طلب الرزق والأسباب الموصلة إلى مرضاة الله من فعل الطاعات وكسب الأرزاق والخروج للجهاد في سبيل الله.

قال العلماء: (هذا يدل على أن ظاهر عمل الرجل صالحًا وأن باطنه يكون بخلاف ذلك، وأن الخاتمة السيئة تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس من شك أو نفاق أو رياء).

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين، قال: قال رجل: يا رسول الله، أيُعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال «**نعم**» قال: فلِمُ يعمل العاملون؟ قال: «**كلُ يعمل لما خلق له، أو لما يُيسر له**».

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ التقى هو والمشركون وفي أصحابه رجل لا يدع شاذة ولا فاذة إلا تبعها يضربها بسيفه فقالوا ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «**هو من أهل النار**»، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه فاتبعه فجرح الرجل جرحًا شديدًا فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه على الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، وقص عليه

القصة. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس**» إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيء أو نحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة. وفيه أن الشقاوة والسعادة بحسب خواتيم الأعمال.

قال عبد العزيز بن أبي رواد: (حضرت رجلًا عند الموت يلقن الشهادة لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافر بما تقولون ومات على ذلك. قال: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر).

وكان عبد العزيز يقول: (اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته).

وفي الجملة فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخاتمة.

وخرّج الإمام أحمد من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»

فقلت: يا رسول الله أو إن القلوب لتتقلب؟ قال: «**نعم ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله ﷻ، فإن شاء الله ﷻ أقامه، وإن شاء أزاغه**» [رواه الترمذي].

وقد جاء رجل يسأل النبي ﷺ عن دعاء يدعو به، فقال: «**قل: اللهم اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن**» [رواه أحمد] قالت: قلت يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال بلى: قولي: «**اللهم رب النبي محمد ﷺ اغفر لي ذنبي. وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني**» [رواه ابن السني].

وإن للسعادة أسبابًا: وهي الإيمان، والتقوى، وللشقاوة أسبابًا؛ وهي: الكفر، واتباع الهوى.

وعلى المسلم الإكثار من دعاء الله ﷻ ليلًا ونهارًا بإحسان الخاتمة، وكذلك الإكثار من الطاعات والقربات، ومجالسة الصالحين.

قال ابن دقيق العيد: لما كانت السابقة مستورة عنا، والخاتمة ظاهرة جاء في الحديث: «**إنما الأعمال بالخواتيم**» إلى أن قال: وانقلاب الناس من الشر إلى الخير كثير، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر ففي غاية الندور، ولله الحمد. قلت: ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ

تَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤]. وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

في هذا الحديث: مراحل خلق الإنسان وتقدير رزقه وأجله وعمله.

وفيه: عناية الله تعالى بالخلق حيث وكَّل بهم وهم في بطون أمهاتهم ملائكة يعتنون بهم.

وفيه: إثبات القدر، وأن جميع ما في الكون من نفع أو ضر بقضاء الله وقدره. وفيه: إيماء إلى عدم الاغترار بصور الأعمال، لأن الأعمال بالخواتيم.

وفيه: الحرص على الأعمال أن تكون صوابًا على سنة نبيه ﷺ، خالصة لله ﷻ. مع كثرة الدعاء والتضرع لله ﷻ بحسن الخاتمة والثبات على الدين.

وفيه: أنه لا ينبغي لأحد أن يقنط أحدًا من رحمة الله ـ تعالى ـ.

الحديث الخامس

اقتضت حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون هذا الدين خاتم الأديان وآخر الشرائع، وكملت وتمت الرسالة بموت نبينا محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

روى البخاري ومسلم عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

هذا الحديث من أصول الدين وقواعده، ومحتوي على أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، فيحتج به في رد المحدثات في الدين.

والحديث هذا نصف العلم، والآخر في قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**». فالحديث الأول في الأعمال الظاهرة، والثاني في الأعمال الباطنة.

قال النووي: (هذا الحديث ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به كذلك).

وقال ابن حجر: (هذا الحديث معدود من أصول الدين وقاعدة من قواعده).

راوي هذا الحديث هي الصّديقة بنت الصديق رضي الله عنها، أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكانت من أحب نسائه إليه ﷺ بعد خديجة رضي الله عنها، لم يتزوج النبي ﷺ بكرًا غيرها، وكانت صوامة، صاحبة كرم وزهد، وفقه وعلم، وحفظ وفصاحة.

قال الذهبي: (هي أفقه نساء الأمة على الإطلاق) وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (ما أشكل علينا حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا).

وقال الزهري: (لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وجميع علم النساء كان علم عائشة أكثر).

توفيت رضي الله عنها وعن أبيها، بالمدينة، وعمرها ست وستون سنة، ودفنت بالبقيع سنة خمس وثمانين من الهجرة.

وجاء في الحديث «من أحدث في أمرنا» أي؛ ابتدع في ديننا. أي؛ في الإسلام لأنه قد تم وكمل. والأمر هنا الدين كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ

ﱡٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﱠ [النور: ٦٣].

قوله ﷺ: «من أحدث» أي أنشأ واخترع من قبل نفسه «في أمرنا» أي شأننا الذي نحن عليه، وهو ما شرعه الله ورسوله ﷺ واستمر العمل به.

قوله: «في أمرنا هذا» إشارة إلى جلالته ومزيد رفعته وتعظميه «ما ليس منه» أي مما ينافيه، أو لا يشهد له شيء من قواعده وأدلته العامة «فهو رد» أي مردود على فاعله لبطلانه وعدم الاعتداد به.

وفي هذا الحديث الإشارة إلى وقوع البدع، وهذا الحديث أصل من أصول تصحيح الأعمال وذلك أن العبادات يشترط لصحتها أمران: الأول: الإخلاص لله ﷻ، والثاني اتباع النبي ﷺ، قال تعالى: ﱡٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﱠ [الملك: ٢].

قال الفضيل: (أخلصه وأصوبه، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة).

«ما ليس منه فهو رد» أي؛ فهو مردود على صاحبه.

وتعريف البدعة: هي كل قول أو فعل محدث نسب إلى الدين وليس له أصل في الكتاب أو السنة أو الإجماع.

قال ابن تيمية: (البدعة ما خالفت الكتاب أو السنة وإجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات، والبدع كلها محرمة مذمومة شرعًا، لقوله ﷺ: «**وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**» [رواه النسائي]).

وقال ابن رجب: (فهذا الحديث يدل بمنطوقه على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع، فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره، فهو غير مردود، والمراد بأمره هنا: دينه وشرعه، كالمراد بقوله في الرواية الأخرى: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد فالمعنى إذًا: أن من كان عمله خارجًا عن الشرع ليس متقيدًا بالشرع، فهو مرود).

ومن أحدث بدعة ودعى الناس إليها فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن دعى الناس إلى سنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعدي من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا**» [رواه مسلم].

قال الشاطبي: (طوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه، والويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة أو مئتي سنة يعذب بها في قبره ويسأل عنها إلى انقراضها).

والبدعة أشد من جنس المعصية، لأن العاصي يعمل الذنب لشهوة من غير اعتقاد، وهو في قرارة نفسه يعلم أنه مخالف للشرع ودائمًا يحدث نفسه بالتوبة وترك المعصية.

أما المبتدع فيعمل البدعة عن اعتقاد أنها من الدين، ويتقرب إلى الله بذلك ويدعو لها، ولا يزداد إلا إصرارًا على بدعته. ولهذا قال سفيان الثوري: (البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدع لا يتاب منها).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

والبدع تبعد عن الله عَزَّ وَجَلَّ، والسنة تقرب من الله، والبدعة تغضب الله، والسنة ترضي الله تعالى، لأنه قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ وفي الحديث عن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**».

وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين، واصل من أصول الدين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه صريح

في ردّ كل بدعة، سواء أحدثها أو قلد غيره فيها، لقوله في رواية مسلم: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا» أي في ديننا وشرعنا «فهو رد» أي: مردود باطل، والمراد أن أعمال العاملين تكون تحت أحكام الشريعة في الأوامر والنواهي، فمن كان عمله تحت أحكام الشريعة في الأوامر والنواهي، فهو مقبول وما كان خارجًا عنها فهو مردود. قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

وليس هناك في الإسلام بدعة حسنة، كل بدعة ضلالة كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ فالبدع كلها ضلالة، وأما مارآه العلماء من تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة فهو اصطلاح جديد، ورأي من بعض العلماء لا يعول عليه، والصواب أن كل بدعة ضلالة، وما ظنه بعض العلماء أنه بدعة حسنة فليس الأمر كذلك، ولكنه مشروع ولا يقال له بدعة، وإن قيل له بدعة من جهة اللغة كما قال عمر رضي الله عنه في التراويح: (نعمت البدعة)، فهذا من حيث اللغة، لأن الرسول ﷺ لم يستمر عليها في حياته خاف أن تفرض على المسلمين فصلاها ليالي ثم ترك، وقال: «**إني أخشى أن تفرض عليكم**» فلما توفي ﷺ رأى

عمر رضي الله عنه أن إقامتها أمر طيب ومشروع، لأن افتراضها على الناس قد أمن بموت الرسول ﷺ فلهذا لما أمرهم بذلك ورآهم يصلون، قال: (نعمت البدعة هذه) من حيث اللغة، لأن البدعة في اللغة: ما فعل على غير مثال سابق، والتراويح لم تكن على مثال سباق من جهة الاستمرار خلال ليالي رمضان، وإلا فهي سنة.

قال السعدي: (إن كل عبادة فعلت على وجه منهي عنه فإنها فاسدة، لأنه ليس عليها أمر الشارع، وإن النهي يقتضي الفساد، وكل معاملة نهى الشارع عنها فإنها مُلغاة لا يعتد بها).

وقد أمر الله عز وجل باتباع ما جاء به النبي ﷺ، ونهى عن مخالفته، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وحذر تعالى من مخالفة رسوله ﷺ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ومن مخالفة أمر الرسول ﷺ ومشاقته ﷺ الابتداع في الدين، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فإن البدع ضررها عظيم وإثمها خطير. فالبدع مضادة للشريعة ومراغمة للشارع، حيث أن المبتدع نصب نفسه مستدركًا على الشريعة، مكملًا لها وقد أنكر الله ﷻ الابتداع في الدين وجعله تشريعًا لما لم يأذن به، فقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

فاتقوا الله عباد الله، فإن البدعة لا تزيد صاحبها من الله إلا بعدًا. وعليكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهي التي أمرتم بها وأرتضاها الله ﷻ لكم.

فإن من علامات وبرهان محبة الله ﷻ طاعته و اتباعه واقتفاء سنته رسوله ﷺ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد أوصى النبي ﷺ باتباعه والتمسك بسنته كما في حديث العرباض بن سارية قال: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة ضلالة**» [رواه الترمذي].

فالبدع تهدم الدين، وتفسد ذات البين، وتوجب غضب الله ﷻ وأليم عقابه في الآخرة، وتعم بها العقوبات في الدنيا وتتنافر بسببها القلوب، وتتضرر بها مصالح الناس، وتورث الذل والهوان كما قال ﷺ: «**وجُعلت الذل والصغار على من خالف أمري**».

وفي الحديث: التمسك بالسنة ولزومها، والتحذير من البدع.

وقد روى الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «**اللهم احفظني بالإسلام قائمًا، اللهم احفظني بالإسلام قاعدًا، اللهم احفظني بالإسلام راقدا، ولا تشمت بي عدوًا ولا حاسداً، الله إني اسألك من كل خير خزائنه بيد، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك**».

وهذا الدعاء من أجمع الدعاء وأعظمه، لأن من حفظ بالإسلام في قيامه ورقوده، فقد سلمت له دنياه وأخراه، وأفلح في الأولى والأخرى، وسعد سعادة لا يشقى بها أبدا.

ومن فوائد الحديث: تحريم إحداث شيء في دين الله ولو عن حسن قصد.

وفيه: أن الله أكمل لنا الدين وأتمّ علينا النعمة.

الحديث السادس

في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقْد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَّا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَّا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الشريعة، وأجمع العلماء على عظيم موقعه وكثرة فوائده. وسبب عظم موقعه أنه ﷺ نبه فيه على إصلاح المطعم والمشرب والملبس وغيرها؛ فإنه سبب لحماية الدين والعرض وحذر من مواقعة الشبهات.

قال أبوداود السجستاني: (الإسلام يدور على أربعة أحاديث ذكر منها هذا الحديث).

وقد أنزل الله ﷻ كتابه الكريم على نبينا ﷺ وبين فيه للأمة ما يُحتاج إليه من حلال وحرام، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ووكل تعالى بيان ما أشكل من التنزيل إلى الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وما قبض رسول الله ﷺ حتى أكمل الله تعالى له ولأمته الدين وأتم النعمة ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**» [رواه ابن ماجة].

فما ترك ﷻ ورسوله ﷺ حلالًا إلا بينه، ولا حرامًا إلا بينه. لكن بعضه كان أظهر من بعض. كما قال ﷺ في الحديث: «إن الحلال بين» ومعناه أن الحلال المحض بيِّن لا اشتباه فيه، منه مانص الشرع على حله، كبهيمة الأنعام، وصيد البحر، والتمتع بما أحل الله من الحبوب والثمار واللباس. إذا لم تصل إلى الإنسان بطريق الحرام.

والحلال كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

ومنه ما سكت عنه الشرع، مثل أنواع الطير مما ليس له مخلب.

قال ﷺ: «وإن الحرام بين» والحرام المحض بيِّن لا اشتباه فيه، منه ما حُرم لحق الله تعالى؛ كالميتة والدم ولحم الخنزير، وشرب الخمر والزنا، ومنه ما حرم لحق العبد كالمغصوب والمسروق.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣] وقوله سبحانه: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦].

«وبينهما أمور» أي؛ شؤون وأحوال «مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس» أي؛ لا يعلمون حكمهن في التحليل والتحريم، ولكن بين الأمرين أمور تشتبه على كثير من الناس. هل هي من الحلال أم من الحرام؟ وهذا التقسيم شامل للمطاعم والمشارب، والملابس والمناسك والعبادات والمعاملات، والاشتباه لا يعرض إلا بأسباب من الناس إما لجهلهم وقله علمهم وفهمهم، أو عدم إطلاعهم على الأدلة الشرعية، وإما لعدم رجوعهم لعلماء الشريعة. وكذلك التقصير في التدبر والبحث، وأعظمها سوء القصد بأن لا يقصد الإنسان إلا نصر قوله فقط سواء أكان صوابًا أم خطأ.

وقوله ﷺ: «فمن اتقى الشبهات» أي؛ تجنبها وابتعد عنها.

«فقد استبرأ لدينه وعرضه» أي؛ طلب البراءة لدينه وعرضه من

النقص والشين والذم والقدح بصونه عن كلام الناس فيه بما يشينه ويعيبه. قال بعض السلف: من تعرّض للتهم فلا يلومنّ من أساء الظن به.

وأما الراسخون في العلم فلا تشتبه عليهم، فأما ما كان حلالًا فشك في تحريمه فهو على الإباحة حتى يعلم تحريمه، وأما ما كان حرامًا فشك في تحليله فهو على الأصل حتى يعلم تحليله؛ وأما الوهم الذي لا أصل له كترك الوضوء بماء باق على أوصافه مخافة نجاسة وقعت فيه ونحوه فهذا لا يلتفت إليه، والورع منه وسوسة. وهذا الاشتباه لا يكون على جميع الناس بدليل قوله ﷺ: «لا يعلمهن كثير من الناس» والمعنى وكثير يعلمهن.

وقوله ﷺ: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه». ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم:١٠].

وأما قوله: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام» فذلك يكون بوجهين.

أحدهما:

أنَّ من لم يتقِ الله وتجرأ على الشبهات أفضت به إلى المحرمات

ويحمله التساهل في أمرها على الجرأة على الحرام، كما قال (بعضهم: الصغيرة تجر الكبيرة، والكبيرة تجر الكفر، وكما ذكر «المعاصي بريد الكفر).

الوجه الثاني: أن من أكثر من مواقعة الشبهات أظلم عليه قلبه لفقدان نور العلم، ونور الورع فيقع في الحرام وهو لا يشعر به، وقد يأثم بذلك إذا تسبب منه إلى تقصير.

وقوله ﷺ: «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكلِّ ملك حمى» هذا مثل ضربه لمحارم الله ﷻ؛ وأصله أن العرب كانت تحمي مراعي لمواشيها وتخرج بالتوعد بالعقوبة لمن قربها، فالخائف من عقوبة السلطان يبعد بماشيته عن ذلك الحمى لأنه إن قرب منه فالغالب الوقوع فيه لأنه قد تنفرد الفاذة أي الشاة التي تمشي وحدها وتشذ الشاذة ولا ينضبط ؛ فالحذر أن يجعله بينه وبين ذلك الحمى مسافة يأمن فيها وقوع ذلك، وهكذا محارم الله ﷻ من القتل والربا، والسرقة وشرب الخمر، والقذف والغيبة والنميمة ونحو ذلك، لا ينبغي أن يحوم حولها مخافة الوقوع فيها.

ثم حض ﷺ وحث وأكد على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد، وبين أنه مع صغر حجمه سائر البدن تابع له صلاحًا

وفسادًا، فقال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب» الحديث.

والمضغة: هي القطعة من اللحم، وهي قدر ما يمضغه الماضغ، يعني بذلك صغر جرمها وعظيم قدرها، وسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الأعضاء لسرعة الخواطر فيه وترددها عليه، وفي هذا المعنى قيل:

ما سمي القلب إلَّا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب

وخص الله تعالى جنس الحيوان بهذا العضو وأودع فيه تنظيم المصالح المقصودة، فتجد البهائم على اختلاف أنواعها تدرك به مصالحها وتميز به مضارها من منافعها، ثم خص الله نوع الإنسان من سائر الحيوان بالعقل وأضافه إلى القلب، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقد جعل الله الجوارح مسخرة له ومطيعة فما استقر فيه ظهر عليها وعملت على معناه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فإذا فهمت هذا ظهر قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

وفيه دليل على أن صلاح الجوارح وفسادها بحسب ما في القلب، فإن كان القلب سليمًا صلحت حركات الجوارح، ونشأ عن ذلك فعل الطاعات واجتناب المحرمات، وإن كان فاسدًا فسدت حركات الجوارح، وانبعثت إلى المعاصي بحسب اتباع هوى القلب. فالقلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنود له مطيعون ما يأمرهم به من خير أو شر، فإن كان صالحًا كانت جنوده صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده فاسدة، فلا صلاح للقلب حتى يستقر فيه معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ومما يصلح القلب: تدبر القرآن، وخلو الجوف، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين، ورأس ذلك الأعظم: تحري أكل الحلال، واجتناب الشبهات، فإنها تورثه قسوة وظلمة، وتجره إلى الحرام.

والناس أمام المتشابه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هم الذين يتركون المتشابه ابتغاء مرضاة الله، وتحرزًا من الإثم، وذلك لاشتباهه عليهم وعدم وضوح الحكم فيه،

وهؤلاء بتركهم المتشابه طلبوا السلامة لدينهم، والبراءة لأعراضهم من الطعن. وهذا معنى قوله ﷺ: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».

القسم الثاني: من يقع في المتشابه من حيث هو متشابه عند الناس لا عنده، وذلك لا تضاح الحكم له في القضية فهذا لا حرج عليه في وقوعه، ولكن إذا تركه حفاظًا لعرضه من الناس فهذا أحسن وممدوح، فالمسلم مطالب بالحفاظ على سلامة عرضه.

القسم الثالث: من يقع في المتشابه مع أنها مشتبهة عليه اتباعًا لهواه، فهذا حكمه أنه وقع في الحرام، كما قال ﷺ: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام».

وترك الشبهات من الورع الذي رغب فيه رسول الله ﷺ وحث عليه.

وقد أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائدة، إذ منها: الحث على فعل الحلال، واجتناب الحرام، والإمساك عن الشبهات، والإحتياط للدين والعرض، وعدم تعاطي مايسيء الظن أو يوقع في محذور، والأخذ بالورع، وأنه لا ورع في ترك المباح، وسد الذرائع. وتعظيم القلب والسعي فيما يصلحه والبعد عما يفسده. وأن الأعمال القلبية أفضل من البدنية وأنها لا تصلح إلا به.

والخوف من الله يثمر الورع وقصر الأمل، وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد، والمعرفة تثمر المحبة، والخوف والرجاء والقناعة تثمر الرضا، والرضا يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التوكل، والورع يثمر الزهد.

قال سهل رَحِمَهُ اللَّهُ في أثر الحرام على النفس، (من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، ومن كانت طُعمته حلالًا أطاعته جوارحه، ووفقت للخيرات).

وقال أبو الدرداء: (إن من تمام التقوى أن يتقي العبد في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، حتى يكون حجابًا بينه وبين النار).

ولعظم أمر الحلال ومنزلته عند الله عَزَّوَجَلَّ قال يونس بن عبيد: لو أعلم موضع درهم من حلال من تجارة لا شتريت به دقيقًا، ثم عجنته ثم خبزته، ثم جففته، ثم دققته أداوي به المرضى.

قيل لابن سيرين: (ما أشد الورع؟ فقال: ما أيسره؛ إذا شككت في شيء فدعه).

وفي الحديث؛ الحث على اتقاء الشبهات، وسد الذرائع.

وفيه: أن الواقع في الشبهات واقع في الحرام.

وفيه: حسن تعليم النبي ﷺ وضرب الأمثال.

وفيه: أن المدار في الصلاح والفساد على القلب.

وفي الحديث: مشروعية اجتناب الشبهات، وأن الاحتياط في الأعمال من القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه، وأن الورع عمل صالح يؤجر العبد عليه.

وفيه: وجوب البعد عن الأسباب المفضية إلى المحرمات.

الحديث السابع

النصيحة: كلمة جامعة معناها إرادة الخير للمنصوح له وشفقة عليه، وهي من وجيز الأسماء ومختصر الكلام، والنَّصيحة فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن غيره، وهي لازمة على قدر الطاقة.

والنَّصيحة في اللغة: الإخلاص، يقال: نصحت العسل إذا صفيته.

روى مسلم عَنْ أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

هذا الحديث؛ أصل جامع من أصول الدين، ومن جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله ﷺ.

وهو أصل عظيم في وجوب النصيحة وبيان فضلها ومنزلتها في الدين وذكر مجالاتها.

قال العلماء عن هذا الحديث: (عليه مدار الإسلام).

وقال محمد بن أسلم: (هذا الحديث أحد أرباع الدين).

وفي الحديث ذكر تميم بن أوس الداري؛ أن النبي ﷺ قال:

«الدين النصيحة» أي؛ عماد الدين وقوامه؛ لأهميتها ومكانتها وفوائدها، وفضلها على الفرد والمجتمع. وتشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان وغيرها. والدين كله نصيحة، والنصيحة كلها من الدين، والمراد بالنصيحة: الخلوص من الغش والخديعة مع تمحض إرادة الخير. فسئل الصحابة ﷺ النبي ﷺ: لمن هذه النصيحة؟ ولمن تكون؟ (قلنا: لمن؟).

قال ﷺ «لله» أي؛ بالإخلاص لله -تعالى- والتعبد له محبة وتعظيمًا.

فالنصيحة لله سبحانه وتعالى: الإيمان به، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته. ونفي الشرك عنه ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه عن جميع النقائص، ومحبته، وإخلاص العبادة له، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه، والبغض فيه، وشكر نعمته. وكذلك غيرته لله، فيغار الله ﷻ إذا انتهكت محارمه. ومنه الذب عن دين الله والدفاع عنه، والدعوة إليه والقيام به.

قال الخطابي: (وحقيقة هذه الأوصاف راجعة إلى العبد في نصحه نفسه فإن الله سبحانه وتعالى غني عن نصح الناصح، وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فبالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله، لا

يشبهه شيء من كلام الناس، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، ثمَّ تعظيمه وتلاوته حق تلاوة، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة، والذب عنه لتأويل المحرفين، والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه، والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته).

قال ابن بطال: (إن النصيحة تسمى دينًا وإسلامًا، وإن الدين ليقع على العمل، كما يقع على القول، والنصيحة فرض كفاية إذا قام به واحد سقط عن الباقين، والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أن تُقبل نصيحته، ويطاع أمره، ويأمن على نفسه المكروه، وإن خشى أذى فهو في سعة).

ثم قال ﷺ: «ولكتابه» أي؛ للقرآن العظيم بتعظيمه، وصيانته بالسعي في نشره، وتعظيم أوامره، واجتناب نواهيه، والسعي في مدارسته والحث على ذلك وتكريم حملته.

والنصيحة لكتابه: الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيهه، لا يشبهه شيء من كلام الناس، وتعظيمه ومحبته وتلاوته، وتفهم علومه وأمثاله، والعمل بما فيه، والوقوف عند حدوده والإيمان بأنه كلام

الله، وبنشر هذا الكلام وتعلمه وتعليمه والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه، ومحبة أن يعمل الناس به.

ثم قال ﷺ: «ولرسوله» أي؛ الإيمان به وبما جاء به.

والنَّصيحة لرسوله ﷺ فتصديقه على الرسالة، ومحبته وطاعته والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره واجتناب نهيه، ونصرته حيًا وميتًا، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وإعظام حقه، وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته والعمل بها، وإجابة دعوته، ونشر سنته ونفي التهمة عنها، واستثار علومها والتفقه في معانيها، والدعاء إليها، والتلطف في تعليمها، وإعظامها وإجلالها، والتأدب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها؛ والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته، وأصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته، أو تعرض لأحد من أصحابه، ونحو ذلك.

ثم قال ﷺ: «ولأئمة المسلمين» وهم أئمة الدين، وأئمة السلطة، فالعلماء يُتلقى منهم العلم ويكرمون وينزلون منزلهم اللائقة بهم، فهم ورثة الأنبياء، والدفاع عنهم والتجاوز عن زللهم، وعدم تتبع عوراتهم، ومعرفة قدر العلماء والرجوع إليهم في معرفة أمور الدين،

أما ولاة الأمر فطاعتهم فيما ليس بمعصية، وعدم الخروج عليهم، وتألف الناس لطاعتهم ومناصحتهم ومعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من أمور وحقوق المسلمين.

وطاعتهم وتذكيرهم برفق، وترك الخروج عليهم بالسيف، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم، والصلاة خلفهم، والجهاد معهم، والدعاء لهم بالصلاح.

وأئمة المسلمين صنفان من الناس: الأول: العلماء الربانيون الذين ورثوا النبي ﷺ علمًا وعبادة وأخلاقًا ودعوة.

والصنف الثاني: الأمراء المنفذون شريعة الله. فالعلماء مبينون، والأمراء منفذون لشريعة الله.

ثم قال ﷺ: «وعامتهم» أي؛ عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر، وذلك بأن تحب لهم ما تحب لنفسك، وأن تكره لهم ما تكرهه لنفسك من المكروه وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدين والدنيا وإعانتهم بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وتنشيط هممهم إلى الطاعات، ودلالتهم على فعل الخيرات.

وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك بسخاء النفس، وسلامة الصدر، والنصح للأمة) ومن أعظم أنواع النصح أن ينصح لمن استشاره في أمره، كما قال ﷺ: «**إذا استنصح أحدكم أخاه، فلينصح له**» [رواه البخاري].

قال عبد العزيز بن أبي رواد: (كان من كان قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئًا يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرقُ بصاحبه، فيستغضب أخاه ويهتك ستره).

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ عن النصيحة: (من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه).

والنصيحة تُصلح المجتمع، وتجلب له الألفة، وتبعد عنه الغيبة، وهي من الأعمال الدالة على صفاء السريرة.

والله ﷻ أمر بالنصح حتى مع من علا وطغى، قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]. وأمر تعالى رسوله ﷺ أن يعظ المنافقين فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

ومن نصح وجب عليه أن يبذل غاية النصح للمنصوح، وأن يعدل في قوله ولفظه، والحياء لا يمنع من النصحية، وتكون بأحسن الألفاظ وأجمعها، قال جل شأنه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وتكون بالقول اللين، قال ﷻ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وللنصيحة آداب منها: أن تكون بالطيب من القول، لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] فيختار الناصح أسهل العبارات وأطيبها، وأن يريد بها وجه الله والدار الآخرة وليست لحظ في النفس والتشفي، وأن تكون بالسر ولا تكون علانية، وأن يلجأ الناصح إلى التلميح والإشارة وربما تُغني عن التصريح.

ومن آداب النصيحة أيضًا، أن لا ينتظر قبول نصيحته، بل عليه أداء الواجب دون عتاب ولا مؤاخذة.

ومن قال بالنصيحة وتجرد لله وبذل جهده فيها بالصدق مع الله فحقه الإكرام والدعاء والثناء، قال الحسن: (ما زال لله نصحاء ينصحون لله في عباده، وينصحون لعباد الله في حق الله، ويعملون لله في الأرض بالنصحية، أولئك خلفاء الله في الأرض).

وعلى المنصوح قبول النصيحة، وشكر الناصح والدعاء له.

ونُصح عباد الله إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم هذا هو عمل الرسل عليهم السلام، قال تعالى مخبراً عن نبيه هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ينصح قومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

وقال تعالى: مخبراً عن نبيه صالح وهو يخاطب قومه بعد أن أهلكهم الله ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ومن أخص صفات نبينا محمد ﷺ أنه مذكر ناصح، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] وفي الحديث عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كان النبي ﷺ يخطبنا فيذكرنا بأيام الله، والنصحية من عبادات الصالحين، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]).

ومن خصال الإيمان الواجبة حب الخير للمسلمين، والخوف عليهم من السيئات والعقوبات، قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» [رواه البخاري].

قال الذهبي: (من لم ينصح لله وللائمة وللعامة كان ناقص الدين).

قال النووي: (والنصيحة فرض كفاية، إذا قام بها من يكفي سقط عن غيره، وهي لازمة على قدر الطاقة).

قال شيخ الإسلام: (فإن أصل الدين هو حسن النية، وإخلاص القصد، ولهذا قال ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» أي هذه الخصال الثلاث لا يحقد عليها قلب مسلم، بل يحبها ويرضاها.

والنصيحة فرض كفاية، إذا قام بها من يكفي سقط عن غيره، وهي لازمة على قدر الطاقة.

ومن فوائد الحديث: أهمية النصيحة بشروطها وآدابها.

وفيه: إنزال الناس منازلهم ونصيحتهم كلٌّ على قدره ومكانته.

وفيه: أن المجتمع المسلم مجتمع متحاب متواد متناصح.

الحديث الثامن

روى البخاري ومسلم: عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى».

هذا حديث عظيم، وقاعدة من قواعد الدين، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٥].

أورد المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الحديث؛ وفيه إجراء أحكام الناس على الظاهر.

قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل» أي؛ أمرني الله عز وجل أن أقاتل من المقاتلة. وهناك فرق بين القتال والمقاتلة، لم يقل ﷺ أمرت أن أقتل الناس، بل قال «أقاتل» والمقصود من المقاتلة: الأذى والإذلال. والمقصود من القتل: الإبادة.

فالمقاتلة: أن يسعى في جهاد الأعداء حتى تكون كلمة الله هي العليا، والقتل: أن يقتل شخصًا بعينه. ويستثنى من عموم مقاتلة الناس حتى الإتيان بما ذكر في الحديث: أهل الكتاب إذا دفعوا الجزية.

«الناس» هم الكفار عبده الأوثان ومشركوا العرب، لا أهل الكتاب لسقط قتالهم بدفع الجزية. والكافر المشرك يطلب منه واحد من اثنين: الإسلام أو القتال، أما أهل الكتاب فيطلب منهم واحد من ثلاثة على الترتيب: الإسلام، أو الجزية، أو القتال. وقال بعض العلماء: الأرجح معاملة المشرك كمعاملة الكتابي.

«حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» وذلك من أجل إخراجهم من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد. والتوحيد الذي يُقاتل الناس عليه هو الإقرار وإفراد الله بالعبادة دون ما سواه، أما توحيد الربوبية فقد كان العرب يقرون به، وهو أن الله هو الخالق الرازق، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

«حتى يقولوا: لا إله إلا الله» أي: لا معبود حق إلا الله ﷻ، أي يقرونها ويعترفوا بها، والمراد بذلك الشهادة باللسان، وأما ما في القلب فلا يعلمه إلا الله سبحانه.

قولـه: «ويقيمـوا الصـلاة» المفروضـة علـى الوجـه المـأمور بـه. والصلاة الركن الثاني مـن أركـان الإسـلام، وفيـه دليـل علـى أن تـارك الصـلاة يكفـر، قـال ﷺ: «**بـين الرجـل وبـين الكفـر والشـرك تـرك الصلاة**» [رواه مسلم].

«ويؤتوا الزكاة» في أموالهم إلى مستحقيها. وهي حق في الأموال تعطى لأصنافها الثمانية الذين ذكرهم الله في كتابه.

والمقاتلة على منع الزكاة تكون لمن امتنع منها وقاتل عليه، أما إذا لم يقاتل فإنها تؤخذ منه قهرًا.

«فإذا فعلوا ذلك» أي التزموا وقاموا بذلك وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة.

ولم يذكر بقية أركان الإسلام إما لأنها لم تكن قد فرضت وقتئذ، أو اكتفاء بما ذكر تنبيهًا بالأعلى على الأدنى. وفيه بيان مكانة الصلاة والزكاة، فإن الصلاة حق البدن، والزكاة حق المال.

«فإذا فعلوا ذلك عصموا» أي؛ إذا التزموا وقاموا بذلك. منعوا وحفظوا وحقنوا.

«مني دمـاءهم وأمـوالهم» أي؛ لا تهـدر دمـاؤهم، ولا تسـتباح أموالهم إلا بسبب من الأسباب؛ كفعل الواجبات وترك المنهيات

فإنها واجبة. أي فلا يحل أن أقاتلهم وأستبيح دماءهم ولا أن أغنم أموالهم، لأنهم دخلوا في الإسلام.«إلا بحق الإسلام» هذا استثناء عام، مثل زنا الثيب، والقصاص.والمراد بحق الإسلام شرائعه.

«فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله».

قال الخطابي وغيره: «المراد بهذا أهل الأوثان ومشركوا العرب، ومن لا يؤمن دون أهل الكتاب، ومن يقر بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقوله: لا إله إلا الله إذا كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده».

قوله ﷺ: «وحسابهم على الله» أي فما يسرونه ويخفونه: يعني أن الشهادتين مع إقام الصلاة وإيتاء الزكاة تعصم دم صاحبها وماله، إلا أن يأتي ما يبيح دمه. وأما في الآخرة فحسابه على الله ﷻ، فإن كان صادقًا أدخله الله الجنة، وإن كان كاذبًا فهو من جملة المنافقين. قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١: ٢٦].

وفي قوله ﷺ: «وحسابهم على الله ـ تعالى ـ» أي؛ وحساب بواطنهم وصدق قلوبهم على الله ـ تعالى ـ لأنه المطلع على السرائر، أما نحن

فنعاملهم معاملة المسلمين في إجراء أحكام الإسلام في الدنيا. والبشر لا يكلفون إلا الظاهر، والنبي ﷺ إنما يحكم على الظاهر، ولا يحكم على الباطن فإن كان صادقًا ظاهرًا وباطنًا نفعه ذلك عند الله، وإن كان الباطن خلاف الظاهر، وكان أظهر ذلك نفاقًا فهو من أهل الدرك الأسفل من النار.

وقد ذكر النبي ﷺ عن الخوارج وأنهم أهل صلاة وصيام وعبادة حتى أن الصحابي يحقر صلاته عند صلاتهم من طولها وخشوعها، لكن النبي ﷺ قال عنهم: «**لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**» [رواه البخاري]. أي لا يدخل الإيمان قلوبهم مع أنهم صالحوا الظواهر، لكن ذلك ما نفعهم. وصلاح القلوب هو الأساس وهو مقدم على صلاح الجوارح.

وعكس أولئك رجل رفع إلى النبي ﷺ قد شرب الخمر فجلده، ثم رفع إليه مرة أخرى فجلده، فسبه رجل من الصحابة وقال: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى الرسول ﷺ. فقال له الرسول ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**» [رواه البخاري].

قال البغوي: «وفي الحديث دليل على أن أمور الناس في معاملة بعضهم بعضًا إنما تجري على الظاهر من أحوالهم دون باطنها، وأن

من أظهر شعار الدين أجري عليه حكمه، ولم يكشف عن باطن أمره، ولو وجد مختون فيما بين قتلى غلف، عزل عنهم في المدفن، ولو وجد لقيط في بلد المسلمين حكم بإسلامه».

وقد جرت أحداث عظيمة بعد وفاة النبي ﷺ، فكان الحزم والعزم من الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه في الوقوف في وجه هذه الردة العظيمة التي قام بها من كفر من العرب، واستعد رضي الله عنه لمقاتلتهم ومنجازتهم.

فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وكيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ.

«أمرت أن أقاتل الناس» أي؛ أقاتل الكفرة، لا أهل الذمة ومن الحق بهم.

«حتى يقولوا لا إله إلا الله» أي؛ يشهدوا بذلك.

«فمن قالها فقد مني ماله ونفسه إلا بحقه عصم» وفيه بيان فضل كلمة الإخلاص، وأن من قالها وهو مؤمن بها عصم ماله ودمه ونفسه.

«وحسابه على الله» أي؛ فإن كان صادقًا نفعه في الآخرة وإلا فلا.

وتتمه الحديث: «ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة».

فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا - يعني عقال بعير - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على ذلك).

قال ابن حجر: (والمراد بالفرق: من أقر بالصلاة وأنكر الزكاة جاحدًا أو مانعًا مع الاعتراف، وإنما قاتلهم الصديق ولم يعذرهم بالجهل ونصبوا القتال، فجهز من دعاهم إلى الرجوع، فلما أصروا قاتلهم).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فمن صلى عصم نفسه، ومن زكى عصم ماله، فإن لم يصل قوتل على ترك الصلاة، ومن لم يزك أخذت الزكاة من ماله قهرًا، وإن نصب الحرب لذلك قوتل).

فإن الشريعة الشريفة إنما تجرى على الظواهر ولا تنقر عما في القلب، فمن أتى بالشهادتين والتزم أحكام الإسلام جرت عليه أحكامهم سواء كان في الباطن كذلك أم لا؟ أما الكتابي وما ألحق به من المجوس فيقاتل حتى يسلم أو يؤدي الجزية.

وفي الحديث: أن من امتنع من الزكاة وجب على الإمام قتاله حتى يؤدي الزكاة.

وفيه: أن الجهاد لا يتوقف مع الأعداء حتى يعلنوا شعائر الإسلام وأركانه الأساسية أو الخضوع إلى شرعه، والزكاة أحد هذه الشعائر الأساسية وركن من أركان الإسلام.

الحديث التاسع

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَخْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ».

راوي هذا الحديث هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، وكني بأبي هريرة لأنه كان معه هرة قد ألفها وألفته، فلمصاحبتها إياه كني بها. وهو من رواة الحديث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا الحديث من قواعد الإسلام المهمة، ومما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

وهذا الحديث له سبب، وهو ما رواه مسلم أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس قد فرض الله**

عليكم الحج فحجوا». فقال رجل (هو الأقرع بن حابس): أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول الله ﷺ: **«لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»**. فالذي يتعين على المسلم أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله ﷺ، ثم يجتهد في فهم ذلك والوقوف على معانيه والعمل به، وهكذا كان حال أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة.

وروى الإمام أحمد عن معاوية رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«أنه نهى عن الأغلوطات»**.

قال الأوزاعي: (هي شداد المسائل).

وقال عيسى بن يونس: (هي ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف؟).

وقال الأوزاعي: (إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقلّ الناس علمًا).

وقال مالك: (المراء والجدال يذهب بنور العلم من قلب الرجل).

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «أن

رسول الله ﷺ سُئل عن الراسخين في العلم فقال: «**من برْت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم**».

وفي هذا الحديث: وجوب اجتناب المنهي المحرم كله، وأنه لا يُعلق ذلك على الاستطاعة، ويستثنى من هذا ما أبيح للضرورة أو للإكراه، لأن مناط التكليف الاستطاعة، والاستطاعة شرط في جميع الواجبات. وفيه: وجوب فعل المأمور وتعليق ذلك على الاستطاعة.

وفي الحديث: دليل على رحمة هذه الشريعة بالعباد، وشفقتها عليهم، فإنها لم توجب عليهم أمرًا شاقًا ولا أمرًا خارجًا عن استطاعة العبد، على أن ما جاءت به الشريعة من الأوامر والنواهي يحقق مصالح العباد ويرضي رب العباد ويسبب الحصول على مصالح الدنيا والآخرة.

والمأمور يأتي به المكلف على قدر طاقته، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فإذا كان لا يستطيع الإتيان بالفعل على الهيئة الكاملة، أتى بها على ما دونها، فإذا لم يستطع أن يصلي قائمًا صلى جالسًا، وإذا لم يستطيع الاتيان بالواجب كاملًا أتى بما يقدر عليه منه، فإذا لم

يكن عنده من الماء ما يكفي للوضوء توضأ عنده وتيمم للباقي، وإذا لم يستطع أن يصلي واقفًا صلى جالسًا.

قوله ﷺ: «وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم» هذا من قواعد الإسلام المهمة، ومما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم؛ ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة إذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن غسل بعض أعضاء الوضوء غسل الممكن، وكذلك إذا وجبت فطرة جماعة ممن يلزمه نفقتهم، وكذلك أيضًا في إزالة المنكرات إذا لم يمكنه إزالة جمعيها فعل الممكن، وأشباه ذلك مما لا ينحصر وهو مشهور في كتب الفقه. والمراد بقوله ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ما قدرتم عليه دون مشقة.

وهذا الحديث كقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وأما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فقيل: منسوخة بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، قال بعضهم: والصحيح أنها ليست منسوخة بها، بل هي مفسرة لها، ومبينة للمراد منها، قالوا: وحق تقاته هو امتثال أمره واجتناب نواهيه، والله سبحانه لم يأمر إلا بالمستطاع، فإن الله تعالى قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨].

والأمر قسمان:

الأول: أمر إيجاب وإلزام: وهو ما يثاب فاعله امتثالًا، ويعاقب تاركه، كإقام الصلاة وباقي أركان الدين، وطاعة الوالدين، والعدل بالحكم، وإقامة الحدود، والنفقة على من تجب عليهم النفقة، وغيرها من الواجبات التي أمرنا بها.

الثاني: أمر استحباب: وهو ما يثاب فاعله امتثالًا، ولا يعاقب تاركه، مثل السنن الرواتب، والسواك، والغسل للإحرام، وغيره من المستحبات.

والمسلم يلتزم الأول سواء كانت أمر ايجاب أو استحباب حتى ينال الدرجات العلا ويكسب الأجر والثواب.

ولا ينبغي للإنسان إذا سمع أمر الرسول ﷺ أن يقول: هل هو واجب أم مستحب؟ لقوله: «فأتوا منه ما استطعتم» بل يسارع إلى الخير ما استطاع إليه سبيلًا.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «وما نهيتكم عن شيء» أي منعتكم، والنهي: هو طلب الكف عن فعل الشيء «فاجتنبوه» أي؛ ابتعدوا عنه، فكونوا في جانب وهو في جانب. فهذا على إطلاقه، لكن إن وجد عذر يبيحه كأكل الميتة عند الضرورة ونحوه فهذا لا

يكون منهيًا عنه في هذا الحال. وأما في غير حال العذر فلا يكون ممتثلًا لمقتضى النهي حتى يترك كل ما نهى عنه ولا يخرج عنه بترك فعل واحد بخلاف الأمر.

والنهي قسمان:

الأول: نهي التحريم: وهو ما يثاب تاركه امتثالًا، ويعاقب فاعله، وهو ما جاء على سبيل الحتم والإلزام، مثل شرب الخمر والزنا وأكل الربا والتبرج والغش والغيبة والنميمة وغيرها من المنهيات.

الثاني: نهي الكراهة أو التنزيه: وهو ما يثاب تاركه امتثالًا، ولا يعاقب فاعله، وهو مالم يأت على سبيل الحتم والإلزام، مثل الكلام بعد العشاء، وأكل الثوم والبصل.

والمكروه يجوز للعبد أن يفعله، سواء دعت الضرورة إلى ذلك أم لا، ولكن الأليق والأكمل للمسلم التقي أن يجتنب المكروهات.

وقوله ﷺ: «إنما أهلك الذين من قبلكم» أي أوجب العقوبة ففي الدنيا والآخرة؛ يشمل اليهود والنصارى.

«كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» يعنى وأهلكهم اختلافهم وعصيانهم لهم، لأنه سبب لتمزق القلوب ووهن الدين وذكر ذلك بعد قوله: «**ذروني ما تركتكم**» أراد لا تكثروا السؤال فربما كثر

الجواب عليه فيضاهي ذلك قصة بني إسرائيل لما قيل لهم: (اذبحوا بقرة) فإنهم لو اقتصروا على ما يصدق عليه اللفظ وبادروا إلى ذبح أي بقرة كانت أجزأت عنهم، لكن لما أكثروا السؤال وشددو شُدد عليهم وذُموا على ذلك، فخاف النبي ﷺ مثل ذلك على أمته. وأما ما يحتاجه المسلم من المسائل الشرعية فلاحرج من السؤال عنها بل الواجب عليه معرفتها خاصة ما يتصل بعبادته لربه.

والفرق بين المنهيات والمأمورات: أن المنهيات قال ﷺ فيه: «فاجتنبوه» ولم يقل ما استطعتم، وكل إنسان يستطيعه، وأما المأمورات فإنها إيجاد قد يستطاع وقد لا يستطاع، ولهذا قال في الأمر: «فأتوا منه ما استطعتم».

وعن الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - أنه قال: (يؤخذ من الحديث أن النهي أشد من الأمر، لأنه لم يرخص في شيء منه، والأمر مقيد بالاستطاعة).

وقريب من هذا قول بعضهم: (أعمال البر يعملها البر والفاجر، وأما المعاصي لا يتركها إلا صديق).

في الحديث إشارة عظيمة إلى أن موقف المؤمن الصحيح تجاه الشرع، هو الاشتغال بامتثال الأوامر واجتناب النواهي والعناية

بالعمل، والإعراض عن كثرة المسائل والجدل، فالمتعين على المسلم أن يبحث عما جاء عن الله تعالى ورسوله ﷺ ثم يجتهد في فهم ذلك والوقوف على معانيه، ثم يشتغل لتصديقه إن كان من الأمور العلمية، وإن كان من الأمور العملية بذل وسعه في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب النواهي، وتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك، وهكذا كان أصحاب الرسول ﷺ والتابعين لهم بإحسان.

سأل رجل ابن عمر عن استلام الحجر، فقال: رأيت النبي ﷺ يستلمه ويقبله، فقال له الرجل: أرأيت إن غلبت عليه أرأيت إن زوحمت، فقال ابن عمر: اجعل أرأيت في اليمن» [رواه البخاري].

اللهم وفقنا للعمل بكتابك وسنة نبيك ﷺ، واجعلنا ممن أطاع الله ورسوله ﷺ.

ومن فوائد الحديث: وجوب الكف عما نهى عنه النبي ﷺ، وأن المنهي عنه يشمل القليل والكثير.

وفيه: أن الإنسان إذا لم يقدر على فعل الواجب كله فليفعل ما استطاع.

وفيه: التحذير من الاختلاف على الأنبياء، وأن الأمم السابقة هلكوا بكثرة المساءلة، وهلكوا بكثرة الاختلاف على أنبيائهم.

الحديث العاشر

من أعظم أنواع العبادة الدعاء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وثبت في السنة أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**» [رواه الترمذي].

وفي الدعاء الذل والخضوع والانكسار بين يدي الله ﷻ وتفويض الأمر إليه في السراء والضراء، والمسلم لا يستغني عن دعاء ربه واللجأ إليه واظهار ضعفه وعجزه. وللدعاء أسباب تحصل بها الإجابة منها إطابة المطعم والمشرب.

وفي هذا الحديث:

روى الإمام مسلم عن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا

رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟».

وهذا الحديث قاعدة من قواعد الإسلام وأصل من أصول الأحكام. وهو أصل فيما يُقبل ويرد من الأعمال، وفي إيثار الحلال على الحرام، فما أعم نفعه وأعظمه.

وفيه الحث على الأكل والشرب واللبس من الحلال والطيب، والبعد عن الحرام؛ لأنه سبب في عدم استجابة الدعاء، الذي هو من أعظم العبادات التي يتقرب بها إلى الله تبارك وتعالى.

قال أبو داود عن هذا الحديث: (وهو ربع العلم).

في الحديث قوله ﷺ: «إن الله تعالى طيب» كلمة طيب بمعنى طاهر منزه عن النقائص والعيوب كلها، لا يعتريه الخبث بأي حال من الأحوال لأن ضد الطيب الخبيث.

وهو ﷻ طيب في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، وفي أحكامه وفي أفعاله، وفي كل ما يصدر منه جل وعلا وتقدس، فنزه تعالى نفسه عن الصاحبة والولد، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨].

ونزه نفسه عن الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾

[النساء: ٤٠] كما نزه نفسه عن النوم، قال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] إلى غير ذلك من الآيات التي ينزه تعالى نفسه عما لا يليق بجلاله وعظمته.

فقول: «إن الله طيب» تنزيه الله ﷻ عن النقائص والعيوب كلها، لأن معنى الطيب هو الطاهر المقدس المنزه من العيوب والنقائص كلها، وقد قسم الله تعالى الكلام إلى طيب وخبيث، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

«لا يقبل» من الأعمال والأحوال «إلا طيبًا» من الأقوال والأعمال وغيرها وكل رديء فهو مردود عند الله ﷻ، وقوله: (طيبًا) هنا يشمل الطيب بعينه والطيب بكسبه.

والمراد: لا يثيب إلا على ما يعلمه طيبًا خالصًا من المفسدات كلها كالرياء والعجب، أوحلالًا.

وجاء في الحديث: «**من تصدق بعدل تمرة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله تعالى يأخذها بيمينه ويربيها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل**» [رواه البخاري] أي: لايكون مقبولًا عنده إلا أن يكون طيبًا، ولايقبل من الصدقة إلا الحلال، ولا يصعد إليه إلا الكلم الطيب، ولا يدخل الجنة إلا الطيب.

قوله ﷺ: «وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين». فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١].

والعمل الصالح يشترط فيه شرطان: **الأول**: أن يكون خالصًا لله ﷻ لا يراد به شيء من الدنيا ولا يقصد به الرياء. **الثاني**: أن يكون هذا العمل موافقًا للشريعة بحيث لا نبتدع عبادة لم يرد بها الشرع.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تشمل الذكور والإناث من المكلفين وليس خاصًا بالرجال، والمراد أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال والعمل الصالح، وفيه: أشارة إلى أن الرزق صادر من الله ﷻ.

قوله: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر» أي في وجوه الطاعات والمباحات، ومع ذلك فلا يستجاب له، فكيف بمن هو منهمك في لذات الدنيا أو من الغافلين.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: المظلوم والمسافر، ودعوة الوالد على ولده**».

ومتى طال السفر، كان أقرب إلى إجابة الدعاء، لأنه مظنة حصول انكسار النفس بطول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق. والإنكسار من أعظم أسباب إجابة الدعاء.

وذكر من صفات ذلك المسافر أنه «أشعث» أي جعد الرأس، أغبر لطول سفره في الطاعات كحج وجهاد وصلة رحم.

(أغبر) عليه أثر الغبار من شدة وطول السير.

«يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب»، أي يرفعهما بالدعاء لله مع مخالفته وعصيانه. ورفع اليدين من آداب الدعاء التي يُرجى بسببها إجابته.

وقوله: «يارب يارب» نداء بوصف الربوبية لأن ذلك وسيلة لإجابة الدعاء.

وقد ورد في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟

وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

ثم قال ﷺ: «ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام» إما حرام بذاته وإما حرام بكسبه.

«وغذي بالحرام»، قال النووي: (أي شبع به).

«فأنى يستجاب لذلك» معناه: كيف يستجاب له؟ فهو استفهام وقع على وجه التعجب والاستبعاد. أي: كيف يستجاب له وهو مُصِر على ذلك.

وقد ضرب النبي ﷺ في هذا الحديث مثلًا عظيمًا لرجل قد أتى بأسباب إجابة الدعاء ومنها:

أولًا: «أنه يطيل السفر»، والسفر بمجرده يقتضي إجابة الدعاء، قال ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن** -وذكر منها-: **دعوة المسافر**» [رواه أبو داود].

وثانيًا: أنه «أشعث أغبر» وهذا يدل على تذلُّلِه وافتقاره، بحصول التبذل في هيئته وملبسه، ومن كانت هذه حالة كان أدعى للإجابة، إذ إن فيه معنى الخضوع لله تعالى، والحاجة إليه.

وثالثًا: أنه أيضًا «يمد يديه إلى السماء» والله سبحانه وتعالى كريم لا

يرد من سأله، روى الإمام أحمد وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إن الله حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خاليتين**».

ورابعًا: ما ورد من إلحاحه في الدعاء بقوله: «يا رب: يا رب» وهذا من أعظم أسباب الإجابة، ولذلك كان النبي ﷺ يكرر ما يدعو به ثلاثًا.

فهذه أربعة أسباب لإجابة الدعاء، وقد أتى بها كلها، ولكنه أتى بمانع واحد فهدم هذه الأسباب الأربعة كما قال ﷺ: «فأنى يستجاب له» وهذا الاستفهام واقع على سبيل التعجب والاستبعاد لمن كانت هذه حاله.

ويؤخذ من هذا أن التوسع في الحرام والتغذي به من جملة موانع الإجابة، وكذلك ترك الواجبات كما ورد في الحديث أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنع استجابة دعاء الأخيار، وفعل الطاعات يكون موجبًا لاستجابة الدعاء.

قال وهب بن منبه: (من سره أن يستجيب الله دعوته، فليُطب طعمته). وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: (يكفي مع البر من الدعاء، مثل ما يكفي الطعام من الملح).

قال بعض السلف: خمس خصال بها قام العمل: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل

الحلال؛ فإن فقدت واحدة لم يرتفع العمل. وقال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «**أطب مطعمك تكون مستجاب الدعوة**».

والصدقة بالمال الحرام على وجهين:

الأول: أن يتصدق الخائن والغاصب عن نفسه فهذا لا يقبل منه، بل يأثم بتصرفه في مال غيره بغير إذنه، ولا يحصل للمالك بذلك أجر لعدم نيته وقصده.

الثاني: أن يتصدق به عن صاحبه إذا عجز من رده إليه أو إلى ورثته فهذا جائز عند أكثر العلماء، ويشمل اللقطة والمغصوب والأجر، ونحوها، فمتى ما جهل أربابها أو عجز عن تسليمها تصدق بها عنهم وبرئت ذمته بذلك إن شاء الله.

والدعاء روضة القلب، وأنس الروح، فهو صلة بين العبد وربه، يستجلب به الرحمة، ويدفع النقمة، ويستعدي به على من ظلمه، ومن عظيم شأنه وعلو مكانته، أن جعله الرسول ﷺ أصل العبادة ولبها. وإذا كان للدعاء هذه المكانة العظيمة، فإنه ينبغي على العبد أن يأتي بالأسباب التي تجعله عند الله مقبولًا، وهذا ما أشار إليه هذا الحديث في قوله: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا».

وفي الحديث بيان أن أكل الحرام من ربا وسرقة وغصب وغير ذلك من أسباب عدم قبول الدعاء.

ويشرع للعبد إذا دعا أن يكون على طهارة، وأن يستقبل القبلة، مع رفع اليدين، ومع الحمد لله والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، والأخذ بالأدعية الجامعة الواردة عن النبي ﷺ، وأن يتحرى أوقات الإجابة.

ومن أسباب قبول الدعاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم الاستعجال في طلب الإجابة.

ومن مواطن إجابة الدعاء سجود الصلاة، والثلث الأخير من الليل، وأثناء السفر، وآخر ساعة من يوم الجمعة، وعشية عرفة، وليلة القدر، وأدبار الصلوات، وبين الأذان والإقامة وغيرها من الأوقات الفاضلة. ومن أسباب قبول الدعاء السفر فإنه مظنة الإجابة فإن المسافر ضعيف منقطع أشعث أغبر. ومن أسباب قبول الدعاء رفع اليدين والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، والإلحاح على الله فيه. فأكثروا من الدعاء لانفسكم ولوالديكم وذرياتكم والمسلمين.

وفي الحديث: مشروعية رفع اليدين في الدعاء، وأن التوسع في الحرام والتغذي به من جملة موانع الإجابة، وفيه أن التبذل والعمل الصالح وأكل الحلال من أسباب الإجابة، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وفي الحديث: أن الأكل - وفي معناه الشرب - أهم وجوه الانتفاع، وبعده اللباس، وبعده المركب والمسكن، فالأكل والشرب أولاها بالحلال، ثم ما بعده، وما كان من المكاسب مشتبهًا، فينفق في المركب والمسكن.

الحديث الحادي عشر

في الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِبْطِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَيْحَانَتِهِ رضي الله عنهما، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ».

راوي الحديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (سبط رسول الله ﷺ)، أي ابن ابنته فاطمة رضي الله عنهما أجمعين. وقد وصفه النبي ﷺ بأنه سيد فقال: «**إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين**» [رواه البخاري] وكان الأمر كما ذكر ﷺ، فإنه بعد أن استشهد على بن أبي طالب رضي الله عنه وبويع بالخلافة للحسن تنازل عنها لمعاوية رضي الله عنه، فأصلح الله بهذا بين أصحاب معاوية وأصحاب على رضي الله عنهم.

وأما قوله: «وريحانته» فإن الريحانة هي تلك الزهرة الطيبة الرائحة، وقد وصف النبي ﷺ الحسن والحسين بأنهما ريحانتاه.

وقد كان رسولنا ﷺ دائم النصح لأمته، يوجههم إلى مافيه خير لمعاشهم ومعادهم، فأمرهم بسلوك درب الصالحين، ووضح لهم

معالم هذا الطريق، والوسائل التي تؤدي إليه، ومن جملة النصائح هذا الحديث العظيم.

وهذا الحديث قاعدة عظمية من قواعد الدين، وأصل في ترك جميع المشتبهات والمشكلات من الأعمال والأقوال، والمطاعم والمشارب وغير ذلك. ومعنى الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب وقلق واضطراب، بل تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب. وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك.

وفي هذا الحديث قول النبي ﷺ:

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» أي: واعدل واترك ما تشك فيه وفي كونه حسناً أوقبيحًا، أو حلالًا أو حرامًا، وما يلحقك فيه ريب وشك وقلق، واعدل إلى ما لاتشك فيه وتسكن إليه نفسك ويطمئن به قلبك كقوله في الحديث الآخر: «**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**» زاد الترمذي في هذا الحديث: «**فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**».

قال الطيبي: (جاء هذا القول ممهدًا لما تقدم من الكلام، ومعناه: إذا وجدت نفسك ترتاب في الشيء فاتركه، فإن نفس المؤمن تطمئن

إلى الصدق وترتاب من الكذب، فارتيابك من الشيء منبيء عن كونه مظنة للباطل، فاحذره، وطمأنينتك للشيء مشعر بحقيقته، فتمسك به).

وقال عمر ﵁: (دعوا الربا والريبة، يعني ما ارتبتم فيه وإن لم تحققوا أنه ربا).

وقال حسان بن أبي سنان: (ما شيء أهون من الورع إذا رابك شيء فدعه).

قال ابن رجب: (ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها؛ فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب، والريب بمعنى القلق والاضطراب، بل تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب، وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب والموجب للشك).

وفي هذا توجيه عظيم بأن يدع الإنسان ويترك ما يريبه. أي؛ ما يتوهم منه، ولم يتحقق فيه. لأن الصدق طمأنينة القلب واستقراره وعدم اضطرابه، وسكون النفس إليه وثقة الناس به.

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ: (وهذا الحديث من جوامع الكلم، وما أجوده، وأنفعه للعبد إذا سار عليه، فالعبد يرد

عليه شكوك في أشياء كثيرة، فنقول: دع الشك إلى ما لا شك فيه، حتى تستريح وتسلم، فكل شيء يلحقك به شك وقلق وريب: اتركه إلى أمر لا يلحقك به ريب، وهذا ما لم يصل إلى حد الوسواس، فإن وصل إلى حد الوسواس فلا تلتف له).

وكان المسور بن مخرمة قد احتكر طعامًا كثيرًا فرأى سحابًا في الخريف فكرهه. فقال: ألا أراني كرهت ما ينفع المسلمين فآلى أن لا يربح فيه شيئًا، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال له عمر: جزاك الله خيرًا.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج، وكان أبوبكر يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشيء فأكل منه أبوبكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبوبكر: وما هو؟ فقال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أُحسن الكهانة، إلا أنى خدعته، فلقيني فاعطاني لذلك هذا الذي أكلت منه، فأدخل أبوبكر يده، فقاء كل شيء في بطنه» [رواه البخاري].

ثم قال ﷺ: «**فإن الصدق طمأنينة**» أي؛ يطمئن إليه القلب ويسكن ويرتاح.

«**وأن الكذب ريبة**» أي؛ يقلق القلب ويضطرب.

ومن علامات الساعة ظهور المحرمات كالزنا والربا وتسميتها باسماء غير اسمائها للتلبيس على الناس وإضلالهم عن الطريق القويم. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يقول: «**ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام**» [رواه البخاري].

وكان أهل الإيمان والتقوى يبتعدون ويتحرزون عن الشبهات والحرام، لعلمهم حرمة الأمر وعظم جزاءه في الدنيا والآخرة، ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال لكعب: «**يا كعب بن عجرة: إنه لا يربوا لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به**» [رواه أحمد] وفي لفظ «**يا كعب بن عجرة لا يدخل الجنة من نبت لحمه من سحت، النار أولى به**» [رواه أحمد] وفي الصحيحين يقول عليه الصلاة والسلام: «**لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب، إلا أخذها الله بيمينه فُيربيها كما يُربي أحد فلوه، حتى تكون مثل الجبل أو أعظم**».

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] **وقال:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فإنى يستجاب لذلك»** أي: كيف يستجاب لذلك.

وأكل الحلال ينور القلب ويصلحه فتزكو بذلك الجوارح، وتدرأ المفاسد، وتكثر المصالح، وأكل الحرام والمشتبه يصدي القلب ويظلمه، ويقسيه: وهو من موانع قبول الدعاء. فالطيب عنوان سعادة العبد، والخبيث عنوان شقاوته. وحيث أن المشتبهات تورث قلقًا في النفس فإن في تركها والبعد عنها سبب لطمأنينة النفس وراحتها.

والعيش في الأرض لابد له من قوام من مال، ولكي تعمر الأرض على مراد الله كان ولابد للمسلم أن يعمرها بالحلال، والطيب من الرزق. ولما كان الرزق متداولًا بين الناس أخذاً وعطاء كان الحساب عليه يوم القيامة، كما قال ﷺ: «**لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم**» [رواه الترمذي].

ولن يأخذ المرء إلا ما كتب الله قال ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي، أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته**» [صحيح الجامع].

والغنى: هو القناعة بما رزق الله ﷻ، وبذل الأسباب المباحة والمشروعة في البحث عن الرزق، وتوقي الحرام والبعد عن الشبه، وإن لم تشبع النفس بما قسم الله لها فلن يكفيها ملء الأرض ذهبًا. فانه كما ورد في الحديث: «**الرزق أشد طلبًا للعبد من أجله**».

وقد نصح سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه إذ يقول له: (يا بني؛ إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لاينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه.

ومما يعين على الرزق الحلال كثرة الاستغفار والتوبة، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ومنها: التوكل على الله ﷻ مع بذل الأسباب المباحة، قال ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**» [رواه أحمد].

ومن أسباب الرزق، المتابعة بين الحج والعمرة، قال ﷺ: «**تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد**» وكذلك صلة الرحم، قال ﷺ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه**» [رواه البخاري].

وكذلك الإنفاق في سبيل الله قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] إلى غير ذلك من الأسباب مع البعد عن الحرام من رشوة وغش وغيرها.

وفي هذا الحديث: الأمر بترك المشتبهات، ويشهد له حديث: «**فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه**» [رواه البخاري ومسلم].

وفيه: تربية الصغار على الآداب الشرعية، لينشؤوا على الأخلاق الكريمة.

الحديث الثاني عشر

جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الآداب الإسلامية والأخلاق، وتأديب النفس وتهذيبها، وصيانتها عن الرذائل والنقائص وترك ما لاجدوى فيه ولا نفع.

قال ابن رجب: (هذا الحديث أصل من أصول الأدب) ويعم الأقوال ويعم الأفعال.

وهو من جوامع كلم الرسول ﷺ، ولوامع حكمه. من الكلام الجامع للمعاني الكثيرة الجليلة في الألفاظ القليلة. فقد أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث إلى الطريق الذي يبلغ به العبد كمال دينه وحسن إسلامه، وصلاح عمله، فبينَّ أن مما يزيد إسلام المرء حسنًا، أن يدع ما لا يعنيه ولا يفيده في أمر دنياه وآخرته.

وقد حكى الإمام أبو عمرو بن الصلاح عن أبي محمد بن أبي زيد إمام المالكية في زمانه أنه قال: (جماع آداب الخير وأزمته تتفرع

من أربعة أحاديث: قول النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**». وقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وقوله ﷺ للذي اختصر له في الوصية: «**لا تغضب**»).

قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء» أي؛ من كمال إسلامه، واستقامته وانقياده لشرع الله الذي شرع لعباده وتعبدهم به بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده وآدابه.

«تركه ما لا يعنيه» أي؛ لا يهمه ولا تتعلق به عنايته.

قال ابن رجب: (تركه ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصاره على ما يعينه من الأقوال والأفعال، ومعنى يعنيه أنه يتعلق عنايته به، ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشيء).

وقال القاري: (أي؛ ما لا يهمه ولا يليق به قولًا وفعلًا ونظرًا وفكرًا).

ومن محاسن الإسلام أن جعل منهجًا للمسلم يسير عليه في حياته العامة والخاصة. ولذلك ورد في هذا الحديث أن من حسن الإسلام ترك السؤال عما لا سبيل إلى معرفته، كحقائق الغيب، وتفصيل الحكم في الخلق والأمر، وكذا السؤال والبحث عن مسائل مقدرة ومفترضة لم تقع، أو يندر أن تقع، أولا تكاد تقع، أولا يتصور وقوعها.

وفي الحديث من الفوائد أن الإسلام على مراتب، وأنه قد يحسن إسلام المرء وقد لا يحسن مع دخول الجميع في مسمى الإسلام.

ويراد بالحديث أيضًا حفظ اللسان من لغو الكلام، فإن لغو الكلام مما لا يعني الإنسان وحسن الإسلام يترتب عليه ثمرات عظيمة، جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله** ﷻ» [رواه البخاري ومسلم].

وقد جاءت نصوص تدل على أن من حسن إسلامه وتاب إلى الله فإن الله يبدل سيئاته حسنات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨: ٧٠].

قيل للقمان: ما بلغ بك ما نرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك مال لا يعنيني.

قال النووي: (واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلامًا فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام ومكروه وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء).

وقوله ﷺ: «**المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

قال الغزالي: (حدُّ ما لا يعنيك في الكلام: أن تتكلم بما لو سكت عنه لم تأثم، ولم تتضرر حالًا ولا مآلًا).

وعلى المسلم أن يشتغل بما فيه صلاحه معاشًا ومعادًا، ويعرض عمّا عدا ذلك بما لا يحتاجه ولا ينتفع به، ولا يؤذي المسلمين بكثرة السؤال عن أمورهم الخاصة ولا يتطفل عليهم فإن ذلك من كمال الاستقامة.

ولا يدخل في هذا الباب أمر المرء بالمعروف ونهيه عن المنكر، وتطوعه للخير فإن هذا وما إليها من معالي الأمور، وقواعد الإصلاح، ومهمات الدين، كيف لا، وقد نفى الله الخير عن كثير من نجوى الناس وكلامهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس.

قال عطاء بن رباح: (إن من كان قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد منها، أتنكرون أن عليكم حافظين، كرامًا

كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته؟!).

وقال الفضيل: (وما حجٌّ ولا رباطٌ أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يُهمك لسانك، أصبحت في هم شديد).

إن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جِرمه، عظيم طاعته وجُرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان.

فبهذا المخلوق الصغير يُعبر الإنسان عن بُغيته ويفصح عن مشاعره، به يطلب حاجته، ويدافع عن نفسه، ويعبر عن مكنون فؤاده، يحادث جليسه ويآنس رفيقه، به السقطة والدنو، وبه تظهر الهمة والعلو.

ولكي يسلم المتحدث من الزلل في حديثه والنقص في مقاله فإن عليه شروطًا أربعة:

الأول: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر.

الثاني: أن يأتي به في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته.

الثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته.

الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به.

إذا توافرت هذه الشروط فعليك بالحديث، وإلا فإن الصمت يجمع للرجل خصلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه.

قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى-: (من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه).

ودخلوا على بعض الصحابة في مرضه ووجهه يتهلل، فسألوه عن سبب تهلل وجهه؟ فقال: (ما من عمل أوثق عندي من خصلتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي سليمًا للمسلمين).

وقال سهل بن عبد الله التستري: (من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أول من يدخل عليكم رجل من أهل الجنة، فدخل عبد الله بن سلام، فقام إليه ناس فأخبروه وقالوا له: أخبرنا بأوثق عملك في نفسك؟ قال: إن عملي لضعيف، وأوثق ما أرجو به سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني**».

وروى ابن حبان عن أبي ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**كان في صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام: وعلى العاقل ما لم يكن**

مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل أن لا يكون ساعيًا إلا لثلاث: تزوّد لمعاد، أو حرفة لمعاش، أو لذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلًا على شأنه، حافظًا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه».

وروي عن الحسن قال: (من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه).

وقد أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث إلى الطريق الذي يبلغ به العبد كمال دينه وحسن إسلامه، وصلاح عمله، فبين أن مما يزيد إسلام المرء حسنًا، أن يدع ما لا يعنيه، ولا يفيده في أمر دنياه وآخرته.

وفي قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه» توجيه للأمه بالاشتغال بما ينفعها، ويقربها من ربها؛ كما جاء في الحديث عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «**احرص على ما ينفعك**» فأرشد ﷺ إلى اغتنام الأوقات بالخيرات، فإن الدنيا مزرعة للآخرة، وعمر الدنيا قصير، فهو كظل شجرة، يوشك أن يذهب سريعًا، فالإنسان

العاقل هو الذي جعل الآخرة همه، والجنة مطلبه، يغتنم أوقاته كلها ويصرف نفسه عما لا يعنيها.

ولا شك أن من تتبع ما لايعنيه ضر نفسه وضر إخوانه المسلمين بتتبع أحوالهم والحديث فيهم وعنهم.

ومن فوائد في الحديث: الحث على الاستفادة من الأوقات وعدم إضاعتها فيما لا فائدة فيه، وكذلك الحث على البعد عن سفاسف الأمور والاشتغال بمعالي الأمور.

وفيه: التوجيه بمجاهدة النفس وتهذيبها، وذلك بإبعادها عما يشينها من النقائص والرذائل.

وفيه: أن من حسن إسلام المرء الاهتمام بما يعنيه من أمر دينه ودنياه.

وفيه: أن الإسلام جمع المحاسن والفضائل.

الحديث الثالث عشر

روى أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [رواه البخاري ومسلم].

راوي هذا الحديث هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، وقرابته من جهة الخؤولة، إذ بنو النجار هم أخوال عبد المطلب جد النبي ﷺ، خدم رسول الله ﷺ عشر سنين، يقول أنس: «**فما قال لي -أي النبي ﷺ- أفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته؟** »غزا مع رسول الله ﷺ ثمان غزوات وأقام بالمدينة وشهد الفتوح، ثم انتقل إلى البصرة في خلافة عمر ﵁ ومات بها سنة ثلاث وتسعين، وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة.

وفي الحديث الذي أورده أنس ﵁ عن النبي ﷺ أصل عظيم وميزان شرعي في محبة المسلمين، والنصح لهم وإرشادهم، ومعاملتهم كمعاملة النفس، ولو عمل به الناس لقضى على كثير من المنكرات والخصومات بينهم.

فإن من متطلبات الإيمان ولوازمه أن يحب المسلم لأخيه (أي أخوة الإسلام والإيمان) ما يحب لنفسه، وأن هذا واجب وهو ما كان من أمور الدين أو من الأمور التي يرغب فيها الشارع وأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب. وكذلك ما نهى عنه الشارع فيحب لأخيه أن ينتهي عن المحرمات، ويحب لأخيه أن يأتي بالواجبات، وقد يكون مؤمنًا، ولكن لا يؤمن من الإيمان الذي يجعله يرقى في درجات القرب.

ومن تحلى بهذه الخصلة العظيمة كان مستحقًا لدخول الجنة فقد رتب النبي ﷺ دخول الجنة على هذه الخصلة العظمية.قال ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**» [رواه مسلم].

في مسند الإمام أحمد عن يزيد القسري قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أتحب الجنة؟**».

قلت: نعم.

قال «**فأحب لأخيك ما تحب لنفسك**» [رواه أحمد].

وذلك أنه لما كان المسلم محسنًا لإخوانه في الدنيا، مشفقًا عليهم، حريصًا على نفعهم، جازاه الله بالإحسان في الآخرة وأدخله

دار كرامته. وإنما يقدر على هذه الخصلة ويقوى عليها من رزق سلامة الصدر، وكان قلبه خاليًا من الغل والغش والحسد.

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي حَمْزَةَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ تخَادِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

أي؛ لا يكون مؤمنًا حقًا تام الإيمان، إلا بهذا الشرط، أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، وما يحب لنفسه من الطاعات والمباحات، ومن ترك الشر والمنكرات، وإذا كان كذلك فإنه لا يمكن أن يغشهم أو يخونهم، أو يكذب عليهم.

وفي قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم» أي: لا يكمل إيمانه. وفي رواية عند الإمام أحمد: (لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير)، وهذا يدخل في النصيحة.

«حتى يحب لأخيه» المسلم من الخير «ما يحب لنفسه» من خير، ودفع شر، ودفاع عن العرض وغير ذلك. فيكون معه كالنفس الواحدة فيسره ما يسر أخاه المؤمن، ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير، وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد.

وينبغي للمؤمن أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، فإن رأى في أخيه المسلم نقصًا في دينه اجتهد في إصلاحه. وأن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه.

قال ابن رجب: (وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغش والغل والحسد، وقد قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]).

قال بعض العلماء في هذا الحديث من الفقه: إن المؤمن من المؤمن كالنفس الواحدة، فينبغي ان يحب له ما يحب لنفسه من حيث إنهما نفس واحدة، كما جاء في الحديث الآخر: «**المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر**» [رواه مسلم].

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وددت أن الناس تعلموا هذا العلم، ولم ينسب إليَّ منه شيء).

قال ابن الصلاح: (وهذا قد يُعدُّ من الصعب الممتنع، وليس كذلك. إذ معناه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه، والقيام بذلك يحصل بأن يحب له حصول مثل ذلك

من جهة لا يزاحمه فيها، بحيث لا ينقص النعمة على أخيه شيئًا من النعمة عليه، وذلك يسهل على القلب السليم، وإنما يعسر على القلب الدغل، عافانا الله من ذلك).

وقال ابن رجب: (وينبغي للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية، ولهذا أُمر أن ينظر في الدين إلى من فوقه، وأن يتنافس في طلب ذلك جهده وطاقته، كما قال تعالى: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] ولا يكره أن أحدًا يشاركه في ذلك، بل يحب للناس كلهم المنافسة فيه، ويحثهم على ذلك، وهذا من تمام أداء النصيحة للإخوان، فإذا فاقه أحد في فضيلة دينية اجتهد على لحاقه، وحزن على تقصير نفسه وتخلفه عن لحاق السابقين، لا حسدًا لهم على ما آتاهم الله، بل منافسة غبطة وحزنًا على النفس، لتقصيرها وتخلفها عن درجات السابقين، وينبغي للمؤمن أن لا يزال يرى نفسه مقصرًا عن الدرجات العالية، مستفيدًا بذلك أمرين نفيسين: الاجتهاد في طلب الفضائل والازدياد منها، والنظر إلى نفسه بعين النقص، وينشأ من هذا أن يحب للمؤمنين أن يكونوا خيرًا منه، لأنه لا يرضى لهم أن يكونوا على مثل حاله، كما أنه لا يرضى لنفسه بما هي عليه، بل هو يجتهد في إصلاحها).

قال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ «**المرء مع من أحب**» فقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أنت مع من أحببت**» قال أنس: (فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل عملهم).

ومحبة النبي ﷺ تعنى اتباع سنته والسير على نهجه وطريقته وعدم مخالفة أمره. فإن أبا بكر كان يحب النبي ﷺ وينصره، وكان أبو طالب كذلك، لكن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أحب النبي ﷺ واتبع طريق الرسول ﷺ وآمن به واستن بسنته، وقام بما أمر الله به وترك ما نهى عنه. فكان من اتباعه ومقدمهم ورأسهم. بخلاف أبي طالب الذي كفر برسالته ولم يؤمن بها وإن كان يحب الرسول ﷺ حبًّا طبعيًا.

وقد حرص الإسلام على تنظيم علاقة الناس بربهم تبارك وتعالى، حتى ينالوا السعادة في الدنيا والآخرة، وكذلك شرع لهم ما ينظم علاقتهم بعضهم ببعض، حتى تسود الألفة والمحبة في المجتمع المسلم ولايتأتى ذلك إلا إذا حرص كل فرد من افراده على مصلحة غيره حرصه على مصلحته الشخصية، وبذلك يكون المجتمع المسلم مجتمعًا مترابطًا متحابًا متناصحًا.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في حب الخير للغير، فهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يدخر جهدًا في نصح الآخرين وإرشادهم ودلالتهم على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

روى مسلم أن النبي ﷺ قال ناصحًا ومحبًا لأبي ذر رضي الله عنه: «**يا أباذر إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم**».

وإنما نهاه عن ذلك لما رأى من ضعفه، وهو ﷺ يحب هذا لكل ضعيف.

ومن محبة السلف لبعضهم البعض ما قاله ابن عباس: (إني لأمر على الآية من كتاب الله، فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم).

ومن مقتضيات هذا الحديث: أن يبغض المسلم لأخيه ما يبغضه لنفسه، وهذا يقوده إلى ترك جملة من الأخلاق الذميمة كالحسد، والحقد والبغض للآخرين والأنانية والجشع وغيرها من الصفات التي يكره أن يعامله الناس بها.

وحق الأخوة الإيمانية عام للمؤمنين والمؤمنات، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] ومن كمال الإيمان حب المسلم الخير لأخيه المسلم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

وفي الحديث تحريم ما ينافي هذه المحبة من الأقوال والأفعال؛ كالغش، والغيبة، والحسد، والعدوان على نفس المسلم أو ماله أو عرضه.

وفي النصيحة محبة الخير للمسلم، وكراهة الشر له، كما يحب المرء لنفسه ويكرهه لنفسه.

ورد عند الترمذي: «**أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا**» وفي مسند الإمام أحمد «**أفضل الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتعمل لسانك في ذكر الله**» قال: وماذا يا رسول الله؟ قال: «**أن تحب للناس كما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيرًا أو تصمت**».

قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فهو ﷺ خير من علم وأعان، وساعد ورحم إخوانه الصحابة رضي الله عنهم ومن أوجه محبة المسلم لأخيه تقديم العون والمساعدة له، قال ﷺ: «**خيركم أنفعكم للناس**» فمن استطاع أن ينفع أخاه فلينفقه

إما بتعليم العلم له، أو مساعدته في حاجته المادية، أو الشفاعة له، أو غيرها من أوجه البر والإحسان لأخيه المسلم. مع دفع وصد الأذى عنه في نفسه وماله وعرضه وما يحب.

وفي الحديث: أن أوثق عرى الإسلام الحب في الله، والبغض في الله.

وفيه: محبة المسلمين، وتعظيم حرماتهم ونفعهم.

وهذا الحديث أصل عظيم في محبة المسلمين والنصح لهم، ومكانه النصح ومنزلتها، وأنه من الإيمان. أي: الإيمان الكامل، أن يحب لنفسه ما يحبه لأخيه، ومن ذلك بذل النصح لهم.

الحديث الرابع عشر

ابتعث الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ بالدين الخاتم، الذي يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فإذا دخل الإنسان حياض هذا الدين، والتزم بأحكامه، صار فردًا من أفراد المجتمع الإسلامي يتمتع بكافة الحقوق المكفولة له، ومن جملة هذه الحقوق عصمة دمه وماله وعرضه. فإن الدماء المعصومة أمرها في الإسلام عظيم لأنها أساس الحياة ومادته، ولا يزال المؤمن في فسحه وسعة من دينه ما لم يصيب دمًا حرامًا. وقتل النفس المعصومة من أكبر الكبائر.

والمسلم معصوم الدم والمال، لا ترُفع عنه هذه العصمة «**إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس**» [رواه أبو داود].

وما عدا ذلك فحرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة الكعبة بل من الدنيا أجمع، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا**» [رواه النسائي].

وفي الحديث: «... **وأول ما يقضى بين الناس الدماء**» [رواه البخاري].

والدماء المحرمة أربعة أصناف: دم المسلم، ودم الذمي، ودم المعاهد، ودم المستأمن، وأشدها وأعظمها دم المؤمن.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فهذه خمس عقوبات: جهنم خالدًا فيها، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعد له عذابًا عظيمًا؛ هذا لمن قتل مؤمنًا متعمدًا.

قال العلماء: (ولم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله).

وسفك دم المسلم من الأمور المحرمة لقوله ﷺ: «**لا يحل دم امريء مسلم**» أي لا يجوز قتله، مما يدل على وجوب التحرز في هذه المسالة العظيمة، والحكم شامل للرجال والنساء وقد تواترت النصوص في التحذير من تحريم الاعتداء على الآخرين، ولا يجوز قتل مسلم بشبهة أو اختلاف رأي.

قال القرطبي: (ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف).

وجاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصيب دمًا حرامًا**» [رواه البخاري].

ومعنى « **في فسحة من دينه**» أي؛ سعة ورجاء رحمة من الله ـ تعالى ـ، إذا لم يصدر منه قتل النفس بغير حق حتى يسهل عليه أمور دينه ويوفق للعمل الصالح.

وهو قول عبد الله بن عمر: (إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن اوقع نفسه فيها؛ سفك الدم الحرام بغير حله).

وقيل: أي؛ يرجى له رحمة الله ولطفه، ولو باشر الكبائر سوى القتل؛ فإذا قتل نفسًا بغير حق ضاقت عليه المسالك، ودخل في زمرة الآيسين من رحمة الله.

قال ابن العربي: (الفسحة في الدين الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب، قبوله الغفران بالتوبة حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول).

«**ما لم يصب**» أي، يقتل.

«**دمًا حراما**» دم مسلم بغير حق.

والدماء المعصومة في الإسلام لها شأن عند الله عظيم، فلا يجوز سفكها بغير حق، أو التهاون في أمرها، وإذا كان النهي الشرعي قد زجر عن قتل البهيمة بغير حق، ورتب على ذلك وعيد فكيف بقتل الآدمي؟ ثم كيف بقتل المسلم.

جاء في فتح الباري أن ابن عمر رضي الله عنهما قال لمن قتل عمدًا بغير حق: (تزود من الماء البارد، فإنك لن تدخل الجنة).

وكما يحرم الاعتداء على المسلم، فإنه يحرم كذلك الاعتداء على المعاهد لقوله ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة**» [رواه البخاري ومسلم].

وكما أن الله عز وجل حرم الاعتداء على الدماء، فقد وردت النصوص بتحريم الاعتداء على الآخرين بأي نوع من أنواع الاعتداء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧] وجاءت النصوص بتحريم الظلم كما قال ﷺ: في خطبة عرفة: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**» [رواه البخاري ومسلم].

وقال جمهور العلماء: تصح توبة الإنسان من قتل المسلم، لقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

روى البخاري ومسلم عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

قال ابن حجر في منزلة الحديث: (وهو من القواعد الخطيرة لتعلقه بأخطر الأشياء وهو الدماء، وبيان ما يحل منها وما لا يحل، وأن الأصل فيها العصمة، وهو كذلك عقلًا، لأنه مجبول على محبة بقاء الصور الإنسانية المخلوقة في أحسن تقويم).

وفي رواية: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث**» الحديث.

وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث) يعني بواحدة من الثلاث: «**رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس**» [رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة].

ولا يحل دم غير المسلم المعاهد أو المستأمن أو الذمي.

والمعاهد: من كان بيننا وبينه عهد، كما جرى بين النبي ﷺ وقريش في الحديبية.

والمستأمن: الذي قدم من دار حرب لكن دخل إلينا بأمان لبيع تجارته أو شراء أو عمل، فهذا محترم معصوم حتى إن كان من قوم أعداء ومحاربين لنا، لأنه أعطي أمانًا خاصًا.

والذمي: هو الذي يسكن معنا ونحميه ونذب عنه، وهذا هو الذي يعطي الجزية بدلًا عن حمايته وبقائه في بلادنا.

والكفار على قسمين:

القسم الأول: المحاربون: أي الذين يحاربوننا، وهؤلاء يقاتلون، وليس بيننا وبينهم إلا القتال، لا يطعمون ولا يسقون، بل يترك أحدهم إن كان عطشان أو جائعًا يموت، لأنه عدو لك ويقاتلك.

والقسم الثاني: غير المحاربين: وهم الذميون، بيننا وبينه عهد، كأن يدخل البلاد بأمان أو عهد، فله ذمة، لا يقاتلون ولا يخرجون من ديارنا، فهؤلاء لا بأس أن نبرهم، ونكسوهم، ولكن لا نحبهم محبة دينية؛ بل نبغضهم ونعتقد أنهم كافرون وأنهم أعداء الله، ونتبرأ من دينهم، لكن نحسن إليهم ونطعهم ونسقيهم، ونعاملهم معاملة حسنة، وقد يكون هذا من أسباب دخولهم في الإسلام.

ومع بغضهم وعداوتهم والبراءة منهم ومن معبوداتهم، فإن الإسلام حرم قتل الكافر المعصوم، وهو الذمي: وهو الكافر الذي أقر في دار الإسلام على كفره بالتزام الجزية ونفوذ أحكام الإسلام فيه.

والمعاهد: وهو الرجل من أهل الحرب يدخل إلى دار الإسلام بأمان.

والمستأمن: وهو الكافر يدخل ديار المسلمين بأمان. وحرم سلب ماله، أو ظلمه، أو الاعتداء عليه، قال النبي ﷺ: «**من قتل معاهدًا، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا**» [رواه البخاري]. بل يجب مع بغضه دعوته إلى الله بالحكمة والبصيرة، كما فعل النبي ﷺ مع المشركين، ودين الإسلام وسط في معتقد الولاء والبراء، لا إفراط فيه بقتل الكفار المعصومين، ولا تفريض فيه بالموالاة المحرمة أو التولي المخرج من الملة، ويجب على المسلم أن يكون عادلًا في أداء تلك العبادة العظيمة بين الإفراط والتفريط، وأن يكون عمله بها منوطًا بالعلم بها على ضوء ما جاءت به الشريعة.

وقوله: «الثيب الزاني» هو المحصن، وهو من تزوج ووطئ في نكاح صحيح وزنا بعد ذلك.

وقد ورد في الحديث تحريم الزنا، وأن من وقع فيه فإنه يستحق العقوبة.

والزاني: من وطء فرجًا محرمًا عالمًا بالتحريم وإن لم يعلم بالعقوبة. وقد حذر الله تعالى من الوقوع في هذه الفاحشة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥].

قال الإمام أحمد: (لا أعلم بعد قتل النفس ذنبًا أعظم من الزنا).

وقد حرم الله ﷻ الزنا لشناعه فعلته وقبيح مورده، ونهى ﷻ عن القرب من دواعيه وأسبابه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

والزنا من أكبر الكبائر بعد الشرك والقتل، وهو رجس وفاحشة مهلكة، وجريمة موبقة، ويدخل فيه الذكر والأنثى بشروطه المذكورة في أبواب الفقه، وعقوبته الرجم بالحجارة حتى الموت لأنه مشروع في حقه، وقد رجم رسول ﷺ ماعزًا والغامدية، وكذا اليهوديين، وعقوبة الزناة على نوعين:

النوع الأول: من لم يسبق له زواج وطيء فيه، فهذا عقوبته الجلد مائة جلدة لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وجمهور أهل العلم على أن الزاني غير المحصن يزاد عليه عقوبة التغريب من بلده إلى بلد آخر لينتقل من البيئة التي ارتكب فيها المحرم إلى مكان آخر لعله يكون سببًا في

توبته وفي تركه لهذا المحرم، ويستدلون بحديث النبي ﷺ: «**خذوا عني خذوا عني؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام**» [رواه مسلم]. وقد ثبت أنه ﷺ غرب، وغرب أصحابه في الزنا.

النوع الثاني: من الزناة: من كان ثيبًا، أي من سبق له الزواج بعقد صحيح ووطيء صحيح، والأمة متفقة على أن من زنا ثيب؛ أنه يجب رجمه حتى يموت لأن النبي ﷺ قد رجم عددًا من الزناة، كما رجم ما عزًا والغامدية وغيرهم.

والزنا لا يصح أن يثبت على شخص إلا بدليل: إما من شهود أربعة يشهدون بأنهم رأوا فرج الرجل داخلًا في فرج المرأة، أو بإقرار الزاني واعترافه.

ثم ذكر في الحديث «والنفس بالنفس» أي تقتل النفس في مقابلة النفس: أي قصاصًا بشرطه. موافق لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ﴾ [المائدة: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩].

والمراد أن المكلف إذا قتل نفسًا بغير حق عمدًا فإن أولياء الدم لهم الحق في طلب قتله من الحاكم، ويجوز لأولياء الدم أن يعفوا ويتصدقوا على القاتل، أو يطالبوا بالدية أو أن يصطلحوا مع القاتل. قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٨].

أما القتل إذا كان خطأ فإنه لا يجب فيه القصاص، وإنما الواجب فيه الدية لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢].

قوله ﷺ: «والتارك لدينه المفارق للجماعة» أي أن هذا من الأسباب الموجبة للقتل.

قال ابن رجب: (معناه الارتداد عن دين الإسلام ولو أتى بالشهادتين، فلو سب الله تعالى أو رسوله ﷺ وهو مقرّ بالشهادتين أبيح دمه؛ لأنه قد ترك بذلك دينه، كذلك لو استهان بالمصحف وألقاه في القاذورات، أو جحد ما يعلم من الدين بالضرورة، كالصلاة وما أشبه ذلك).

وفي الحديث الآخر قال ﷺ في الحديث مما يحل به دم المرء المسلم: ترك الدين والمراد بذلك الردة. قال ﷺ: «**من بدل دينه فقتلوه**» [رواه البخاري].

ويؤخذ من الحديث أن الإنسان قد يقر بالشهادتين وقد يكون مؤديًا للصلاة لكنه يفارق دينه بسبب من الأسباب كما لو سب الله أو رسوله أو كفر بشيء من القرآن أو نحو ذلك.

وفي الحديث: تحريم مفارقة الجماعة، ومفارقة الجماعة يشمل محاربة أهل الإسلام وسفك دمائهم فمن فعل ذلك فإن تجوز مقاتلته. وللمحاربة أحكام مذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة ٣٣].

وفي الحديث: احترام دماء المسلمين، وأن غير المسلم يحل دمه ما لم يكن معاهدًا، أو مستأمنًا، أو ذميًّا.

وفي الحديث: التحذير من سفك الدماء والتعدي عليها.

وفيه: حسن تعليم النبي ﷺ.

وفيه: حكم المرتد ووجوب لزوم جماعة المسلمين.

وفيه: أن الثيب الزاني يقتل برجمه بالحجارة.

الحديث الخامس عشر

في هذا الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

هذا الحديث أصل في حفظ اللسان وبذل الإحسان، وفيه مشروعية التذكير في الإيمان بأمرين: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

قال ابن حجر: (وهذا من جوامع الكلم، اشتمل الحديث على أمور ثلاثة، تجمع مكارم الأخلاق الفعلية والقولية).

فالحديث يدعو إلى حسن معاشرة الآخرين، وحسن المعاشرة تؤدي إلى نشر المحبة بين الناس، والمحبة تؤدي إلى التآلف والترابط.

في هذا الحديث؛ عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

«من كان يؤمن بالله» أي؛ من كان يؤمن الإيمان الكامل؛ الذي هو المنجي من عذاب الله، الموصل إلى رضوان الله.

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» فليفعل كذا وكذا، يدل على

أن هذه الخصال من خصال الإيمان، والأعمال تدخل في الإيمان، وقد فسر النبي ﷺ الإيمان بالصبر والسماحة. قال الحسن: (المراد الصبر عن المعاصي، والسماحة بالطاعة) وأعمال الإيمان تارة تتعلق بحقوق الله، كأداء الواجبات وترك المحرمات، ومن ذلك قول الخير، والصمت عن غيره. وتارة تتعلق بحقوق عباده كإكرام الضيف، وإكرام الجار، والكف عن أذاه.

«فليقل خيرًا» أي: (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت) قال النووي: (معناه إذا أراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيرًا محققًا يثاب عليه واجبًا أو مندوبًا فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين، فعلى هذا يكون الكلام المباح مأمورًا بتركه مندوبًا إلى الإمساك عنه مخافة من انجراره إلى المحرم أو المكروه الذي يقع في العادة كثيرًا أو غالبًا).

والمعنى: من كان يؤمن الإيمان الكامل المنجي من عذاب الله، الموصل إلى رضوان الله فليقل خيرًا أو ليصمت؛ لأن من آمن بالله حق إيمانه خاف وعيده، ورجا ثوابه، واجتهد في فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

«واليوم الآخر» أي؛ يوم القيامة، يوم الجزاء والحساب، وخصه بالذكر لأن الإيمان به يستلزم التصديق بما فيه من ثواب وعقاب، وذلك مستلزم للإيمان بكل ما يجب الإيمان من ضرورة الحياة.

قوله ﷺ: «فيقل خيرًا» اللام للأمر، والخير نوعان: خير في القال نفسه، وخير في المراد به.

أما الخير في القال: كأن يذكر الله ﷻ ويسبح ويحمد ويقرأ القرآن، ويُعلم العلم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فهذا خير بنفسه.

وأما الخير لغيره: كأن يقول قولًا ليس خيرًا في نفسه ولكن من أجل إدخال السرور على جلسائه، فإن هذا خير لما يترتب عليه من الأنس وإزالة الوحشة وحصول الألفة.

فكلام الخير خير من السكوت، والسكوت خير من كلام الشر.

قال الشافعي: (معنى الحديث إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم، وإن ظهر أن فيه ضررًا أو شك فيه أمسك).

«أو ليصمت» أي؛ يسكت عن الكلام عن إرادة وقصد. إذا كان فيه فائدة ونفع تكلم وإلا فالسكوت أفضل.

قال شيخ الإسلام: (ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن

النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يُلقي لها بالًا، يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي).

ولهذا قال سلمة بن دينار: (ينبغي للمؤمن أن يكون أشد حفظًا للسانه منه لموضع قدمه).

قال العلماء: (فليطلب الصمت حتى عن المباح لأنه ربما أدى إلى محرم أو مكروه، وإن لم يكن كذلك، ففيه ضياع الوقت فيما لا يعني. وفي الحديث «**وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم**» [رواه الترمذي].

وهذا الحديث؛ صريح في أنه ينبغي ألا يتكلم المتكلم المكلف إلاإذا كان الكلام خيرًا. أي؛ تحققت خيريته وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة وتردد على السواء، فلا يتكلم، أما إذا ظن أن المصلحة في الكلام فيتكلم، والأحكام الشرعية مدارها على الظن.

وقوله ﷺ: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**». المقصود بهذه الصيغة الحث والإغراء على قول الحق أو السكوت.

قال النووي: (معناه إذا اراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيرًا محققًا يثاب عليه واجبًا أو مندوبًا فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين، فعلى هذا يكون الكلام المباح مأمورًا بتركه مندوبًا إلى الإمساك عنه مخافة من انجراره إلى المحرم أو المكروه الذي يقع في العادة كثيرًا أو غالبًا).

وفيه مشروعية أن يتكلم الإنسان بالأقوال الطيبة التي يترتب عليها الخير والمصلحة لقوله ﷺ: «فليقل خيرًا» ومن الأقوال التي يحصل بها الأجر العظيم والثواب الجزيل ذكر الله ﷻ، كما قال ﷺ: «**سبق المفردون**» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال:«**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات** » [رواه مسلم] ومما يدخل في قول الخير؛ الأمر بالمعروف النهي عن المنكر، والوعظ والتذكير، والدعوة إلى الله ﷻ.

ومن القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه أن يصمت عن الكلام القبيح السيء، في الحديث: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها**

يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» [رواه البخاري ومسلم]

وفي الحديث الآخر أنه ﷺ قال لمعاذ: «**وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**» [رواه الترمذي].

وروى أحمد والنسائي: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة**».

قال الفضيل: (لا حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان).

واللائق بمن يؤمن بالله تعالى حق إيمانه، وباليوم الآخر، ووقوع الجزاء فيه أن يستعد له، ويجتهد فيما يدفع به أهواله ومكارهه، فيأتمر بأوامره، وينتهي عن مخالفته، ويعلم أن من أهم ما عليه ضبط جوارحه، فإنها رعاياه، وهو مسؤول عنها جارحة جارحة ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وثاني هذه الخلال: إكرام الجار والإحسان إليه، وفي حديث آخر أشار ﷺ إلى نفي الإيمان عمن يؤذي جاره، وبه حمى الإسلام الجار من جاره، لكنه لم يكتف بهذه الحماية بل حث في هذه الحديث على إكرامه والإحسان إليه.

جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره**» [رواه مسلم].

وفي تكرار كل خصلة قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» كرره للإيذان بأن كل واحد من الثلاث مستقلة بالطلب تابعة لأختها، وأن من كان هذا شأنه ينبغي أن يحصل كلًا من الثلاث وأن يحرص كل منهما باهتمام.

وفي قوله: «فليكرم جاره» وإكرام الجار قدر زائد على كف الشر ومنع الأذى، ويحصل إكرام الجار بايصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة، كالهدية والسلام وطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقد حاله، ومعاونته فيما يحتاج إليه وموعظته بالحسنى، والدعاء له.

وفي ذلك الحديث من باب الدرء والتخلية، وما في هذا من باب جلب النفع والتحلية، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح. وأشار المصنف بالجمع بينهم إلى أن كمال الإيمان لا يحصل إلا بالجمع بين الأمرين؛ فيكف عنه أذاه، ويحسن إليه بما تصل إليه قدرته.

وفي رواية: «**فلا يؤذ جاره**» فيه تعريف لحق الجار وبره وكذلك الضيف. ومن أنواع الإحسان إلى الجار مواساته عند حاجته، وفي المسند عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يشبع المؤمن دون جاره**».

والجيران ثلاثة: الجار المسلم الذي له قرابة، له ثلاث حقوق، والجار المسلم غير القريب له حقان، والجار الكافر له حق الجوار، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. وتفاوت حق الجار بحسب قرب الجار وبعده، ويدل على عظيم حق الجار قول النبي ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه**» [رواه البخاري في الأدب].

وقد اختلف أهل العلم في حد الجوار فبعضهم قال: من يصلي معك في المسجد، وبعضهم قال: إلى أربعين دارًا.

وكما ورد في الأحاديث الأمر بالإحسان إلى الجار، ورد النهي الشديد عن إيذاء الجار، في الحديث أن النبي ﷺ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**».

قال ابن بطال: في الحديث تأكيد حق الجار لقسمه ﷺ على ذلك، وتكريره اليمين ثلاث مرات، وفيه نفي الإيمان عمن يؤذي جاره

بالقول أو الفعل، ومراده الإيمان الكامل، ولا شك أن العاصي غير كامل الإيمان»

وفي الحديث: إن فلانة تصلي بالليل وتصوم النهار وفي لسانها شيء تؤذي جيرانها سليطة، فقال ﷺ: «**لا خير فيها هي في النار**» [رواه أحمد].

والخصلة الثالثة: التي ندب إليها النبي ﷺ هي قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» وإكرام الضيف من أخلاق الأنبياء والمرسلين، كما ذكر الله ﷻ عن إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦- ٢٧] وإكرام الضيف يحصل بالبشاشة في وجهه والترحيب بقدومه، وانزاله المكان اللائق به المقدور عليه، وتقديم ما تيسر من الطعام والشراب له. والجمهور على أنه يتكلف له في اليوم الأول بالبر والألطاف، ويقدم له ما حضر دون ما تكلف في اليومين الثاني والثالث.

جاء في الحديث كما في الصحيحين من حديث أبي شريح قال رسول ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيلكرم ضيفه جائزته**» قال: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «**يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك هو**

صدقة عليه». والضيف هو من ينزل بالإنسان يريد المأوى والطعام، وإكرامه بحسب منزلة الضيف، وحال المضيف، والواجب للضيف: إضافته يومًا وليلة، وما زاد فهو سنة إلى ثلاثة أيام.

وإكرام الضيف والقيام بحقه من الأعمال الصالحة التي يؤجر العبد عليها لأن هذا من إطعام الطعام، وقد جاءت النصوص بالحث والترغيب في إطعام الطعام كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] وجاء في الحديث أن النبي ﷺ سُئل: أي الإسلام خير؟ فقال: «**تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**» [رواه البخاري].

وجاء في حديث عبد الله بن سلام أن النبي ﷺ قال: «**أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**» [رواه الترمذي].

وليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال لتكون من المحسنين: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

إن من التزم شرائع الإسلام تأكد عليه القيام بهذه الثلاثة الأمور، وهي المحافظة على أقواله وأفعاله والحرص على ما يقول ويسمع، ويتأكد عليه إكرام جاره وضيفه وبرهما لعظيم حقهما كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

وإن قول الخير خير من الصمت، وإن الصمت خير من قول الشر، وإن قول الخير غنيمة، والسكوت عن الشر سلامة، وأن فوات الغنيمة والسلامة ينافي حال المؤمن ولا أمان لمن فاتته الغنيمة والسلامة. وإن الإنسان إما أن يتكلم أو يسكت، فإن تكلم؛ فإما بخير وهو ربح، وإما بشر وهو خسارة، وإن سكت؛ فإما عن شر وهو ربح، وإما عن خير وهو خسارة، فله في كلامه وسكوته ربحان فينبغي أن يحصلهما، وخسارتان ينبغي أن يجتنبهما.

قال الفضيل بن عياض: (ما حج ولا رباط، ولا جهاد أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يهمك لسانك، أصبحت في غم شديد).

وفي الحديث: الحرص على ما يتكلم به المرء؛ وليعلم أنه محاسب على ذلك كله.

وفيه: أن من كمال الإيمان بالله ـ تعالى ـ أن يتكلم خيرًا، أو يكف لسانه عن ذلك الكلام الذي لا فائدة فيه.

وفيه: أن من آمن بالله حق إيمانه خاف وعيده ورجا ثوابه، واجتهد في فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه.

وفيه: الحث على إكرام الضيف والقيام بحقه.

وفي الحديث: تحريم إيذاء الجار، وإيذاؤه مناف لكمال الإيمان، والتحذير من الخوض في الكلام الباطل كالغيبة والنميمة وغيرها. والترغيب في السكوت عند عدم فائدة الكلام.

وفي هذا الحديث ثلاث خصال من سمات المؤمن بالله وبالبعث والجزاء، ثلاث خصال هي جماع الخير، وأمهات مكارم الأخلاق.

الحديث السادس عشر

الوصية الجامعة النافعة هي ما يُطلب من الأخ المسلم المشفق، وقد حرص الصحابة ﷺ على ما ينفعهم، ومن ذلك ما ورد في هذا الحديث من طلب الصحابي من النبي ﷺ أن يوصيه وصية وجيزة، جامعة لخصال الخير، لحفظها عنه خشية أن لا يحفظها لكثرتها.

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي. قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ».

هذه وصية وجيزة نافعة، متضمنة لمجامع الخير، ومانعة عن قبائح الشر؛ فإن الغضب جماع الشر ومفتاح لكثير من الشرور القولية والفعلية وأعلاها الكفر والقتل، وفيه أن الغضب خصلة ذميمة، وأن التحرز من الغضب يؤدي إلى خير كثير. وفيه مشروعية طلب الوصية ويستحب لمن طلبت منه الوصية أن يقدم وصية نافعة لمن طلب منه النصيحة.

والغضب جماع الشر، وباب من مداخل الشيطان الثلاثة؛ وهي: الغفلة، والشهوة، والغضب.

والغضب: جمرة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان حتى يغلي القلب، ولهذا تنتفخ الأوداج وعروق الدم، وتحمر العين، ثم ينفعل الإنسان حتى يفعل شيئًا يندم عليه.

قال جعفر بن محمد: (الغضب مفتاح كل شر).

وقيل لابن المبارك: أجمع لنا حسن الخلق، فقال: (ترك الغضب).

في الحديث: (أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني) طلب من رسول الله ﷺ الوصية، فقال له ﷺ:

«لا تغضب» أي؛ لا تكن سريع الغضب، يستثيرك كل شيء؛ بل كن مطمئنًا متأنيـًا.

(فردد) أي؛ فكرر الرجل قوله: أوصني مرارًا، تعريضًا بأنه لم يقتنع بذلك، وأنه يطلب وصية أبلغ وأنفع؛ فلم يزده لعلمه أن لا أنفع من ذلك له؛ فقال ﷺ:

«**لا تغضب**» كررها تأكيدًا لأهميتها، والمقصود من ترك الغضب هو اجتناب أسبابه والأمور المفضية إليه.

وفي قوله ﷺ: «لا تغضب» أي؛ لا تتعرض لأسباب الغضب، وللأمور التي تجلب الغضب، إذ نفس الغضب مطبوع في الإنسان لا يمكن إخراجه من جبلته.

أو معناه: لا تفعل ما يأمرك به الغضب ويحملك عليه من الأقوال والأفعال.

وقوله ﷺ: «لا تغضب» يشمل معنين:

الأول: أن يتجنب المرء الوقوع في الغضب ابتداء، أو بقليل منه، وذلك بأن يعمل بالأسباب التي توجب حسن الخلق من الحلم والكرم، والحياء والتواضع، وكف الأذى والصفح، والعفو والطلاقة وغير ذلك، فإن المرء إذا تحلى بذلك لم يحصل منه الغضب عند وجود أسبابه.

الثاني: أن لا يعمل بمقتضى الغضب إذا وقع فيه، بل يجاهد نفسه على ترك ما يأمر به الغضب، فإن الغضب إذا ملك الإنسان كان الآمر الناهي له، ولهذا قال الله ﷻ في وصفه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] فإذا لم يطع المرء غضبه فيما يأمره به وسكن عنه الغضب كان كأنه لم يغضب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

قال السعدي: (فخير الناس من كانت شهوته وهواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ وغضبه ومدافعته في نصر الحق على الباطل. وشر الناس: من كان صريع شهوته وغضبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (قد أفلح من عصم من الهوى، والغضب، والطمع).

وهذا الداء الخطير جعل له النبي ﷺ دواء نافعًا وعلاجًا شافيًا والمسلم مطالب بكسر حدة الغضب وإبعاده بهذه الأمور التي منها:

أولًا: تتبع وصية النبي ﷺ في ذلك ألامر، فقد جاءه رجلُ وقال: أوصني، قال ﷺ: «لا تغضب» **فَرِدَّد مرارًا** وقال: «لا تغضب» [رواه البخاري] وإيقاف الغضب ودواعيه قبل بدايته، خير من التمادي فيه ومحاولة إصلاح نتائجه الوخيمة.

ثانيًا: معرفة فضل الله عز وجل لمن تجرع الغضب وكتمه: قال ﷺ: «**ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى**» [رواه ابن ماجة].

ثالثًا: معرفة أن الغضب من الشيطان، قال ﷺ: «**إن الغضب من الشيطان...**» والشيطان يورد الإنسان موارد الهلاك.

رابعًا: الطمع فيما أعد الله ﷻ لمن كتم غيظه، قال ﷺ: «**من كظم غيظًا هو قادر على أن ينفذه دعاه الله ﷻ على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما يشاء**» [رواه أبو داود].

خامسًا: الالتزام بالهدي النبوي، ومن ذلك تغير الهيئة التي عليها الغضبان وليلصق بالأرض، فذلك أدعى لإذلال النفس وطرح الكبر، قال ﷺ: «**ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن أدم، أما رأيتم إلى حمرة عينه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء فيلصق بالأرض**» [رواه أحمد]. وقال ﷺ: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس؛ فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**» [رواه أحمد].

قيل: أن المعنى في هذا أن القائم متهيء للانتقام والجالس دونه في ذلك، والمضطجع أبعد عنه.

سادسًا: الوضوء، إمتثالًا لقول الرسول ﷺ: «**إن الغضب من الشيطان، خُلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**» [رواه أبوداود].

سابعًا: السكوت حال الغضب وحبس اللسان وإلجامه، قال ﷺ: «**علموا وبشروا ولا تعسروا، وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت**» [رواه أحمد]. لأنه قد يصدر

منه حال غضبه من القول ما يندم عليه في حال زوال غضبه. وقد يقع في السباب والشتم والقذف وغير ذلك.

ثامنًا: التعوذ من الشيطان الرجيم فهو رأس البلاء، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وعن سلمان بن صُرَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تساب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.**» [رواه مسلم].

تاسعًا: ذِكرُ الله في كل موطن خاصة عند حالات الغضب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

عاشرًا: احتساب الأجر العظيم فيمن كتم غيظه ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الحادي عشر: اللجوء إلى الله ﷻ وكثرة الدعاء والتضرع؛ وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسالك كلمة الحق في الغضب والرضا**» [رواه أحمد].

الثاني عشر: ذكر الله: من التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وغير ذلك مما دل عليه الشارع الحكيم.

فكم أفسد الغضب من صداقات، وجلب من عداوات وشتت بيوتًا وأسر، وفرق إخوة، وقطع أرحام، وربما تعدى ذلك إلى القتل.

عن وائل رضي الله عنه قال: إني لقاعد مع النبي ﷺ إذا جاء رجل يقود آخر بنسعة، فقال: يا رسول الله هذا قتل أخي، فقال رسول الله ﷺ «**أقتلته؟**» فقال: «إنه لو لم يعترف أقمت عليه البينة»، قال: نعم قتلته. قال «**كيف قتلته؟**» قال: كنت أنا وهو نحتطب من شجرة فسبني فأغضبني فضربته بالفأس على قرنة فقتلته. [رواه مسلم].

قال ابن القيم: «أصل العداوة والشر الحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه، وبدنه وجوارحه، فاستراح وأراح».

قال الإمام أحمد: «ذكر الله الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعًا، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر».

وهذا الحديث أصل في مقاومة الغضب وتجنب أسبابه، وفيه رواية عند الإمام أحمد «قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله».

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة، قال: ترك الغضب.

وقال الحسن: أربع من كنّ فيه عصمه الله من الشيطان وحرّمه الله على النار: من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب.

والغضب المذموم الذي حذر منه النبي ﷺ هو أن يغضب الإنسان انتقامًا لنفسه، أما إذا غضب غيرة لله لانتهاك محارمه، أو دفعا للأذى عن نفسه وغيره في ذات الله؛ فهذا غضب محمود شرعًا، وفاعله يثاب على ذلك.

ومن الغضب ما هو محمود وهو ما كان لله ولنصرة دينه، وكان ﷺ لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله.

قالت عائشة رضي الله عنها: **«ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل»** [رواه مسلم].

وتأكيد النهي عن الغضب في هذه الحديث، لا يدخل في ذلك الغضب لله إذا انتهكت حرماته، فالغضب مراتب، وأفضله: الغضب لله، وأسوؤه: السخط على قضاء الله، فالأول من كمال الدين، والثاني من الجهل بالله وسوء الظن به.

وقد نهى الشرع الحكيم عن مساوئ الأخلاق وحث على الالتزام بمحاسن الأخلاق.

قال رجل لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل، واحمر وجهه، فغضب عمر من قول الرجل، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألم تسمع أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وهذا من الجاهلين، قال عمر: صدقت، فكأنما كان نار فأطفت.

وكان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أحلم العرب، وكان يقول: «ما غضبت على من أقدر عليه ومن لا أقدر عليه» أي أن الغضب تعب محض لا فائدة فيه.

والغضب - والعياذ بالله - مرتبط بالكبر والاستعلاء والظلم والتعدي، ولهذا كان طريقًا مُهلكة وأرضًا موحشة! تأباه القلوب الكريمة، والعقول الكبيرة، والفطرة السليمة.

وقد مدح الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين بصفات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فهذه ثلاث صفات عظيمة أولها: كظم الغيظ وإيقافه، والثانية: العفو والصفح مع

المقدرة والتمكن، والثالثة: وهي أعلاها مرتبة: الإحسان إلى الناس مقابل إساءتهم.

وقال ﷺ خلافًا لما تعارف عليه الناس اليوم: «**ليس الشديد بالصُّرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «**إن الله رفيق يُحب الرفق في الأمر كُله**» [متفق عليه].

وليحذر الإنسان من الدعاء على نفسه أو أهله أو ماله عند الغضب، فإنه ربما يصادف ساعة إجابة فيستجاب له، في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل الله فيها عطاء فيستجيب لكم**» [رواه مسلم].

وفي الحديث: مشروعية طلب الوصية، وسؤال الدلالة على الخير، وفيه ذم الغضب، والنهي عنه والتحذير منه.

وفيه: أن من الحكمة إرشاد السائل إلى ما هو أليق بحاله والمناسب له.

وفيه: الوصية النافعة لمن طلبها.

وفي الحديث: بيان عظم مفسدة الغضب وما يترتب عليه من أذى للنفس والغير.

وفيه الابتعاد عن مواطن الغضب وأسبابه.

وفيه: معرفة النبي ﷺ بنفوس الناس وطبائعها وما جبلت عليه.

وفي الحديث الآخر إرشاد إلى كظم الغيظ وضبط النفس عند حصول الغضب كما في الحديث: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» [رواه البخاري ومسلم]. قال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقد أوصى النبي ﷺ في الحديث من طلب النصيحة، بقوله: «لا تغضب» كررها مرارًا لأهميتها ولتقع موقعًا من السائل، فهذه وصية نافعة لأن الغضب يجمع الشر كله، وهو باب من مداخل الشيطان.

الحديث السابع عشر

أمر الله ﷻ بالإحسان وحث عليه، ورغب فيه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والإحسان تارة يكون واجبًا كالإحسان إلى الوالدين والأرحام بقدر ما يحصل به أقل البر والصلة، والإحسان إلى الضعيف بقدر ما يحصل به دفع خلته.

وتاره يكون مستحبًّا كصدقة التطوع، وسقاية الماء، والإحسان إلى الجار، وغير ذلك من وجوه البر.

وقد ذكر النبي ﷺ مثالًا يندرج تحت قاعدة الإحسان، وهو الإحسان في كل ما يجوز قتله من الناس والدواب.

فالإسلام دين الإحسان، ولهذا أمر بالإحسان والرفق، والشفقة إلى الخلق في كل شيء، وجاء هذا الحديث في الإحسان في القتل

والذبح. وهو من الأحاديث الجامعة لقواعد كثيرة، من عمل به نال كل خير، وسلم من كل ضير، وفيه الندب إلى الإحسان في كل شيء والإحسان يكون بالقول والفعل والترك، والإحسان إلى أصناف الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

روى البخاري عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

وفي الحديث قال ﷺ:

«إن الله كتب» أي؛ فرض وأوجب وقدر. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ وفي الحديث عن صلاة التراويح قوله ﷺ: «إني خشيت أن تكتب عليكم».

في قوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان» أي طلب وشرع.

«والإحسان» هو ما حسنة الشرع. و«الإحسان» إتقان العمل، أو التفضيل والإنعام، ويشمل الإحسان في حق الله، والإحسان في حق الخلق، فالمحسن هو من أحسن في عمله، وأحسن إلى غيره.

والإحسان: مصدر أحسن يُحسن إذا أجاد وأتقن الشيء وأتى به على أحسن الوجوه وأكملها، والمراد طلب تحسين الأعمال المشروعة.

والإحسان صوره كثيرة جدًا ذكر منها النبي ﷺ هذا الحديث وخصها بالذكر لأنها الغاية في إيذاء الحيوان، فإذا طلب الإحسان فيهما مع كونهما الغاية في الأذى، فما بالك بغير ذلك، فإنه أحرى أن يطلب فيه الإحسان.

ويدخل فيه الإحسان إلى الحيوان كما في حديث المرأة البغي التي سقت كلبًا فغفر الله لها وكما في هذا الحديث، وجماع القول في معنى الإحسان: أنه إيصال النفع، ودفع الضر، وكف الأذى.

«على كل شيء» أي؛ إلى كل شيء، أو في كل شيء وما من شعبة من شعب الإيمان ولا ركن من أركان الإسلام إلا وقد قرن به إحسان لائق بدليل عموم كل شيء في الحديث.

والأمر بالإحسان: تارة يكون للوجوب، كالإحسان إلى الوالدين والأرحام بمقدار ما يحصل به البر والصلة، والإحسان إلى الضيف بقدر ما يحصل به قراه. وتارة يكون لندب كصدقة التطوع ونحوها وحينئذ فهذا الحديث نص في وجوب الإحسان.

وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال، لكن إحسان كل شيء بحسبه، فالإحسان في الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنة: الإتيان بها على وجه كمال واجباتها، فهذا القدر من الإحسان فيها واجب، وأما الإحسان فيها بإكمال مستحباتها فليس بواجب.

والإحسان في ترك المحرمات: الانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، فهذا القدر من الإحسان فيها واجب.

وأما الإحسان في الصبر على المقدورات: فأن يأتي بالصبر عليها على وجهه، من غير تسخط ولا جزع.

والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم: القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كله.

والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم، القيام بواجبات الولاية كلها، والقدر الزائدة على الواجب في ذلك كله إحسان ليس بواجب.

والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب: إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأريحها من غير زيادة في التعذيب: إزهاق نفسه على حاجة إليه، وهذا النوع هو الذي ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث، ولعله ذكره على سبيل المثال، أو لحاجته إلى بيانه في تلك الحال فقال: «فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ».

والقِتلة والذِّبحة بالكسر، أي: الهيئة، والمعنى: أحسنوا هيئة الذبح، وهيئة القتل. وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه.

ومعنى إحسان القتلة: أن يجتهد في ذلك ولا يقصد التعذيب، ثم ذكر النبي ﷺ الأمثلة للإحسان، والمراد بالإحسان تقديم الخير للغير.

وإحسان الذبح في البهائم: أن يرفق بالبهيمة، وأن يوجهها إلى القبلة، ويسمي ويكبر ويقطع الحلقوم والودجين ولا يسلخها حتى تبرد.

وفي الحديث الآخر: عن ابن عباس بأن النبي ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**» [رواه مسلم] أي يرمون إليه في المفاضلة.

وفي الحديث الآخر عن النبي ﷺ: «**إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا، فإن الله محسن يحب المحسنين**».

وقد حكى ابن حزمٍ الإجماع على وجوب الإحسان في الذبيحة.

ثم ذكر ﷺ صورًا من صور الإحسان، وهو إلى الحيوان، فقال:

«إذ قتلتم» أي أردتم قتل من يجوز قتله هذا حين القتل من بني آدم، أو مما يباح قتله، أو يسن من الحيوانات من وحوش وغيرها.

«فإذا قتلتم فاحسنوا القتلة» فأحسنوا القتل في كل قتيل، حدًا وقصاصًا. والمعنى أن لا يقصد التعذيب للمقتول.

«وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» بكسر الذال، وهي هيئة الذبح. وهو الرفق بالبهيمة عند الذبح.

قال الإمام أحمد: (ما أبهمت عليه البهائم فلم تبهم أنها تعرف ربها، وتعرف أنها تموت).

«وليحد أحدكم شفرته» أي؛ يحد السكين وجعلها سريعة القطع.

«وليرح ذبيحته» وذلك بعرض الماء عليها قبل ذبحها لتشرب، وأن يسوقها على موضع الذبح برفق، وأن يضجعها بمكان سهل غير وعر، وأن يجعل إمرار السكين عليها بقوة ليسرع موتها فتستريح من ألمه.

روى أبو سعيد المزري قال: (أمر رسول الله ﷺ برجل وهو يجر شاة بأذنها فقال رسول الله ﷺ: **«دع أذنها وخذ بسالفتها»** يعني بمقدم عنقها) [رواه ابن ماجة]. وذلك بإمرار السكين على عنق الحيوان بسرعة لترتاح الذبيحة وتزهق نفسها بسرعة.

وفي الحديث: مشروعية الرفق بالحيوان والإحسان إليه، ولهذا أورده المؤلف في باب الحلم والأناه والرفق.

وإحسان الذبح في البهائم أن يرفق بالبهيمة، ولا يصرعها بغتـه، ولا يجرهـا مـن موضـع إلـى موضـع، وأن يوجههـا إلـى القبلـة، ويسـمي ويجهـد ويقطـع الحلقـوم والـودجين، ولا يـذبحها بحضـرة أخـرى ويتركها إلى أن تبرد، والاعتراف لله تعالى والمنة والشكر على نعمه، فإنه سبحانه سخرلها مـا لـو شـاء لسلطه علينا، وأباح لنا ما لوشاء لحرمه علينا.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالوا: «مرّ رسول الله ﷺ برجل واضع رجلـه على صفحة شاة وهو يحد شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «**هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها؟ تريد أن تميتها موتات؟**»».

وقد خلق الله لنا الأنعام لفوائد عظيمة كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴾ [النحل: ٥: ٨].

وروى مسلم في صحيحه أنه ﷺ سئل: قالوا: يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ فقال: «**في كل كبد رطبة أجر**» [رواه مسلم] وفي سنن أبي داود عن سهل بن الحنظلة قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه أي من الجوع فقال: «**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها وكلوها صالحة**».

وفي الحديث دلالة ظاهرة على مشروعية الرحمة والرفق بالحيوان، وقد ورد في السنة أحاديث كثيرة تدل على فضل رحمة الحيوان والإحسان إليه وإن ذلك سبب لدخول الجنة.

في مسند الإمام أحمد عن قرة: أن رجلًا قال النبي ﷺ: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال النبي ﷺ: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**» وقال مطرف: «إن ا لله ليرحم برحمة العصفور».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به**» وقد ورد وعيد شديد لمن عذب الحيوان أو تسبب في قتله، قال ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت**» [متفق عليه].

أما الحيوان المؤذي الذي من طبعه الافتراس أو الإفساد فهو هدر لا حرمة له وقد أمر الشارع بقتله، كما في الصحيحين من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم**: «**العقرب والحدأة والغراب والفأرة والكلب العقور**».

وليس من الرفق بالحيوان والرأفة تربية الحيوانات النجسة والعناية بها كالكلاب والخنازير فقد نهى الشارع عن ذلك، في الحديث قال رسول الله ﷺ: «**من اتخذ كلبا إلا كلب ماشية أو صيد أوزرع انتقص من أجره كل يوم قيراط**» وإنما رخص في ذلك إذا كانت المصلحة راجحة كاتخاذه للصيد والزرع والماشية والحراسة.

وفي الحديث: رأفة الله ﷻ بالعباد، وأنه كتب الإحسان على كل شيء. وذلك من كمال الشريعة واشتمالها على كل خير، ومن ذلك حرمة الحيوان، والرفق بالحيوان.

وفيه مشروعية المبادرة بذبح الحيوان الذي يراد ذبحه، ومشروعية الإسراع في تجهيزه وترتيب أمره.

وكما ورد النبي ﷺ عن الإساءة إلى الحيوان في الذبح ورد أيضًا على أحد الحيوانات والذي يؤخذ من بين يدها فيقتل أو يُبعد.

جاء في الحديث كما عند ابن ماجة أن النبي ﷺ قال: «**لعن الله من فرق بين الوالدة وولدها، والأخ وأخيه**».

وجاء في الحديث الآخر عند الترمذي قوله ﷺ: «**من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة**».

وروى الحاكم أيضًا قوله ﷺ: «**ملعون من فرق بين والدة وولدها**».

وعن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها**» ورأى ﷺ قرية نمل قد حرقناها فقال: «**من حرق هذه؟**» قلنا: نحن. قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**» [رواه أبوداود].

فاتقوا الله عباد الله وارحموا ما تحت أيديكم، فإن دينكم دين الرحمة بكل صورها وأشكالها وقد بعث الله ﷻ نبينا محمدًا ﷺ بالرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٩] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث في هذا الباب.

ومن فوائد الحديث: رأفة الله ﷻ بعباده.

وفيه: الحث على الإحسان في كل شيء.

وفيه: وجوب حد الشفرة؛ لأن ذلك أسهل للذبيحة.

الحديث الثامن عشر

راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل معاذ بن جبل، إمام العلماء والفقهاء في عهد النبي ﷺ وبعده، قال عنه ﷺ: «**إنه يجيء يوم القيامة امام العلماء برتوة**» يعني بخطوة، دليلًا على فقهه رضي الله عنه ومعرفته للحلال والحرام، وقد أقسم ﷺ أنه يحبه، قال له مرة وهو يردفه -وراءه- على الدابة: «**يا معاذ والله إني لأحبك**».

وفي هذا الحديث روى الترمذي عَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدَبِ بْنِ جُنَادَةَ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنهما، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

هذه وصية عظيمة جامعة لحقوق الله تعالى وحقوق عباده.

وقوله ﷺ من جوامع الكلم، فإن التقوى وإن قل لفظها إلا أنها كلمة جامعة لحقوق الله تعالى ولحقوق عباده.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

وجاء الأمر بتقوى النار كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

وجاء الأمر باتقاء يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

قوله ﷺ: «اتق الله» أي اتخذ وقاية من عذاب الله ﷻ، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه، قالها لمعاذ وهو صاحب دين، لأن العبد لا يخلو من تقصير في حق الله وحق العباد.

قوله: ﷺ: «اتق الله حيثما كنت» أي: في السر والعلانية. حيث يراك الناس وحيث لا يرونك اكتفاء بنظرة الله تعالى.

وفي حديث أبي الطفيل عن معاذ قال له: استحِ من الله استحياء رجلٍ ذي هيبة من قومك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: (زهدنا الله وإياكم في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته).

وقد امتثل معاذ رضي الله عنه هذه الوصية، وكان عمر قد بعثه على عمل فقدم وليس معه شيء، فعاتبته امرأته، فقال كان معي ضاغط يمنعني

من أخذ شيء، وإنما أراد معاذ ربه ﷻ فظنت امرأته أن عمر بعث معه رقيبًا فقامت تشكو إلى الناس.

وتقوى الله في السر علامة على كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في انشراح الصدر ونور الوجه وراحة البال، وإلقاء الله لصاحبه الثناء والمحبة في قلوب المؤمنين، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله ردائها علانية إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشر».

وقال سليم التيمي: (إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته).

وتقوى الله تعالى: طاعته بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

والوصية بتقوى الله: هي وصية الله للأولين والآخرين والنبيين والمؤمنين والناس أجمعين، وهي تتضمن الوصية بفعل كل طاعة، وترك كل معصية. وكذلك الوصية بإتباع الحسنة للسيئة؛ والحسنة هي الطاعة، والسيئة هي المعصية، والحسنات يذهبن السيئات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

قال طلق بن حبيب: (التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ

ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وكتب عمر إلى ابنه عبد الله:

«**أما بعد**: فإني أوصيك بتقوى الله ﷻ فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك».

واستعمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلًا على سرية فقال له: (أوصيك بتقوى الله الذي لابد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة).

وقيل لرجل من التابعين عند موته: أوصنا فقال: (أوصيكم بخاتمة سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]).

وقال شعبة: كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم: ألك حاجة؟ فقال: أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**».

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

قوله ﷺ: «واتبع السيئة الحسنة تمحها» لما كان العبد مأمورًا بالتقوى في السر والعلانية مع أنه لابد أن يقع منه أحيانًا تفريط في التقوى، إما بترك بعض المأمورات أو بارتكاب بعض المحظورات، فأمر أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة وهو أن يتبعها بالحسنة قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. وقد حمل جمهور العلماء الحديث على الصغائر، قالوا لأن الكبائر لابد لها من توبة. وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

قال شيخ الإسلام: (أن الموضوع الآن في الحديث هو الكلام على تكفير السيئات، ومحو الذنوب والأوزار، ولذلك قدم ذكرها؛ لأنه هو المطلوب هو المقصود «اتبع السيئة الحسنة تمحها»).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: (أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فسكت النبي ﷺ حتى نزلت هذه الآية فدعاه فقرأها عليه، فقال رجل هذا له خاصة؟ قال: **«بل للناس عامة»**).

وللخطايا مكفرات دلت النصوص الشرعية على كثرتها وتنوعها منها:

أحدها: الوضوء: قال ﷺ: «**من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره**» [رواه مسلم].

والثاني: الصلاة قال ﷺ: «**أرايتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من** درنه شيء. قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**» [متفق عليه].

ومنها الصوم: قال رسول ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه**» [متفق عليه].

ومن ذلك أيضًا الحج والعمرة، والصدقة والذكر، والصبر على المصائب وغيرها ولله الحمد والمنة، ومن أعظمها وأهمها التوبة قال تعالى عن الكفار: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وفي الحديث: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»

قوله ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن». هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به. وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيرًا من الناس يظن أن التوقى هي القيام بحق الله دون حقوق العباد، فنص له على الأمر بإحسان العشرة للناس.

قال ابن المبارك: «هو بسط الوجه. وبذلك المعروف، وكف الأذى».

وقال النبي ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**» [رواه أحمد]. وقال ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» [رواه أبو داود] وقال ﷺ: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**» [رواه الترمذي].

وأخبر ﷺ أن حسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان، وأن صاحبه أحب الناس إلى الله وأقربهم من النبيين مجلسًا، قال ﷺ: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**» [رواه أحمد].

والتخلق بالأخلاق الحسنة من خصال التقوى الذي لا تتم إلا به، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال بعضهم: «ثلاثة أشياء عزيزة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الخلق مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة».

وقال رسول الله ﷺ لعقبة بن عامر رضي الله عنه في الحديث المرفوع: «**يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**».

وقد وصف الله عز وجل المتقين في كتابه بمثل ما وصى به النبي ﷺ في هذا الحديث. فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

وفي الحديث رأفة الله بالعباد وأنه قد محى عن العباد سيئاتهم بسبب ما يفعلونه من الحسنات بعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقد انتظم في هذا الحديث العظيم ثلاثة أشياء:

الأول: معاملة العبد مع ربه وكيف تكون، وقد جاءت في قوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت».

والثاني: معاملة العبد لنفسه إذا قصرت في جنب الله، وقد جاءت في قوله ﷺ: «واتبع السيئة الحسنة تمحها».

والثالث: معاملة العبد مع الناس وكيف تكون، وقد جاءت في قوله ﷺ: **«وخالق الناس بخلق حسن»**.

وقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تبين فضل التقوى، ومنها:

الأول: الجنة يرثها المتقون، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم:٦٣].

الثاني: التقوى سبب لمحبة الله للعبد، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

الثالث: فتح بركات السموات والأرض للمتقين قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الرابع: معية الله مع المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

الخامس: تيسير الأمور في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

السادس: التقوى خير زاد في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

السابع: العاقبة الطيبة في الدنيا والآخرة للمتقين، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وفي الحديث: وجوب تقوى الله ﷻ حيثما كان الإنسان.

وفيه: أن الحسنات يذهبن السيئات.

وفيه: رحمة الله وفضله على عباده.

وفيه: الحث على مخالقة الناس بالخلق الحسن.

الحديث التاسع عشر

روى الترمذي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كُنْت خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامِ! إنِّي أُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْك، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَك، إذَا سَأَلْت فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاَللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوك بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوك إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَك، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوك بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوك إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْك؛ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».

وفي رواية غيرِ التِّرْمِذيِّ: «احفظَ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى الله في الرَّخَاءِ يعرِفْكَ في الشِّدةِ، واعْلَمْ أَنّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَك، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُن لِيُخْطِئَكَ واعْلَمْ أنّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْب، وأَنَّ مَعَ الْعُسرِ يُسْرًا».

هذا الحديث أصل عظيم في مراقبة الله، ومراعاة حقوقه، وحفظ حدوده، والتفويض لأمره، والتوكل عليه، وشهود توحيده ومننه، وعجز الخلائق كلهم وافتقارهم إليه. ومن أعظم ما يجب حفظه من

أوامر الله بعد توحيده وإفراده بالعبادة؛ الصلاة، وقد أمر الله ـ تعالى ـ بالمحافظة عليها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٤-٣٥] وبقية أركان الإسلام.

فإن من لازم ذلك حفظه الله في نفسه وأهله، ودنياه ومماته، وكذلك حفظه في دينه وإيمانه، فحفظه من الشبهات المضلة، والشهوات المحرقة؛ فإن الجزاء من جنس العمل. وقد أمر ﷻ بالبعد عما يغضبه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وقال النبي ﷺ: «**من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة**». وقال ﷻ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وبقدر حفظ العبد لحدود الله ـ تعالى ـ ينال حفظ الله ومعيته، وبهذا حفظ الله إبراهيم عليه السلام من النار التي أوقدت وألقي فيها، وأخرج يوسف من الجب؛ وصرف عنه السوء والفحشاء عندما راودته امرأة العزيز، وحمى ـ سبحانه ـ موسى من الغرق وهو رضيع، وحفظ الله حق اليتمين لصلاح والدهما.

قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك»: أي: احفظ حدوده وحقوقه، وأوامره ونواهيه، وطاعته ومراقبته.

«يحفظك» الله ﷻ في نفسك ومالك وأهلك يحفظك في أمور دينك ودنياك. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، ومن حفظ الله للعبد في أموره الأخروية أن يحفظه من تسليط الشياطين عليه ومن الشبهات المضلة، والشهوات المحرمة وأن يحفظه وينجيه من عذاب النار.

ويكون حفظ الله للعبد في الدنيا بحفظه لمصالحه الدنيوية وحفظ بدنه وولده وأهله وماله، ويوفقه في أمور الدنيا، ويحفظه من الأمراض والأسقام والآفات، ويحفظه في ذريته وقرابته وما يحب، وقد حفظ الله مال اليتيمين بصلاح أبوهما. قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢].

وقال تعالى: ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٢-٣٥].

قال بعض السلف: (من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه والله غنيّ عنه).

وقال بعضهم: (من حفظ الله في صباه وقوّته، حفظه الله في كبره وضعف قوته).

ومن حفظ الله للعبد ولطفه به ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه: (إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له فينظر الله إليه فيقول للملائكة اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير بقوله: سبني فلان، وأهانني فلان وما هو إلا فضل الله عز وجل).

وعند الطبراني من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل: **إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر وإن بسطت عليه أفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من يطلب بابا من العبادة فأكفه عنه لكيلا يدخله العجب، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم إني عليم خبير**».

وفي الجملة فالله ﷻ يحفظ على المؤمن الحافظ لحدوده دينه، ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون كارهًا له كما قال تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

وفي قوله ﷺ: «احفظ الله تجده تجاهك. **وفي رواية: أمامك**» معناه أن من حفظ حدود الله ورعى حقوقه، وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه، يحوطه وينصره، ويحفظه ويوفقه ويسدده حيث كان فيأنس به ويستغني به عن خلقه، وخص الأمام من بين بقية الجهات الست؛ إشعارًا بشرف المقصد وبأن الإنسان مسافر إلى الآخرة غير مقيم في الدنيا، والمسافر إنما يتطلب أمامه. فهو تعالى الحافظ النافع الضار بيده مقاليد الأمور سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨] وهذه معية خاصة، وأما المعية العامة فهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

كتب بعض السلف إلى أخ له: (أما بعد، فإن كان الله معك فمن تخاف، وإن كان عليك فمن ترجو؟).

قوله ﷺ: «إذا سألت فسأل الله» أي؛ إذا دعوت، فسؤال الله تعالى دعاؤه والرغبة إليه، والدعاء مخ العبادة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. فتضمن قوله: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»، أي؛ أن يسأل الله ﷻ ولا يسأل غيره، وأن يستعان بالله دون غيره. وأن لا يتخذ إلهًا سواه ولا يتعلق بغيره في جميع أموره ما قل منها وما كثر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قال النبي ﷺ: «**سلوا الله من فضله؛ فإن الله يحب أن يُسأل**» [رواه الترمذي].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن بني فلان أغاروا عليَّ فذهبوا بابني وإبلي، فقال له النبي ﷺ: «**إن آل محمد كذا وكذا أهل بيت، مالهم مد من طعام فاسأل الله** ﷻ» فرجع إلى امرأته وقالت ما قال لك؟ فأخبرها فقالت: نعم ما رد عليك، فما لبث أن رد الله عليه ابنه وإبله أوفر ما كانت،

فأتى النبي ﷺ فأخبره فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، فأمر الناس بمسألة الله ﷻ والرغبة إليه، وقرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢] فالله سبحانه وتعالى يحب أن يسأل، ويغضب على من لا يسأله، والمخلوق بخلاف ذلك. قال بعضهم:

والله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يُسأل يغضب

وقال طاوس لعطاء: (إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونها حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك).

وفي الحديث قوله ﷺ: «وإذا استعنت فاستعن بالله» أي؛ طلبت المعونة فاستعن بالله ﷻ واطلب العون منه، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في أمور دينه ودنياه، وهو معنى قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله أي: لا تحوّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله. وقال النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**» فهو الذي بيده ملكوت السموات والأرض. هذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال ابن دقيق العيد: (وقوله ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» أرشده إلى التوكل على مولاه، وأن لا يتخذ ربًّا سواه، ولا يتعلق بغيره في جميع أموره ما قل منها وما كثر. وفيه تحقيق التوحيد بالاستغناء بالله عن خلقه، بترك سؤالهم وترك الاستعانه بهم وصرف ذلك لله وحده، فينزل العبد حوائجه بربه ويطلب العون منه).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] فبقدر ما يركن الشخص إلى غير الله تعالى بطلبه أو بقلبه أو بأمله فقد أعرض عن ربه بمن لا يضره ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله، وقد أكد النبي ﷺ ذلك فقال: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» فهو النافع الضار، بيده مقاليد الأمور سبحانه وتعالى وهذا هو الإيمان بالقدر، والإيمان بالقدر يهون المصيبة ويعين على الصبر، ويمنع من الاعتماد على الأسباب.

قوله ﷺ: «رفعت الأقلام» أي تركت الكتابة بها لفراغ الأمر «وجفت الصحف»، وفي رواية: جف القلم بما هو كائن» هذا كناية

عن تقدم كتابة المقادير والفراغ منها. قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عباده بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له اكتب فكتب في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**».

وفي الحديث قوله ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» هذه معرفة خاصة، فمن اتقى الله وحفظ حدوده في حال رخائه وصحته وأمنه وغناه عرفه ربه في حال شدته، فأجاب دعاءه ونجاه من الشدائد. ومن اتقى الله في الرخاء، وقاه الله ما يكره، ويسر أموره، وهون عليه الشدائد وكشف غمه، ونفس كربته.

وقال النبي ﷺ كما روى ذلك الترمذي: «**من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء**». أي؛ رخاء الحياة كالصحة والغنى والأمن.

وقال الضحاك بن قيس: (اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس عليه السلام كان يذكر الله تعالى، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفات: ١٤٣، ١٤٤]، وإن فرعون كان طاغيًا ناسيًا لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: آمنت، فقال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. قال: «ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة».

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي الحديث قوله ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر» وفي رواية: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا». وفيه البشارة بالنصر إذا تحقق الصبر، وبالفرج إذا اشتد الكرب وأن العسر لا يدوم بل يعقبه يسر، بل يسران كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦].

والمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب له حالتان: الحالة الأولى؛ الصبر وهو واجب. والثانية؛ الرضا وهو مستحب وهي الدرجة العالية، والصبر كف النفس وحبسها عن السخط، والرضا: انشراح الصدر بالقضاء.

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم).

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾ [النحل: ٩٧]».

قال بعض السلف: (الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]).

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن. وقوله ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر». موافق لقول الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال بعض السلف: (كلنا يكره الموت وألم الجراح ولكن نتفاضل بالصبر). وقال إبراهيم بن علقمة لقوم جاءوا من الغزو: (قد جئتم من الجهاد الأصغر فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب).

وقوله ﷺ: «وأن الفرج مع الكرب» وهذا من لطف الله ﷻ بعباده إذ يأتي بالفرج وهو السعة وانكشاف الشدة بعد الكرب، وباليسر بعد العسر. وفيه الإرشاد إلى حسن الظن بالله، وانتظار الفرج واليسر عند الكرب والعسر، وترك القنوط من رحمة الله، يشهد لذلك قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]. وقول النبي ﷺ: «**يضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره**». وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ

وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قوله ﷺ: «وأن مع العسر يسرًا» هذا منتزع من قوله تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧]. وقوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح: ٥، ٦]. ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر، إن الكرب إذا اشتد وتناهى أيس العبد من جميع المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو التوكل على الله، وهو من أعظم ما تطلب به الحوائج، ومن توكل على الله كفاه.

وجاء في الحديث المرفوع: «**لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه**».

قال الفضيل: (والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك كل ما تريد).

هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة. وقواعد كلية من أهم أمور الدين، وهو أصل في الإيمان بالشرع والقدر.

وفي الحديث: أن من حفظ حدود الله والتزمها نال الخير كله، وأعظمها معية الله ـ تعالى ـ، وفي الجملة فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه، عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته. وحفظه في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله.

وفيه تحريم سؤال غير الله ـ تعالى ـ مما لا يقدر عليه إلا هو، كالرزق والشفاء، والمغفرة والنصر، وغيرها.

وهذا الحديث أصل عظيم في تربية الصبيان وتوجيههم، وكله يدور على تعلق القلب بالله والالتفات إليه، وقطع الطمع والرجاء في ماعند الناس، وتفويض الأمر إلى الله، وطلب العون من الله ـ تعالى ـ دون غيره.

وفيه: استحباب تعليم ناشئة المسلمين حتى ينشأوا على الخوف من الله والطمع فيما عنده، وكذلك ملاطفتهم ونصحهم وتوجيه النصيحة لهم.

وفي الحديث: بيان أن الأقلام رفعت وأن الصحف جفت، وهو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها.

وعلى المسلم أن يعلم أن النصر مع الصبر، مع الإيمان بالقضاء والقدر وأن «**ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطاك لم يكن لصيبك**» فذلك يكون فيه تسلية له عند المصائب.

وفي الحديث: بشارات؛ أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن اليسر مع العسر.

وفيه: حسن تربية الصغار وتعليمهم ما ينفعهم.

وفيه: البشارة العظيمة للصابرين، وأن النصر مقارن للصبر.

الحديث العشرون

الحياء خلق الإسلام والمسلمين، وهو من أجمع شعب الإيمان، فإذا اتصف الإنسان بالحياء من الله الذي يراه ويسمعه ويعلم ما يكنه ضميره، فعل جميع الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات، وإذا استحيا من الناس لم يواجههم بما يكرهون مما يخل بالدين والأدب والشرف والمروءة، وإذا استحيا من نفسه حاسبها فيما يصدر منه من الأقوال والأفعال وأخذها على الحق وموافقة الشرع.

روى البخاري عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْت».

الحياء من شعب الإيمان، وهو عمل قلبي يبعث العبد على فعل الجميل وترك القبيح من منكر ودنيء.

وهذا الحديث أصل في الحياء. وهو سبيل المؤمنين وطريق الأنبياء والمرسلين. وفيه عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن مما أدرك الناس» أي؛ مما وصل إليهم.

«من كلام النبوة الأولى» أي؛ أن هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين قبل نبينا محمد ﷺ. وأن الناس تداولوه بينهم، وتوارثوه عنهم قرنًا بعد قرن، واشتهر بين الناس حتى وصل إلى أول هذه الأمة.

وشرع من قبلنا على قسمين:

القسم الأول: ما نقل بواسطة الأمم السابقة فمثل هذا لا يحتج به ولا يصح أن يبنى عليه أي حكم شرعي، وذلك لعدم الثقة بالناقلين.

القسم الثاني: ما نقل بواسطة شرعنا إما في الكتاب أو في السنة، فمنه ما ورد تقريره وإثبات حكمه ومنه منسوخ لا يحكم به.

قوله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» قيل: إذا أردت فعل شيء، فإن كان مما لا يستحى فيه من الله ولا من الناس لإباحته فافعل وإلا فلا، فالأمر للإباحة.

وقيل: أنه أمر بمعنى التهديد والوعيد. والمراد؛ إذا لم يكن حياء، فأعمل ما شئت، فإن الله يجازيك على ما صنعت.

وقيل: أنه أمر بمعنى الخبر. والمراد: أن من لم يستح صنع ما شاء؛ فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء، فمن لم يكن له حياء انهمك في كل فحشاء ومنكر.

قوله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» تهديد ووعيد، كقوله

تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. وفي بعض الآثار: «إذا أبغض الله عبدًا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا بغيضًا مبغضًا». لأن عدم الحياء يوجب الاستهتار والانهماك في هتك الأستار.

قال المظهر: (معناه؛ اتفاق كلام الأنبياء، عليهم السلام على استحسان الحياء؛ فما من نبي إلا وقد ندب إليه، وبعث عليه، ولم يُنسخ فيما نسخ من شرائعهم، ولم يبدل فيما بدل منها: وذلك أنه أمر قد علم صوابه، وبان فضله، واتفقت العقول على حسنه، وما كان هذا صفته، لم يجز عليه النسخ والتبديل).

وعن ابن عباس قال: (الحياء والإيمان في قرن فإذا نزع أحدهما تبعه الآخر).

قال التوربشتي: (المعنى: أن مما بقي بين الناس فأدركوه من كلام الأنبياء).

وقال القاضي: (أي؛ مما بلغ الناس من كلام الأنبياء المتقدمين أن الحياء هو المانع عن اقتراف القبائح، واشتغال بمنهيات الشرع ومستهجنات العقل، فمن لم يستحي من الله، ولا من الخلق، كان مطلقًا خليع العذار، لا وازع له، ولا مانع من أن يفعل ما شاء).

وقال يحيى بن جعده: (إذا رأيت الرجل قليل الحياء فاعلم أنه

مدخول في نسبه).

وعن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن الله إذا أراد بعبد هلاكًا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء، لم تلقه إلا مقيتا ممقتا، فإذا كان مقيتا ممقتا، نزع منه الأمانة، فلم تلقه إلا خائنا مخونا، فإذا كان خائنًا مخونًا نزع منه الرحمة، فلم تلقه إلا فظًا غليظًا، نزع ربق الإيمان من عنقه، فإذا نزع ربق الإيمان من عنقه لم تلقه إلا شيطانًا لعينا ملعنا».

وقد جعل النبي ﷺ الحياء من الإيمان، في الصحيحين عن ابن عمر أن النبي ﷺ مرّ على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء يقول: إنك تستحي كأنه يقول قد أضرّ بك. فقال رسول الله ﷺ: «**دعه فإن الحياء من الإيمان**».

والحياء نوعان:

أحدهما: ما كان خُلقًا وجبلة غير مكتسب، وهو من أجلّ الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليها.

الثاني: ما كان مكتسبًا من معرفة الله، ومعرفة عظمته وقربه من عباده، واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهذا من أعلى خصال الإيمان بل هو من أعلى درجات الإحسان.

والحياء خلق محمود إلا إذا منع ما يجب كمن يمنعه الحياء من أن

ينكر المنكر مع وجوبه فهذا حياء مذموم، أو وقع فيما يحرم.

وقد يتولد الحياء من الله من مطالعة نعمه ورؤية التقصير في شكره، فإذا سُلب العبد الحياء المكتسب والغريزي ليم يبق له ما يمنعه من ارتكاب القبيح والأخلاق الدنيئة، فصار كأنه لا إيمان له.

والحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بالحقوق ليس حياء شرعيًا بل هو عجز ومهانة، فالحياء الذي يؤدي بصاحبه في التقصير في حقوق الله، فيعبد الله على جهل ولا يسأل عن دينه، أولا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر فهو من الحياء المذموم.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ قال: «**الحياء شعبة من الإيمان**» وفي الصحيحين عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**» وفي رواية لمسلم قال: «**الحياء خير كله**» أو قال: «**الحياء كله خير**».

فالحياء يكف صاحبه عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها.

قال بعض السلف: (رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة فاستحالت ديانة).

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: «**الاستحياء من الله أن**

تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحى من الله» [رواه أحمد والترمذي].

قال ابن القيم: (خلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه، فليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء).

وروى عبد الغني بن سعيد في كتاب أدب المحدث عن حرملة بن عبد الله قال: «أتيت النبي ﷺ لأزداد من العلم، فقمت بين يديه، فقلت: يا رسول الله ما تأمرني أن أعمل به؟ قال: **«ائت المعروف، واجتنب المنكر، وانظر الذي سمعته أذنك من الخير الذي يقوله القوم لك إذا قمت من عندهم فأته، وانظر الذي تكره أن يقوله القوم لك إذا قمت من عندهم فاجتنبه»**، قال: فنظرت فإذا هما أمران لم يتركا شيئًا: إتيان المعروف، واجتناب المنكر».

وحقيقة الحياء: خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق.

وقد قسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جناية، وحياء تقصير،

وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه. فأما:

١- **حياء الجناية:** فمنه حياء آدم عليه السلام لما فر هاربًا في الجنة. قال تعالى: «**أفرارًا مني يا آدم؟** قال: **لا يا رب. بل حياء منك**».

٢- **وحياء التقصير:** كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة، قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

٣- **وحياء الإجلال:** هو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

٤- **وحياء الكرم:** كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطوَّلوا الجلوس عنده. فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.

٥- **وحياء الحشمة:** كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

٦- **وحياء الاستحقار، واستصغار النفس:** كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها، وفي أثر إسرائيل: «**إن موسى** عليه السلام **قال: يا رب، إنه لتعرض لي الحاجة من**

الدنيا، فأستحيي أن أسألك هي يا رب، فقال الله تعالى: سلني حتى ملح عجينتك، وعلف شاتك».

وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحقار السائل لنفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسؤوله.

٧- **وأما حياء المحبه**: فهو حياء الحب من محبوبة، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه ولا يدري ما سببه؛ وكذلك يعرض للمحب عند ملا قاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة.

وأما الحياء الذي يعتيريه منه، وإن كان قادرًا عليه-كأمته وزوجته- فسببه- والله أعلم- أن هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيبته واحتشامه، فتولد منها الحياء. وأما حصول ذلك له في غيبة المحبوب، فظاهر لا ستيلائه على قلبه، فوهمه يغالطه عليه ويكابره، حتى كأنه معه.

٨- **وأما حياء العبودية**: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها؛ فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

٩- **وأما حياء الشرف والعزة**: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا

صدر منها ما هو دون قدرها من بذلك أو عطاء وإحسان. فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة. وهذا له سببان.

أحدهم: هذا. والثاني: استحياؤه من الآخذ حتى كأنه هو الآخذ السائل. حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه، وهذا يدخل في حياء منه، وهذا يدخل في حياء التلوم لأنه يستحي من خجلة الآخذ.

١٠ - **وأما حياء المرء من نفسه**: فهو حياء النفوس الشريفة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون؛ فيجد نفسه مستحيًا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحداهما من الأخرى وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيى من نفسه؛ فهو بأن يستحيى من غيره أجدر.

والحياء أحد الفروع في شجرة الإيمان العظيمة، التي جاء بها الإسلام.

قال أبو حاتم: «إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه؛ ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على الناس ومقت، ومن مقت أو ذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن فقد عقله، ومن أصيب في عقله كان أكثر قوله عليه لا له، ولا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا

إخاء له، ومن قلَّ حياؤه صنع ما شاء، وقال ما أحب».

وفي الحديث: أن الأمر بالحياء مأثور عن الأنبياء والمتقدمين.

وفيه: أن الحياء من خصائص الإنسان التي حباها الله إياه ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهي فلا يكون كالبهيمة.

الحديث الواحد والعشرون

الصراط المستقيم، صراط الله سبحانه وتعالى، وهو الذي ندعوا الله ﷻ في كل صلاة أن يهدينا إليه ويثبتنا عليه، فإن من استقام على الصراط المستقيم وأدى ما افترض الله عليه وترك ما نهى عنه ولزم طاعته، ورجا ثوابه، وخاف عقابه؛ كان من الناجين برحمة الله تعالى.

وفي هذا الحديث الذي رواه مسلم عَنْ أَبِي عَمْرٍو وَقِيلَ: أَبِي عَمْرَةَ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَك؛ قَالَ: قُلْ: آمَنْت بِاَللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ».

وقد حرص الصحابة على سؤال النبي ﷺ فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وفي هذا الحديث: سُئل سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النبي ﷺ عن قول جامع لمعاني الدين، واضحًا في نفسه بحيث لا يحتاج إلى تفسير ومزيد إيضاح.

في الحديث «قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام» أي في دينه وشرعة «قولًا» جامعًا لمعاني الدين، واضحًا في نفسه بحيث لا يحتاج إلى تفسير غيرك أعمل عليه وأكتفي به بحيث «لا أسأل» ولا

يحوجني لما اشتمل عليه من بديع الإحاطة والشمول، ونهاية الإيضاح والظهور على أن أسأل «عنه احدًا غيرك».

فقال ﷺ كلامًا هو من جوامع الكلم، فأمره بالإيمان، وثمرته العلم والاستقامة على طاعة الله.

قال ﷺ له: «قل: آمنت بالله، ثم استقم» والإيمان بالله: يشمل الإيمان بوجود الله ﷻ، وبربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته.

قال ﷺ: «قل آمنت» أي، جدد إيمانك متذكرًا بقلبك، ذاكرًا بلسانك وفي قوله: «قل آمنت بالله» هذا في القلب لأن محل الإيمان القلب. قال أهل العلم: قول القلب: هو إقراره واعترافه. فقوله: «قل: آمنت» يشمل قول اللسان وقول القلب. أي، جدد إيمانك متذكرًا بقلبك، ذاكرًا بلسانك.

«ثم استقم» على عمل الطاعات والانتهاء عن جميع المخالفات. وهذا في عمل الجوارح.

فالاستقامة: تعني التوسط بين الإفراط والتفريط، وبين التساهل وعدم المبالاة، وبين الغلو والتشدد.

والاستقامة: لزوم ما شرعه الله ﷻ في التوحيد وإخلاص العبادة لله، وفي الآداب والإخلاق والتعامل مع الناس، وفي كل ما يفعله

الإنسان في هذه الدنيا، يكون مستقيمًا على المنهج الصحيح الذي رسمه الله ـ تعالى ـ وبينه رسوله ﷺ، وهذا هو منهج الذين أنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] فالذين أنعم الله عليهم هم: أهل الاستقامة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وهاتان الكلمتان جمعتا الدين كله. فالإيمان بالله يتضمن الإخلاص له في العبادة، والاستقامة تتضمن التمشي مع شريعته ﷻ، فيكون جامعًا لشرطي العبادة وهما: الإخلاص والمتابعة.

قال ابن عباس: عند قوله ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ «أي؛ استقاموا على طاعة الله».

قال ابن رجب: والاستقامة في سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها: الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها. والاستقامة معنى جامع لكل خير. وقد قال النبي ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**» [رواه الإمام أحمد]. وقال ﷺ: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن**

ينجو أحد منكم بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

ومرجع الاستقامة إلى أمرين:

الأول: صحة الإيمان بالله.

الثاني: اتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

قال العلماء: معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى، وقيل: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيمًا في حال سعيه ضاع سعيه وخاب جده. والمقاربة: القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير. والسداد: الاستقامة والإصابة.

قال ابن أبي جمرة: (فيه دلالة على أنه ليس أحد من الخلق يقدر على توفية حق الربوبية، يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في هذا الشأن: (فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معانة عمل شاق إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذوب، وامتناعك ترك وراحة، ليس هو عملًا بالجوارح

يشق عليك معاناته، وإنما هوعزم ونية جارفة تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية).

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة.

وقد وعد الله أهل الاستقامة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت، تبشرهم ألا تخافوا مما أنتم قادمون عليه لأنكم قادمون على رب رحيم وعلى جنات النعيم، ولا تحزنوا على ما تركتم من الأولاد والزوجات الذين تخافون عليهم الضياع، فإن الله حافظهم. وتبشرهم بالجنة عند سكرات الموت.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (استقاموا والله على طاعته، ولم يروغوا روغان الثعلب).

والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم وهو الدين القويم، ويشمل ذلك فعل الطاعات وترك المنهيات، والاستقامة معنى جامع

لكل خير. وقد قال النبي ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**» [رواه أحمد]. وقال ﷺ: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

فإذا كان هو وهو خير البشر لا يقدر على ذلك فالغير أجلى وأولى، وإذا تأملت ذلك من جهة النظر تجده مدركًا حقيقة؛ لأنه إذا طالبنا بشكر النعم التي أنعم علينا عجزنا عنه بالقطع، ومنها ما لا نعرفه كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فكيف غير ذلك من أنواع التكليفات، فما بقي إلا أخبر به الصادق وهو التغمد بالفضل والرحمة.

ومن فوائد الاستقامة؛ نزول الغيث من السماء فينتفع به أهل الأرض من إنسان ودواب وشجر ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦].

وهذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، فإنه جمع لهذا السائل في هاتين الكلمتين معاني الإسلام والإيمان كلها، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [الأحقاف: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [هود: ١١٢].

ومما يعين على الثبات على دين الله والاستقامة على أمره عده عوامل منها:

أولًا: الاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بهما، في الحديث: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمستكم بهما: كتاب الله وسنتي**».

ثانيًا: استدامة الطاعة والمحافظة على النوافل والمستحبات فإنها مما يقرب إلى الله ﷻ بعد اداء العبد للنوافل المفروضة.

ثالثًا: كثرة الدعاء والإلحاح على الله ﷻ وطلب الثبات منه، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» وكان ﷺ يقول: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**».

رابعًا: الالتفاف حول العلماء وطلب العلم، ومرافقة الصالحين والتأسي بالأخيار.

خامسًا: القيام بأعمال الخير ونفع الغير، وعدم احتقار الأعمال وإن كانت يسيرة ففي الحديث: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**».

سادسًا: كثرة ذكر الله ﷻ في كل حين وعلى كل حال ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد أمر الله بالذكر الكثير في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١- ٤٣].

لما كان العبد معرض للزلل والنقص ولابد أن يحصل شيء من التقصير في طريق الإستقامة، أمر الله المستقيمين بالاستغفار فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ﴾ [فصلت: ٦] فالزموا الجادة وحافظوا على الإستقامة واكثروا من الاستغفار.

وكما أن المسلم يحرص على معرفة أسباب الهداية، ويجب عليه أن يكون أحرص على معرفة عوامل الثبات على دين الله، ذلك لأن الثبات على دين الله حتى الممات هو ثمرة الهداية، وهو طريق إلى الجنة برحمة الله، وما أتعس المرء وأقل حظه حين يذوق طعم الإيمان ويسبغ الله عليه الهداية العظمية ثم يترك بعض ذلك لغرق في أوحال الإثم والمعصية، وربما الكبائر والعياذ بالله.

وفي هذا الحديث: وجوب الطاعة حتى الموت كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وفيه: فضيلة الإيمان والاستقامة وعظم أجرهما، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] وقد رود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ثم قال: «**قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن استقام**» [رواه الترمذي].

وفيه: مشروعية ترك الإنسان لاتباع هواه وأن يستجيب لأوامر ربه جل وعلا ويدل على هذا قوله سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥] فدل هذا على أن الاستقامة تكون باتباع الأوامر الشرعية، وأن مما ينافيها اتباع الهوى، وقد قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

والاستقامة مأخوذة من وضع الطريق المستقيم: أن المرء يسير على طريق واضح بإقامة شرائع الدين.

وجاء في المسند أن النبي ﷺ قال: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**» [رواه ابن ماجة].

فالاستقامة تشمل ما في القلب باستمراره على توحيد الله ﷻ، ولهذا قال أبوبكر رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] قال: «لم يلتفتوا على غيره».

الحديث الثاني والعشرون

الجنة أغلى المطالب وأعلى المنازل، سعى إليها الجادون، وشمر إليها الموفقون، ولهذا كان الصحابة ﷺ يسألون عن الطريق ويبحثون عن الجادة الموصلة إليها. وهذا يدل على كمال الحرص والاهتمام بنعيم الجنة واشتغال القلب بهم الآخرة وحسن العاقبة، ووجود هذا في قلب المؤمن علامة على صدق إيمانه وإخلاصه وتعلقه بالله وإيثاره الآخرة على الدنيا الفانية، وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ، وكان رسولنا أشد الناس تعلقًا بالله وزهدًا في الدنيا واشتغالًا بأمر الآخرة، ولذا قال ﷺ: «**مالي وللدنيا وما أنا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**» [رواه الترمذي].

وهذا شرح لحديث من أحاديث كتاب «الأربعون النووية» قال عن الحديث ابن حجر: «هذا الحديث جامع للإسلام؛ أصولًا وفروعًا».

وقال القاضي عياض: «هذا الحديث شمل جميع وظائف الإيمان والسنن».

وراوي الحديث هو الصحابي: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، من أكابر الصحابة، استشهد والده عبد الله في غزوة أحد، كف بصره آخر عمره، وتوفي بالمدينة عن أربع وتسعين سنة.

روى مسلم عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْت إِذَا صَلَّيْت الْمَكْتُوبَاتِ، وَصُمْت رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْت الْحَلَالَ، وَحَرَّمْت الْحَرَامَ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا؛ أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ».

هذا الحديث أصل في حصول النجاة والفوز بالجنة لمن اقتصر على أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وهو المقتصد.

جاء في الحديث قوله: «أرأيت» بمعنى أخبرني وأفتني.

«إذا صليت المكتوبات» أي المفروضات، وهي الصلوات الخمس قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

«وصمت» شهر «رمضان».

ومعنى «حرمت الحرام»: أي أجتنبته معتقدًا حرمته. والحرام يتفاوت، فأعظم ما حرم عزوجل الشرك وترك الصلاة وعقوق الوالدين. ومعنى أحللت الحلال: فعلته معتقدًا حله وفعلت الواجب منه.

وفي قوله «ولم أزد على ذلك شيئًا» محتمل أن يكون أكتفى منه بذلك لقرب عهده بالإسلام، حتى يأنس ويحرص على الخير وتسهل عليه الفرائض، ويحتمل أنه قال له ذلك لأنه لم يتفرغ للنوافل لشُغله بالجهاد أو غيره من أعمال البر.

«أأدخل الجنة؟» أي، من غير عذاب سابق على ذلك، والجنة هي دار المتقين.

قال ﷺ: «نعم» لأنه لم يفعل ما يقتضي عدم دخولها. ولم يذكر في الحديث الزكاة والحج، لعدم فرضهما إذ ذاك، أو لاندراجهما في تحليل الحلال وتحريم الحرام.

وهذا الحديث يدل على أن من قام بالواجبات، وانتهى عن المحرمات دخل الجنة، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وفي الصحيحين «أن أعرابيًّا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال: يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصلاة؟ فقال: «**الصلوات الخمس إلا أن تطوّع شيئًا**». فقال: أخبرني بما فرض الله عليّ من الصيام؟ فقال: «**شهر رمضان إلا أن تطوع شيئًا**». فقال:

أخبرني بما فرض الله عليّ من الزكاة؟ فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام. فقال: والذي بعثك بالحق لا أتطوع شيئًا، ولا أنقص مما فرض الله عليّ شيئًا. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق**».

وخطب النبي ﷺ في حجة الوداع فقال: «**يا أيها الناس: اتقوا الله وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم**» وفي رواية: «**وحجوا بيتكم**»، وإنما لم يذكر الحج والزكاة في هذا الحديث، لأن الزكاة لا تجب إلا على صاحب المال، والحج لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلا، وأما الصلاة والصيام، وتحليل الحلال، وترك الحرام، فواجب على كل أحد.

وإنما ترك النبي ﷺ تنبيهه على السنن والفضائل تسهيلًا وتيسيرًا لقرب عهده بالإسلام لئلا يكون الإكثار من ذلك تنفيرًا له، وعلم إنه إذا تمكن في الإسلام وشرح الله صدره رغب فيما رغب فيه غيره، أو لئلا يعتقد أن السنن والتطوعات واجبة فتركه لذلك.

قال القرطبي: (لم يذكر النبي ﷺ للسائل في هذا الحديث شيئًا من التطوعات على الجملة، وهذا يدل على جواز ترك التطوعات على الجملة، لكن من تركها ولم يعمل شيئًا فقد فوّت على نفسه

ربحًا عظيمًا وثوابًا جسيمًا، ومن داوم على ترك شيء من السنن كان ذلك نقصًا في دينه، وقدحًا في عدالته، فإن كان تركه تهاونًا ورغبة عنها، كان ذلك فسقًا يستحق به ذمًا).

قال العلماء: (لو أن أهل بلدة تواطؤوا على ترك سنة لقوتلوا عليها حتى يرجعوا، ولقد كان صدر الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يثابرون على فعل السنن والفضائل مثابرتهم على الفرائض ولم يكونوا يفرقون بينهما في اغتنام ثوابها).

وإنما احتاج أئمة الفقهاء إلى ذكر الفرق لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها خوف العقاب على الترك ونفيه إن حصل ترك بوجه ما.

ومن ترك النوافل فوت على نفسه ربحًا عظيمًا، وثوابًا واسعًا. كما أن النوافل سبب محبة الله كما جاء في الحديث القدسي: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**» [رواه البخاري].

وكذلك في الحديث الآخر: «أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فأخبره أنها خمس، فقال: هل عليّ غيرها قال صلى الله عليه وسلم: «**لا إلا أن تطوع**»، ثم سأله عن الصوم والحج والشرائع فأجابه، ثمَّ قال في آخر ذلك: وفي رواية: «**إن تمسك بما أمر به دخل الجنة**» [رواه مسلم].

وإنما شرعت النوافل لتتميم الفرائض فهذا السائل والذي قبله، إنما تركهما النبي ﷺ لقرب عهده بالإسلام، وتسهيلًا عليهما إلى أن تنشرح صدورهما بالفهم عنه، والحرص على تحصي المندوبات فيسهل عليهما.

وهذا يسمى بمحافظته على فرائضه وإقامتها والإتيان بها في أوقاته من غير إخلال بها فلاحًا كثير الفلاح والنجاح، كذلك ومن أتى بالفرائض وأتبعها بالنوافل كان أكثر فلاحًا منه.

ومن أكثر من النوافل وأتى بالسنن كان في رتبه السابق بالخيرات، ويدخل في منزلة السابقين بالجنة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

قال ابن عباس: (السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ).

فعلى المؤمن أن يأت بالفرائض والسنن ولا يفرط في فضلهما لتكفر خطاياه وتسد خلله في الفريضة وترفع درجاته في الجنة.

وقد دل الحديث على أن من التزم أداء الفرائض وترك المحرمات دخل الجنة، وأهم الفرائض المباني الكبرى في الدين: الصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الرحم.

في البخاري عن أبي أيوب أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة؟ قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم**».

وكذلك اجتناب الكبائر من أعظم أسباب دخول الجنة كما في النسائي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء، ثم تلا** ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]».

وقد حرص الصحابة ﭫ على سؤال النبي ﷺ، وكان غاية الشيء عندهم دخول الجنة والطريق الموصلة إليها، لا كثرة الأموال، ولا كثرة البنين ولا شيء من ملذات الدنيا، ولهذا لما قضى أحد الصحابة للنبي ﷺ حاجة، قال له النبي ﷺ: «**اسأل ماذا تريد؟**» قال: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «**أو غير ذلك؟**» قال: هو ذاك، قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**» أي بكثرة الصلاة.

في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» [رواه البخاري].

وفي الكتاب المنزل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الحديث: أن أعظم الواجبات على المسلم الصلوات الخمس وأنها أعظم أسباب دخول الجنة بعد الشهادتين، وأن صيام رمضان من أعظم فروض الإسلام.

وفيه: حرص الصحابة على أسباب النجاة وعلو هممهم كما قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، فقال ﷺ: «**لقد سألت عن عظيم**».

وفي الحديث: أن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، فدخول الجنة ليس على سبيل الجزاء المجرد على الأعمال الصالحة، لأن أعمال الإنسان مهما بلغت لا تؤهله لدخول الجنة وإنما تكون سببًا لرحمة الله التي هي الطريق إلى دخول الجنة، كما قال ﷺ: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولاأنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه**» [رواه البخاري ومسلم].

وفي الحديث: حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال.

وفيه: تعليم النبي ﷺ أمته ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وأجعلنا من عبادك الصالحين المتقين ممن تفتح لهم أبواب الجنة.

الحديث الثالث والعشرون

روى مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْحَارِثِ بْنِ عَاصِمٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ - أَوْ: تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا».

هذ الحديث أصل من أصول الإسلام، وأصل من أصول فضائل الأعمال ومنزلتها في الدين، وفيه معاني كلية من معاني الشريعة، وقد اشتمل على مهمات من قواعد الدين، فأمر بالطهارة، ورغب بالذكر الذي تطمئن به القلوب، والصدقة التي نفعها يتعدى للآخرين، والصلاة التي هي أعظم العبادات بعد التوحيد، وأمر بالصبر، وحث على كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ والحرص على قراءته والعمل بما فيه، كما حث على السعي لانقاذ النفس بطاعة الله وسلوك الطريق المستقيم.

وفي الحديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطهور شطر الإيمان». المراد بالطهور هنا التطهر بترك الذنوب والمعاصي والموبقات، وفي الآية ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

«والطهور شطر الإيمان» هو أول ما ابتدأ به النبي ﷺ وصيته، والطهور شطر الصلاة، ومفتاح من مفاتيح أبواب الجنان، ويقصد به الفعل الشرعي الذي يزيل الخبث ويرفع الحدث، ولا تصح الصلاة إلا به، ويشمل أيضًا تطهير الثياب والبدن والمكان.

وفي رواية الترمذي: «**الوضوء شطر الإيمان**»، فالطهور التطهر بالماء من الأحداث، كالوضوء وغسل الجنابة. والطهارة شرط في صحة الصلاة فصارت كالشطر ولا يلزم في الشطر أن يكون نصفًا حقيقيًا.

وفي الحديث الآخر عن النبي ﷺ: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» [رواه مسلم].

فخصال الإيمان قسمان: ظاهرة وباطنة. فالطهور من الخصال الظاهرة، والتوحيد من الخصال الباطنة، فمن طهر باطنه بالتوحيد، وظاهره بالماء فقد استفتح باب الجنة، ولا يدخلها إلا الطاهرون الطيبون، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

ثم انتقل الحديث إلى الترغيب في ذكر الله ﷻ، قال ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله يملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض» هذا شك من الراوي. وما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام.

قوله: «تملأ الميزان» أي: ميزان الحامد لله تعالى، وقد قيل إنه ضرب مثل، وأن المعنى لو كان الحمد جسمًا لملأ الميزان لعظيم أجرها، وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على وزن الأعمال وثقل الموازين وخفتها.

قال الألباني: (وفي الحديث دليل على أن ميزان الأعمال له كفتان مشاهدتان، وأن الأعمال وإن كانت أعراضًا فإنها توزن، والله على كل شيء قدير، وذلك من عقائد أهل السنة).

قال القرطبي: (قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها).

فـ«سبحان الله» تتضمن تنزيه الله عن كل نقص وعيب، و«الحمد لله» تتضمن وصفه بكل كمال. وفي رواية لمسلم والنسائي: «**والتسبيح والتكبير ملء السماء والأرض**».

وللترمذي من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**التسبيح نصف الميزان، والحمد لله يملؤه، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تصل إليه**».

وفي الحديث الآخر: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**» وسبب عظم فضلهما ما اشتملت عليه من التنزيه لله تعالى والافتقار إليه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله اصطفى من الكلام أربعًا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فمن قال: سبحان الله كتبت له عشرون حسنة، وحطت عنه عشرون سيئة، ومن قال: الله أكبر مثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله مثل ذلك، ومن قال: الحمد لله مثل ذلك، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة، وحطت عنه ثلاثون سيئة**».

وفي الحديث قوله ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان» دليل على أن كلمة الحمد لله تملأ الميزان لعظم فضلها ووفرة معناها ودلالتها على ثناء العبد على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأفعاله الجميلة وافتقاره للغني الحميد كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

فهي كلمة جليلة لا يوفق لها في أشد الأحوال إلا من تأله قلبه لله، واستكان له وشاهد جميل آلائه وحسن عادته بعباده، وأدرك عجز نفسه وفقره إلى الله.

قال ابن القيم: (فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه).

والحمد يتضمن إقرار العبد بغنى الله وكماله وافتقاره على هدايته ونعمه، فقلبه موقن أن المنعم والمتفضل هو الله جل جلاله، والله سبحانه يحب المدح، لما ثبت في مسلم: «**ولا أحد أحب إليه المدح من الله**» والحمد لله تعالى يكون بسبب حدوث النعمة وبدونها وهو خاص بآلة اللسان، أما الشكر فمحله عند حدوث النعمة ويكون بالقلب واللسان والجوارح.

وكلمة الحمد مشروعة في جميع الأحوال وتتأكد عند الأكل، وعند النوم والاستيقاظ منه، وعند العطاس، وعند لبس الثوب الجديد، وعند ركوب الدابة، وعند ابتداء الدعاء والموعظة، وعند فقد الوالد، وعند رؤية المبتلى والمكروه، وكل ذلك ورد في السنة.

قوله ﷺ: «والصلاة نور»، لأنها تمنع عن المعاصي وتنهي عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب، كما أن النور يستضاء به،

والصلاة نور لصاحبها في الدنيا وفي القبر ويوم القيامة وعلى الصراط؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢]. ويشمل النور في القلب، والنور في الوجه، ونور الهداية، والنور يوم القيامة.

كما في الحديث الآخر: «**من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة**» [رواه أحمد]. وروى الطبراني عن عبادة بن الصامت مرفوعًا: «**إذا حافظ العبد على صلاته فأقام وضوءها وركوعها وسجودها والقراءة فيها، قالت له حفظك الله كما حفظتني، وصعد بها إلى السماء ولها نور حتى تنتهي إلى الله ﷻ فتشفع لصاحبها**». وهذا الفضل والثواب لصلاة المقيمين لها، والمحافظين عليها، والخاشعين فيها، ومن نقصت صلاته عن الكمال، نقص حظه من هذا الثواب.

ولما ذكر النبي ﷺ الصلاة وهي عبادة بدنية، ذكر الصدقة وهي عبادة مالية، يزكي بها المسلم ماله، ويطهر بها روحه من بخلها وحرصها المال، وهي عبادة نفعها متعد إلى الغير، إذ بها تُسد حاجة الفقير وتشبع جوعته، ويكفل بها اليتيم، وتظهر لحمة المجتمع وتكاتفه.

قوله ﷺ: «والصدقة برهان» أي: دليل واضح بيِّن على صحة إيمان فاعلها وصدقه؛ لأن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها، فمن تصدق استدل بصدقته على قوة إيمانه، وقد قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]. وقد ندب الله ﷻ ورغب في الصدقات ورتب عليها الأجور العظيمة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: «والصبر ضياء» أي الصبر على الطاعات ولو شقت على النفوس، وعن المعاصي ولو مالت إليها النفوس، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا يجزع ولا يتسخط، وحصول ذلك في المسلم يدل على قوة إيمانه ونور بصيرته ولهذا وصف الصبر بأنه ضياء.

قال ابن رجب (الضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق كضياء الشمس بخلاف القمر، فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق). قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. ولما كان الصبر شاقًا على النفوس يحتاج

إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه كان ضياء. لأنه يضيء حياة المؤمن في شدائد الدنيا ويزيل مرارة البلاء عنه، ويزيح عنه الهموم والأحزان ويهديه لصالح العمل عند نزول البلاء. والصبر خير عطاء للمؤمن كما جاء في الحديث: «**وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر**» [رواه البخاري].

وقد بشر الله تعالى الصابرين على أقداره المؤلمة بثلاث بشارات في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥: ١٥٧] والصبر ثلاثة أنواع؛ صبر على طاعة الله ﷻ، وصبر عن معاصي الله ﷻ، وصبر على أقدار الله ﷻ والصيام يجمعها.

قال النووي: (إن الصبر محمود ولا يزال صاحبه مستضيئًا مهتديًا مستمرًا على الصواب).

والصبر جزاءه الجنة، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦] وجزاء الصابرين لا يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف لهم غرفا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

قوله ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك» أي: إن عملت به فهو حجة لك، وإلا فهو حجة عليك. فالقرآن حجة للمؤمنين، وحجة على المكذبين، وهذا الحكم شامل لكل من بلغه القرآن، فهو حجة لمن وقف عند حدوده، وحجة على من تعدى حدوده، وحجة لمن حكم به وحكَّمه، وحجة على من آثر حكم الجاهلية على حكمه. قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من جعل القرآن أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره قاده إلى النار).

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**» وروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**يمثل القرآن يوم القيامة رجلًا فيؤتى بالرجل قد حمله فخالف أمره فيتمثل له خصمًا، فيقول يارب حملته إياي فبئس حاملي، تعدى حدودي، وضيع فرائضي، وركب معصيتي، وترك طاعتي، فما يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال شأنك به، فيأخذه بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار، ويؤتى بالرجل الصالح كان قد حمله فيتمثل خصمًا دونه، فيقول**

يارب حملته إياي، فخير حامل حفظ حدودي، وعمل بفرائضي، واجتنب معصيتي، واتبع طاعتي، فما يزال يقذف له بالحجج حتى يقال: شأنك به، فيأخذه بيده فما يرسله حتى يلبسه حلة الاستبرق، ويعقد عليه تاج الملك، ويسقيه كأس الخمر».

ثم قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» أي: كل إنسان يسعى، فمنهم من يبيع نفسه لله بطاعته له فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى فيوبقها؛ أي: يهلكها. وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. أي: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وخاب من دساها بالمعاصي. فالطاعة تزكي النفس وتطهرها فترتفع، والمعاصي تدسي النفس وتقمعها فتنخفض، وتصير كالذي يُدسى في التراب.

وهذا الحديث مع اختصاره من أجمل جوامع الكلم الذي أوتيه نبينا محمدًا ﷺ ويدل على كمال فصاحته ونصحه، وفيه بيان لحال الإنسان وسعيه وكدحه في الدنيا وهو على حالتين: إما أن يبيع نفسه لطاعة الله ومرضاته بالتزام العمل الصالح ويؤثر علم الآخرة على عمل الدنيا ويقدم محبة الله على محبوبات نفسه، فهذا هو السعيد

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. وأما أن يبيع نفسه للشيطان وهوى النفس وركوب المحرمات فهذا باع نفسه ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قال أبو بكر بن عياش: (قال لي رجل مرة وأنا شاب: خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبدًا، قال فوالله ما نسيتها بعد).

وقال الحسن: (المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله ﷻ).

وقال ابن آدم: (أن تغدو وتروح في طلب الأرباح فليكن همك نفسك فإنك لن تربح مثلها أبدًا).

وقال محمد بن الحنفية: (إن الله ﷻ جعل الجنة ثمنًا لأنفسكم، فلا تبيعوها بغيرها» وقال: (من كرمت نفسه عليه لم يكن للدنيا عنده قدر).

وخصال الإيمان من الأعمال والأقوال تطهر القلب وتزكيه، والطهارة بالماء تطهر البدن وتنظفه، فبهذا صار خصال الإيمان على قسمين: أحدهما يطهر الظاهر، والآخر يطهر الباطن.

وفي الحديث: الحث على الطهور الحسي والمعنوي.

وفيه: فضيلة حمد الله ﷻ والثناء عليه، والجمع بين الحمد والتسبيح.

وفيه: أن الصلاة نور، وأن الصدقة برهان.

وفيه: بيان حال الناس في هذه الدنيا.

الحديث الرابع والعشرون

روى مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي: إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْته، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي! إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي! إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْت كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَته، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا يَنْقُصُ

الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إِلَّا نَفْسَهُ».

هذا حديث جليل شريف، وهو أصل في الدلالة على كمال عدل الرب وغناه، وفقر العباد إليه، وهو من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي ﷺ عن الله ﷻ مما ليس قرآنًا، فلا يقرأ على جهة التعبد، ولا يصح أن يقرأ في الصلاة.

وفي هذا الحديث شرف الله ﷻ أهل الإيمان وأعلى ذكرهم بأن نسبهم إلى نفسه بقوله «**يا عبادي**»، ونزه -تعالى- نفسه عن الظلم وحرمه بين عباده، وبين -تعالى- أن جميع الخلق مفتقرون إليه -سبحانه- في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، وفي جميع أمور دينهم ودنياهم.

وقد جمع الحديث بين حاجات البدن من الطعام والشراب والكسوة، وبين غذاء الروح بالهداية والصلاح والرشاد ولزوم الطريق المستقيم.

و في الحديث ذكر حال العباد، وأنهم يخطئون بالليل والنهار، والله ﷻ يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب واستقام.

وهذه النداءات من الجواد الكريم لمصلحة العباد، فإنه لو اجتمع الجن والإنس على أمر ما استطاعوا لعزة الرب وقدرته. وفيه التنبيه على محاسبة النفس، وتفقُّد الأعمال والندم على الذنوب.

وهذا الحديث القدسي من الأحاديث التي عليها مدار الدين. فقد اشتمل على كثير من قواعد الدين وأصوله، فنص على تحريم الظلم. وبدأ بإرساء قواعد العدل في النفوس وتحريم الظلم والعدوان.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، والله ﷻ نزّه نفسه عن الظلم فهو لا يظلم أحد، لا بزيادة سيئات لم يعملها، ولا بنقص حسنات عملها. بل هو حكم عدل محسن لعباده. فالحسنة عنده بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة.

قال النووي: (الظلم مستحيل منه ـ سبحانه ـ؛ لأنه تصرف في ملك الغير، والعالم كله ملكه وسلطانه، أو مجاوزة الحد، وليس فوقه من يطيعه).

وحرم ﷻ الظلم بين العباد؛ ويكون في ثلاثة أشياء: الدماء، والأموال، والأعراض.

والظلم نوعان: ظلم العبد لنفسه، وأعظمه الشرك بالله ﷻ. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

والنوع الثاني: ظلم الإنسان لغيره بأخذ حقه، أو الاعتداء عليه في بدنه، أو ماله أو عرضه، أو نحو ذلك. قال ﷺ في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**».

ومن أنواع الظلم ما ذكره ﷻ بقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والمراد بالظلم: الاعتداء على آخرين وأخذ شيء من حقوقهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

قوله في الحديث: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا» يعني: أن الله سبحانه وتعالى منع نفسه من الظلم لعباده وتعالت عنه وتقدست مع قدرته ﷻ على ذلك، لأنه لو كان ممتنعًا على الله لم يكن ذلك مدحًا ولا ثناء، وهو

ﷻ حرّمه عليهم. أي على عباده ونفي الظلم عن الله ﷻ في هذه الآيات متضمن إثبات كمال عدله سبحانه.

قوله: «وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا» أي: حكمت بتحريمه عليكم، فلا يظلم بعضكم بعضًا.

وقال النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع كما في الصحيحين: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**». وقال ﷺ: «**إن الظلم ظلمات يوم القيامة**». وقال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: قال: «**من كانت عليه مظلمة لأخيه فليتحلل منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه**».

ولما ذكر الله ﷻ ما أوجبه من العدل، وحرمه من الظلم على نفسه وعلى عباده، أتبعه بذكر إحسانه إليهم، ونفاه عنهم، وفقرهم إليه، فقال: «يا عبادي» كرر النداء زيادة في تشريفهم وتعظيمهم ولذا أضافهم إلى نفسه «كلكم ضالّ» أي تائه عن الطريق المستقيم غافل عن الشرائع «إلا من هديته» أي علمته ووفقته وعلمته وهذه هداية الإرشاد.

و«وفقته» هداية التوفيق، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

«فاستهدوني أهدكم» أي اطلبوها مني لا من غيري فالأصل في المكلفين: الضلال، وهو الجهل بالحق، وترك العمل به، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وأن ما يحصل للعباد من علم أو اهتداء، فبهداية الله وتعليمه، وفيه الإرشاد إلى طلب الهدى من الله.

والهداية نوعان: هداية البيان والإرشاد والدلالة، وهي عامة لسائر المكلفين وهي مقدورة للخلق، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وهداية التوفيق لقبول الحق والعمل به، وهي هداية خاصة، ولا يقدر عليها إلا الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص: ٥٦].

بعد أن قدم ﷻ في الحديث الضلالة والهدى لأنها رأسي الأمر، ذكر الجوع والطعام والعري واللباس، وذلك من باب تقديم الأهم، فالضلال أشد خطرًا من الجوع والعري، والهداية أتم من الطعام والشراب.

وفي الحديث: «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم» فإن الله ﷻ هو الذي يطعم العباد ويسقيهم، وهذا يشمل

ما إذا فقد الطعام، أو وجد ولكن لم يتمكن الإنسان من الوصول إليه. كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش: ٤] وقال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

وفيه مشروعية الدعاء في مطالب الدنيا والآخرة، وهو لا ينافي الأخذ بالأسباب الأخرى حسب السنن الكونية، كالتجارة والزراعة والصناعة، وفيه تنبيه على فقرنا وعجزنا لمن جلب منافعنا ودفع مضارنا إلا أن يعيينا الله سبحانه على ذلك وييسر لنا أسبابه.

«يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم». فإن الله هو الذي يكسوا العباد بما يخلقه لهم وييسره بما يستر عوراتهم ويتجملون به، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

«يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا؛ فاستغفروني أغفر لكم» وفيه كثرة تعرض العباد للذنوب، وأن من صفات الله عز وجل مغفرة الذنوب، وفيه الأمر بالاستغفار وأنه سبب المغفرة، فإن كان الاستغفار متضمنًا للتوبة كان الوعد بالمغفرة وعدًا محققًا وإن لم يكن متضمنًا للتوبة، فالوعد بالمغفرة مقيد

بالمشيئة، وذلك فيما دون الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] فإن الله يغفر لمن يشاء، ويتوب على من تاب، هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم. قال الله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦].

قال تعالى حاكيًا عن آدم وزوجه عليهما السلام أنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وفي الحديث دليل على أن الله تعالى يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك، كما يسألونه الهداية والمغفرة.

وفي الحديث الآخر عن النبي ﷺ: «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع**» [رواه مسلم].

والهداية نوعان: مجملة ومفصلة، فالمجملة هي الهداية للإسلام والإيمان، والمفصلة: هي الهداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام، وإعانته على فعل ذلك، ولهذا أمر الله عباده أن يقرءوا في كل ركعة في صلاتهم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه بالليل: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**». وأما الاستغفار فهو طلب مغفرة الذنوب، والعبد أحوج شيء إليه؛ لأنه يخطئ بالليل والنهار، وكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

وعن الأغر المزني أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**» [رواه البخاري]. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة**» [رواه مسلم].

وروى الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا**».

ثم ذكر عز وجل غنى الله عن خلقه وقدرته وعدم حاجته فقال: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»

يعني أن العباد لا يوصلون إلى الله نفعًا ولا ضرًّا، فإن الله تعالى غني حميد. قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. فهو تعالى لا يلحقه ضرر، لا في ذاته ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في ملكه، بل الضرر ممتنع في حقه، بخلاف الأذى فإنه جائز عليه سبحانه، وواقع من بعض العباد بما يقولون أو يفعلون مما يكرهه سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

والفرق بين الضرر والأذى؛ أن الضرر يستلزم نقصًا في الكمال والسلامة من الآفات، والأذى لا يستلزم ذلك، وإن كان هو من العبد تنقصًا والعبد غير قادر على ضرر يلحق الرب سبحانه في صفاته وملكه وسلطانه وكماله، بخلاف الاذى فإنه مقدور للعبد وواقع، ولهذا جاء في النصوص نفي الضرر وإثبات الأذى، فالعبد يؤذى الرب بكفره ومعاصيه، ولكنه لا يضره تعالى بذلك، ولهذا يقال: إنه تعالى لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين مع أنها تؤذيه. وذلك لكمال غناه سبحانه عن عباده.

قوله ﷺ: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**» فيه إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق، ولا ينقص بمعصيتهم، فهو كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه.

قوله: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر».

فيه إشارة إلى كمال ملكه سبحانه، وكمال قدرته، وأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص، ولو أعطى الأولين والآخرين جميع ما سألوه في مقام واحد. وفي ذلك حث الخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه**» وفي حديث أبي ذر عند الترمذي: «**ذلك بأني جواد واحد ماجد أفعل ما أريد، عطائي كلام، وعذابي كلام، وما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون**».

وفي الحديث: افتقار الخلق إلى الله، وأن الله غني عن خلقه، وأن خزائنه لا تنفد. وفيه مشروعية اللجوء إلى الله بالدعاء والتضرع في كل حين، فالهداية بيده - جل وعلا - والرزق كذلك.

قوله: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله» أي على توفيقه للطاعات والأعمال الصالحة.

«و من وجد غير ذلك» أي شرًا «فلا يلومنّ إلا نفسه» لأنه تعالى أوضح الطريق وبين، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي قوله: لم يقل ومن وجد شرًا وفيه إشارة إلى أن الخير كله فضل من الله على عباده، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه. قال الله ﷻ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩].

(فلا يلومن إلا نفسه) فإنها آثرت شهواتها ومستلذاتها على رضا خالقها ورازقها، فكفرت بأنعم الله ولم تذعن لأحكامه وحكمه.

وفي المسند وسنن أبي داود عن النبي ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عافاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل من عمره، وإن المنافق إذا مرض وعوفي كان كالبعير عقله أهله وأطلقوه لا يدري بما عقلوه ولا بما أطلقوه**».

وفي الترمذي عن أبي هريرة مرفوعا: «**ما من ميت يموت إلا ندم إن كان محسنا ندم على أن يكون ازداد وإن كان مسيئًا ندم أن يكون استعتب**».

وكان مطرف بن عبد الله يقول: «اجتهدوا في العمل، فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات، وإن يكن الأمر شديدًا كما نخاف ونحذر لم نقل: ربنا أرجعنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل».

وفي الحديث: بيان عدل الله ﷻ، وأنه حرم الظلم.

وفيه: الحث على طلب العلم، وطلب الهداية من الله ﷻ.

وفيه: أن كل خير يصل إلى الإنسان إنما هو من فضل الله ﷻ وجوده وكرمه.

الحديث الخامس والعشرون

الصحابة رضي الله عنهم هم خير الأمة، وكل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات، ودخول الجنة والنجاة من النار، فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلغوا الدين وجاهدوا في سبيل الله، وكل مؤمن آمن بالله، فللصحابة رضي الله عنهم الفضل إلى يوم القيامة.

ومن شدة حرص الصحابة على الخير والمسارعة إليه جاءوا يطلبون ما يحملهم عليه من الدواب للجهاد في سبيل الله؛ فاعتذر النبي ﷺ بأنه لا يجد ما يحملهم عليه من الدواب. فما كان من هؤلاء الصحابة إلا أن سالت أعينهم بالدمع أسفًا على أنهم لا يجدون عدة للجهاد قال تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

وفي هذا الحديث بيان حال الصحابة ودليل على شدة حرصهم أيضًا على الأعمال الصالحة و قوة رغبتهم في الخير. فإن أصحاب رسول الله ﷺ أحرص الناس على كل خير وأسبقهم إلى كل خير،

يتنافسون في الأعمال الصالحة، ويحب بعضهم أن يلحق في الأجر بمن سبقه منهم، وفي هذا الحديث معرفة وبيان ما كان عليه سلف الأمة من تنافس وحرص على الطاعات وما يقربهم ويرفع درجاتهم عند الله.

وفي الحديث أيضًا أن الطاعات في الإسلام ليست قاصرة على بعض المناسك بل تشمل كل خير.

قال ابن دقيق العيد: (وفي هذا الحديث فضيلة التسبيح وسائر الأذكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضار النية في المباحات، وإنما تصير طاعات بالنيات الصادقات).

روى البخاري عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﵁، «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ: أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ».

كان الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون إلى الخيرات ويسارعون إلى الطاعات، وجاء إلى النبي ﷺ نفر من فقراء الصحابة متسائلين، بأن أصحاب الغنى والسعة والأموال الكثيرة قد ذهبوا بالأجور ومضوا بها، وذلك أنهم يتصدقون مما رزقهم الله وينفقون مما أعطاهم، وهم فقراء ليس لديهم ما يتصدقون به ويرغبون في الخير والمسابقة إليه، وتلك شكوى غبطة لا شكوى حسد. ولا الاعتراض على قدر الله أو طمعًا في الثراء، لكنهم رغبا في أعمال تعوضهم فوت هذا الأجر عليهم. وخرج مخرج الغبطة وتمني حصول الخير ليحوزوا المرتبة التي امتاز بها الأغنياء؛ وقالوا عنهم:

«ذهب أهل الدثور بالأجور» **الدثور**: الأموال جمع دثر، وهي المال الكثير وأهل الدثور: هم أصحاب الأموال العظيمة فهم «يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم» أي بأموالهم الفاضلة عن كفايتهم، وقيدوا بذلك بيانًا لفضل الصدقة.

فطيب النبي ﷺ نفوسهم، وذكر لهم عبادة عظيمة ليس فيها تكلفة مادية ولا بدنية، بل هي سهلة ميسورة، يأتي بها المريض والصحيح، والغني والفقير، والصغير والكبير، والرجل والمرأة، لا تحتاج

وضوءً ولا طهارة ولا مكانًا مخصوصًا. وسواء أكان على جنبه أو قائمًا أو قاعدًا.

والعبادة التي أرشدهم ﷺ إليها هي: فضيلة التسبيح والتحميد والتكبير، فإذا قلت سبحان الله: فهي صدقة، وإذا قلت الله أكبر فهذه صدقة، وإذا قلت الحمد فهذه صدقة، وإذا قلت لا إله إلا الله فهذه صدقة. والأمر بمعروف والنهي عن المنكر صدقة؛ وأن ذلك كله صدقة.

قوله: «أو ليس قد جعل لكم ما تصّدقون» أي من غير الأموال.

«إن بكل تسبيحة صدقة» ظن الفقراء أن لا صدقة إلا بمال، وهم عاجزون عن ذلك، فأخبرهم النبي ﷺ أن جميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقة. وروي عن ابن عمر مرفوعًا: «**من كان له مال فليتصدق من ماله، ومن كان له قوّة فليتصدق من قوته، ومن كان له علم فليتصدق من علمه**». وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ: «**أن من الصدقة أن تُسلم على الناس وأنت طليق الوجه**».

قال ﷺ: «وكل تكبيرة صدقة» أي قوله: الله أكبر. «وكل تحميدة صدقة» قول: الحمد لله. «وكل تهليلة صدقة» قول: لا إله إلا الله.

عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «كل معروف صدقة» فالصدقة تطلق على جميع أنواع المعروف والإحسان.

قال القاضي: (يحتمل تسميتها صدقة أن لها أجرًا كما للصدقة أجر، وأن هذه الطاعات تماثل الصدقات في الأجور، وسماها صدقة على طريق المقابلة وتجنيس الكلام، وقيل: معناه أنها صدقة على نفسه).

وقال القرطبي: (مقصود هذا الحديث: أن أعمال الخير إذا حسنت النيات فيها، تنزلت منزلة الصدقات في الأجور، ولا سيما في حق من لا يقدر على الصدقة، ويفهم منه أن الصدقة في حق القادر عليها أفضل له من سائر الأعمال القاصرة على فاعلها).

وفي قوله ﷺ: «وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة».

قال النووي: (فيه إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة في كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا نكره، والثواب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منه في التسبيح والتحميد والتهليل؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، وقد يتعين، ولا يتصور وقوعه نفلًا، والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل، ومعلوم أن أجر الفرض أكثر من أجر النفل؛ لقوله تعالى «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه**») [رواه البخاري].

ثم قال لهم ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة» فتعجبوا من ذلك؛ لأنه من أمور الدنيا، ومما تتلذذ به النفس وتشتاق إليه.

فأجابهم ﷺ: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزرًا، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

وفي هذا بيان أن الأعمال المعتادة التي هي من فطر الناس المباحة يؤجر عليها المسلم إذا نوى نية صالحة وقصد حسن؛ كاعفاف نفسه وزوجه وكذلك طلب الولد، والتقوي بالطعام والشراب تنشيطًا على العبادة، وغيرها.

قوله: «وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له فيها أجر» وهذا دليل على أن الإنسان إذا نوى بالجماع إعفاف نفسه أن له في ذلك أجرًا، وكذلك إذا نوى قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف، أو طلب ولد صالح، أو غير ذلك من المقاصد الحسنة كما قال النبي ﷺ في الحديث الآخر: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك**».

وفي الحديث: الحث على كثرة الذكر ومداومته، وهو من أفضل الطاعات والقربات وأيسرها وأسهلها. وكذلك النية الصادقة في أن تكون العادات والمستلذات عبادات حتى يؤجر عليها المرء.

قال الشيخ ابن عثيمين عن الذكر: (حتى تتيقن أن المسألة هي مسألة توفيق انظر إلى الذكر من أسهل الطاعات، لكن لا يوفق له إلا قليل).

والذكر ثلاثة أنواع: أفضله ما كان ثناءً على الله، ثم ما كان انشاء من العبد، أو اعترافًا بما يجب لله عليه، ثم ما كان دعاء من العبد.

قال ابن القيم: (إن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وبذر فيه الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به خنس).

وقال ابن تيمية: (الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء).

وفي هذا الحديث بيان كثرة طرق الخير، فحري بالمسلم أن يلتزم بها ويقوم بها، ولا يفرط في شيء منها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. وفي الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان أو طير أو دابة إلا كان له صدقة**». وذكر البخاري في تاريخه من حديث جابر مرفوعًا: «**من حفر ماء لم تشرب منه كبد حرى من جن ولا إنس ولا سبع ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة**».

وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**ذكر الله عز وجل**».

وروى الترمذي من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة**».

وفضل الأمر المعروف والنهي عن المنكر معروف مشهور، ومن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر الأول: أن يكون الآمر عالمًا بأن هذا الفعل من المعروف أو من المنكر، إذ لا يجوز للإنسان أن يأمر بما يجهل حقيقته أو لا يعرف حكم الله فيه.

الأمر الثاني: ألا يؤدي أمره إلى منكر أعظم من ترك المعروف، وألا يكون النهي عن المنكر مؤديًا إلى منكر أعظم، فإذا كان المنكر

عند إنكاره يزول ويؤدي إلى منكر أعظم فإن العبد حينئذ لا ينكر هذا المنكر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

والصدقة بغير المال نوعان:

أحدهما: ما فيه تعدية الإحسان على الخلق، فيكون صدقة عليهم، وربما كان أفضل من الصدقة بالمال، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دعاء إلى طاعة الله، وكف عن معاصيه، وذلك خير من النفع بالمال، وكذلك تعليم العلم النافع، وإقراء القرآن، وإزالة الأذى عن الطريق، والسعي في جلب النفع للناس، ودفع الأذى عنهم، وكذلك الدعاء للمسلمين والاستغفار لهم.

والثاني: من الصدقة التي ليست مالية: ما نفعه قاصر على فاعله، كأنواع الذكر: من التكبير والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والاستغفار، وكذلك المشي إلى المساجد صدقة وغير ذلك.

في الصحيحين عن أبي هرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من**

الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك».

وفي الحديث فضيلة التسبيح وسائر الأذكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضار النية في المباحات وإنما تصير طاعات بالنيات الصادقات، وفيه دليل على أن الصحابة ﷺ لشدة حرصهم على الأعمال الصالحة يحزنون على ما يفوتهم منها مما لم يقدروا عليه كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١: ٩٢].

وأبواب الخير غير محصورة على ما ورد في الحديث، بل وردت أعمال أخرى أخذت وصف الصدقة منها: التبسم في وجه الأخ، وعزل الشوكة أو الحجر عن طريق الناس، وإسماع الأصم والأبكم حتى يفهم، وإرشاد الأعمى الطريق، والسعي في حاجة الملهوف، ونفقة الرجل على أهله، وإفراغك دلوك في دلو أخيك؛ بل كل ما هو داخل في لفظة (المعروف) يعتبر صدقة من الصدقات إما على النفس أو على المجتمع.

وفي هذا يتبين فضل الله ﷻ على عباده وشمولية الإسلام لكل ما ينفع الإنسان ومن حوله.

بل ومن فضل الله ﷻ على المسلم: أن عادته تنقلب بالنية إلى عبادة يؤجر عليها، ويصير فعله وتركه قربة يتقرب بها من ربه جل وعلا، فإذا تناول الطعام والشراب المباح بقصد الحفاظ على جسمه والتقوى على طاعة ربه، كان ذلك عبادة يثاب عليها ولا سيما إذا قارن ذلك ذكر الله تعالى في بدء العمل وختامه فسمى الله تعالى في البدء، وحمده وشكره في الختام.

ومن أبواب الخير الأخرى كف الأذى عن المسلمين قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] وكما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك**».

وعن أبي هريرة قال: «**قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: هي في النار**» [رواه أحمد].

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري قال: (قلنا يا رسول الله: أي الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**») [متفق عليه].

وفي الحديث من الفوائد: فضيلة الصحابة ﷺ ومسارعتهم إلى العمل الصالح وشدة حرصهم على الخير وقوة رغبتهم في الأعمال الصالحة، وعظم الأجر، ولذلك كانوا يحزنون على فوات بعض الأعمال التي يتمكن منها الأغنياء. وليس في الحديث حسد فقراء الصحابة الأغنياء، بل فيه رغبة في التنافس معهم على سبل الخير.

وفيه: أن الصدقة ليست مقصورة على المال فحسب.

وفيه: شمول الشريعة وتنوعها.

وفيه: فضل الصدقة بجميع أنواعها وصورها.

الحديث السادس والعشرون

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ).

هذا حديث عظيم وقاعدة من قواعد الدين الحنيف، وفيه أن الأعمال الصالحة لا تقتصر على الإنسان نفسه، بل كل عمل فيه نصح ونفع للناس فيه أجر، وهو من أحاديث شكر النعم وفضائل الأعمال، وفيه فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم وإعانتهم. وفيه فضل المشي إلى المساجد وإماطة الأذى عن الطريق.

وللصدقة مفهوم واسع لا يقتصر على بذل المال وإنفاقه في أوجه البر والخير، بل ويشمل كثيرًا من الطاعات والعبادات التي تدل وتبرهن على صدق صاحبها في عبوديته لله تعالى. وفي هذا الحديث جملة من الأعمال التي يعم نفعها الجميع، فيحقق بها الائتلاف بين أفراد المجتمع، وتجتمع فيها القلوب ويكون المجتمع متوادًا متحابًا متعاونًا.

وقد جمع الرسول ﷺ في الحديث جملة من مكارم الأخلاق والإحسان إلى الناس؛ وهي صفة من صفات الأنبياء والصالحين، فحسن الخلق وإعانه المسلمين يوجب التحاب والتآلف، مع رفيع الدرجات.

والله ﷻ خلق الإنسان فأحسن خلقه وأتمه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وقد ذكر النبي ﷺ نعم الله على العبد، ومنها المفاصل في جسمه والتي عددها ستين وثلاثمائة مفصل، وقد خص النبي ﷺ السلاميات بالذكر في حديثه، لما فيها من تنظيم وجمال ومرونة وتقابل. ولهذا هدد وتوعد ﷻ كل كافر معاند بالحرمان منها؛ قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤].

أي: نجعل أصابع يديه ورجليه مستوية شيئًا واحدًا، كخف البعير وحافر الحمار، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا، كما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل من فنون وأعمال.

ومن أداء حق هذه النعمة القيام بالأعمال الصالحة التي ذكرها النبي ﷺ في الحديث وهي: الكلمة الطيبة التي تسر السامع وتدخل السرور وتؤلف القلوب، وكذلك الإصلاح بالعدل بين الناس، ومعاملتهم بالأخلاق الكريمة، وكذلك مساعدة الرجل في دابته

سواء بحمله عليها أو برفع متاعه عليها كل ذلك صدقة، وبكل خطوة إلى الصلاة يمشيها صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة. وهذه الأعمال لها من الأجر والثواب ما يساوي أجر الصدقة لمن عجز عنها، ومثلها لمن جمع بينها وهو قادر عليها.

وفي كل صباح يوم يحمد المسلم ربه ﷻ على نعمه، وبما أنعم عليه من خلق هذه السلاميات والمفاصل في جسده، وما فيهما من باهر نعمه ودوامها التي هي نعمة أخرى تستحق الحمد والشكر قولًا وعملًا.

جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس» أي؛ أن الصدقة على ابن آدم عن هذه الاعضاء في كل يوم من أيام الدنيا شكر لله ﷻ.

(والسلامى) عظام البدن ومفاصله وأعضاؤه.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«خلق الله آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن ذكر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، وعزل حجرًا عن طريق المسلمين، أو عزل شوكة، أو عزل عظمًا، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلث مائة السلامى أمسى من يومه، وقد زحزح نفسه من النار»**.

وفيه أيضًا من حديث أبي ذرّ عن النبي ﷺ قال: «**يصبح على كل سلامى أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة، ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**».

قال ابن دقيق العيد: (أي يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان، فإن الصلاة عمل لجميع أعضاء الجسد، فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته).

قال ابن العطار رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ففي هذا الحديث عظم فضل صلاة الضحى، وأنها تجزئ عن ذلك كله).

وصلاة الضحى سنة مؤكدة، وهي صلاة الأوابين. ووقت صلاة الضحى من ارتفاع الشمس قيد رمح إلى قبيل الزوال، أي بعد طلوع الشمس بنحو ثلث ساعة إلى قبيل أذان الظهر بعشر إلى خمس دقائق.

وآخر الوقت أفضل حين يشتد الضحى قبل وقوف الشمس. وأقلها ركعتان ولا حد لها، يصلى أربعًا أو ستًا، أو ثمانًا أو أكثر. ولا ينبغي جمعهن بسلام واحد.

وصلاة الإشراق هي صلاة الضحى في أول وقتها. وتستحب صلاة الضحى للمسافر وغيره.

ومما أمر الله ﷻ به الإصلاح بين المسلمين حتى لا تدب الفرقة ويقع التناحر بينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وفي الحديث قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: «**إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة**» [رواه الترمذي].

وصلاح النية في أمر الإصلاح أمرمهم، قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

وفي الحديث قال ﷺ: «تعدل بين الإثنين صدقة» يدخل في العدل الحكم بينهما بالعدل والصلح وغير ذلك. وكل ما وافق الشرع فهو عدل، وكل ما خالف الشرع فهو ظلم وجور؛ لأن إقامة العدل في الأرض سمة من سمات أهل الإسلام.

والعدل بين الإثنين «صدقة» عليه، لوقايته ما يترتب على الخصام من قبيح الأقوال والأفعال، ولهذا عظم فضل الإصلاح بين المسلمين أفرادًا وأسرًا ومجتمعات.

ثم قال ﷺ: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة» وهي صدقة الإعانة. وفي الحديث استحباب إعانة الآخرين، وأن فيه الأجر والمثوبة لمن قام بذلك.

قال ﷺ: «**والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**» [رواه مسلم].

وأوجه إعانة المسلمين كثيرة لا تحصى.

«والكلمة الطيبة صدقة» سواء من ذكر الله كالتسبيح والتكبير والتهليل، أو في حق الناس كحسن الخلق وطيب الكلام وإدخال السرور والدعاء، كل ذلك صدقة. ومنه قول النبي ﷺ: «**ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**».

وهناك عدد من الأعمال الصالحة التي تعتبر صدقة يؤجر العبد عليها ومن ذلك ما ورد في قوله ﷺ: «**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعاء، وتشميت العاطس**» [رواه البخاري ومسلم].

ثم ذكر ﷺ فضل الصلاة، وهي أعظم الفرائض بعد الشهادتين، قال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**» وقال ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة».

وفي هذا الحديث قال ﷺ حاثًا ومرغبًا في صلاة الجماعة. «وبكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة» فإذا خرج إلى الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة. وإذا أسبغ

المصلي الوضوء في بيته، وخرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، فله ثلاث فوائد: الأولى: صدقة، والثانية: رفع درجة، والثالثة: حط خطيئة، وفي الحديث الحث والتأكيد على حضور الجماعات وعمارة المساجد.

وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزله في الجنة كلما غدا أوراح**» [متفق عليه].

وفيه فضيلة أداء الصلوات في المساجد وأن العبد يؤجر على ذلك الأجور العظيمة حتى ممشاه إلى المسجد تحسب له كل خطوة يخطوها صدقة. قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

والصلاة صلة بين العبد وربه، نور في الوجه والقلب، وصلاح للبدن والروح، وتطهر القلوب، وتكفر السيئات، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟**» قالوا: لا يبقى

من درنه شيء. قال «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا**» [متفق عليه]. والمراد صغائر الذنوب، أما الكبائر فإنها تحتاج إلى توبة صادقة.

وقد تفضل الله ﷻ علينا بنعمه وآلائه فهدانا للإسلام، ورزقنا من الطيبات، وأنعم علينا بالصحة في الأبدان والأمن في الأوطان، فله الحمد والشكر، رب جواد كريم، والشكر هو عرفان الإحسان ونشره، والاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

قال ابن القيم: (الشكر ظهور أثر نعمة ا لله على لسان عبده: ثناء واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة. ومن اسماء الله ﷻ؛ الشاكر والشكور، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣] ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] والشكر صفة الأنبياء وحلية الأتقياء.

ومن أعظم شكر الله ﷻ تقوى الله، واستعمال نعمه في طاعته وعبادته فإن ذلك سبب لرضا الرب عن عبده ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وهو سبب للزيادة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وأهل الشكر هم المخصوصون بمنه الله عليهم من بين عباده ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

في هذا الحديث أنه ﷺ قال: «**من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر ذلك اليوم، ومن قالها حين يمسي أدى شكر ليلته**» [رواه أبو داود].

والشكر قسمان: شكر واجب؛ ويكون بالقيام بالواجبات وترك المحرمات، وهو كاف لشكر هذه النعم وغيرها.

وشكر مستحب؛ وهو أن يزيد على ذلك بنوافل الطاعات القاصرة كالأذكار، والمتعدية كالإعانة والعدل، وهو المراد من هذا الحديث.

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: إني بأرض قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقت على أهلها من ضعف الشكر. فكتب إليه عمر: أني قد كنت أراك أعلم بالله مما أنت، إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها، إلا كان حمده أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وقال الله ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ إلى قوله ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الزمر: ٧٣ ـ ٧٤] وأي نعمة أفضل من دخول الجنة.

وقال وهب بن منبه: (عَبَدَ الله عابد خمسين عامًا، فأوحى الله ﷻ لعرق في عنقه، فضرب عليه فلم ينم ولم يصلّ، ثم سكن وقام، فأتاه ملك فشكا إليه ما لقى من ضربات العرق. فقال الملك: إن ربك ﷻ يقول: عبادتك خمسين سنة لم تعدل سكون ذلك العرق).

وقال سليمان التيمي: (إن الله أنعم على العباد على قدره، وكلفهم الشكر على قدرهم، حتى رضي الله منهم من الشكر بالاعتراف بقلوبهم بنعمه، وبالحمد بألسنتهم عليها).

وأعمال العباد كلها لا تساوي قدر أقل نعمة من نعم الله المتكاثرة، فلئن كان شكرها لا يوافي قدرها، فلا أقل من حق الرعاية، وصيانتها من استعمالها في غير مرضاة خالقها ومولاها.

وديننا دين شامل كامل، فيه الهدى والنور، وفيه مصالح العباد في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث: الحث على أعمال الخير والطاعات شكرًا لله على نعمه وتقربًا إليه بصالح الأعمال، وفي كثرتها وتنوعها مدعاة إلى الأخذ بما تيسر منها سواء اجتمعت أم تفرقت. والإنسان إذا عجز عن خصلة من خصال الخير قدر على الأخرى، وبعضها ذات نفع متعد لعباد الله وبعضها مقتصر على من عملها.

قال السعدي عند قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧: ٨]. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وهذه الآية في غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلًا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا).

«وتميط الأذى عن الطريق صدقة» أي؛ تزيل ما يؤذي المارة من حجر أو شجر، أو غيرها مما يؤذي المارين فإنه صدقة. وهذا من الترغيب في إماطة الأذى عن الطريق، وأنه صدقة على المسلمين، وهو صدقة من الإنسان على نفسه؛ وشرط ذلك: أن يعمله ويقوم به إيمانًا واحتسابًا، وهو شعبه من شعب الإيمان، كما في قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق.....**» [رواه مسلم].

وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره، فشكر الله له، فغفر له**» [رواه مسلم].

ومن إماطة الأذى: كف الأذى عن الناس، وهي عبادة عظيمة، في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك**» وفي القرآن العظيم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وفي الحديث؛ أن الصدقة لا تختص بالمال، بل كل ما يقرب إلى الله ﷻ فهو صدقة بالمعنى العام.

وفيه: بيان نعم الله على الإنسان في مفاصله.

وفيه: كثرة أبواب الخير وطرقه، وكلها مما يؤجر عليه المسلم.

الحديث السابع والعشرون

روى الإمام مسلم عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﵁ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِك، وَكَرِهْت أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ».

راوي هذا الحديث؛ هو النواس بن سمعان الكلابي ﵁، قدم أبواه على النبي فدعا له ﷺ وأعطاه نعليه فقبلها ﷺ وزوجه أخته، فلما دخل عليها النبي ﷺ تعوذت منه فتركها وهي الكلابية، كان حريصًا على طلب العلم، كثير البكاء لا يملك دمعته، قال: أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة. سكن الشام ومات بها ﵁.

وهذا الحديث؛ من جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ. وهو اختصار المعاني العظيمة في الألفاظ القليلة.

قال ابن حجر: (وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، بل من أوجزها، إذ البر كلمة جامعة لجميع أفعال الخير، وخصال المعروف، والإثم كلمة جامعة لجيمع أفعال الشر والقبائح كبيرها وصغيرها).

فإن الأخلاق في دين الإسلام عظيم شأنها، عالية مكانتها، رفيعة منزلتها، ولذلك دعا المسلمين إلى التحلي بها وتنميتها في نفوسهم، وهي أحد الأصول الأربعة التي يقوم علها دين الإسلام وهي: الإيمان، والأخلاق، والعبادات والمعاملات، ولذا نالت العناية الفائقة والمنزلة العالية في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

وفي الحديث قال ﷺ: «البر حسن الخلق» البر: كلمة جامعة لجميع أفعال الخير وخصال المعروف. وهو لمقابلته بالفجور، عبارة عما اقتضاه الشرع وجوبًا، كما أن الإثم عما نهى عنه الشرع وجوبًا أو ندبًا.

وقوله ﷺ: «البر حسن الخلق» يعني: أن حسن الخلق أعظم خصال البر، وهو ما يسر فاعله ويلحقه بالأبرار، وحسن الخلق هو الأخلاق الحميدة، والأوصاف الجميلة، كالإنصاف في المعاملة، والرفق في المحاولة، والعدل في الأحكام، والبذل والإحسان في اليسر، والإيثار في العسر، وغير ذلك من الصفات الحميدة.

وحسن الخلق من البر الداخل في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وفي الصحيحين: «أن أعرابيًّا جذب برد النبي ﷺ حتى أثرت حاشيته في عاتق النبي ﷺ، وقال: أعطني يا محمد من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك وأمر له بعطاء»

وحسن الخلق يكون في عبادة الله، ويكون في معاملة عباد الله، فحسن الخلق في عبادة الله: أن يتلقى الإنسان أوامر الله بصدر منشرح، ونفس مطمئنة، ويفعل ذلك بانقياد تام، بدون تردد، وبدون شك، وبدون تسخط. أما في معاملة الناس فإنه يقوم ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، وهو منشرح الصدر، واسع البال، لا يضيق بذلك ذرعًا، ولا يتضجر منه، فإذا علمت من نفسك أنك في هذه الحال، فإنك من أهل البر.

قال العلماء: (البر يكون بمعنى الصلة، وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى الطاعة، وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق).

وقيل: حسن الخلق طلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل الخير، وأن يحب للناس ما يحب لنفسه من التواضع وعدم الكبر، ولين الجانب، ورحمة الصغير، واحترام الكبير، ودوام البشر، وحسن المصاحبة، وسهولة الكلمة، وإصلاح ذات البين، والتواضع

والصبر، والحلم والصدق، وغير ذلك من الأخلاق الحسنة والأفعال الحميدة التي حث عليها الإسلام ورغب فيها. والمسلم مأمور باحتساب حسن الخلق والتأدب بآداب الشريعة.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك، فلذلك أنزل الله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال ابن تيمية وهو يتكلم عن منهج السلف في الأخلاق والسلوك: (يأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال).

والبر أنواع: فيكون البر فيما بين العبد وبين ربه - جل وعلا -، ويكون البر فيما بين العبد وبين الناس؛ فالبر الذي بين العبد وبين ربه - جل وعلا - هو بالإيمان، وإتيان أوامر الله - جل وعلا - المختلفة، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كما قال عَزَّ وَجَلَّ في سورة البقرة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية.

وهذا النوع من البر يأتي في القرآن كثيرًا، والعبد يكون من أهل البر إذا قام بما جاء في هذه الآية، وترك ما نهى الله ﷻ عنه.

والقسم الثاني من البر: البر مع الخلق، وهذا جماعه حسن الخلق، ولهذا قال ﷺ: «**البر حسن الخلق**» فجمع البر في عبارة وجيزة شاملة وهي «**حسن الخلق**» وهو بذل الندى، وكف الأذى والإحسان إلى الخلق، وأن يتجزئ بالسيئة الحسنة، وأن تعامل الناس بما فيه عفو عن المسيء، وكتم للغيظ، وإحسان للخلق، ودرجة البر تختلف باختلاف حسن الخلق.

ثم قال ﷺ: «والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».

«والإثم» أي؛ الذنب. وهو كلمة جامعة لجميع أفعال الشر والقبائح.

«ما حاك» أي؛ تردد وتحرك. وقيل رسخ وأثر.

«في نفسك» اضطرابًا وقلقًا ونفورًا وكراهية لعدم طمأنينتها، ومن ثم لم يرض بالاطلاع عليه.

«وكرهت أن يطلع عليه الناس» والمراد بالناس أمثالهم ووجوههم وأشرافهم لا غوغاؤهم وأراذلهم، وفيه إشارة على أن الإثم سبب من أسباب ضيق الصدر وقلقه واضطرابه، مما يدل على أن الطاعة سبب للطمأنينة بخلاف المعصية فإنها سبب للاضطراب والتردد، وهذا يرجع إليه عند الاشتباه، وهو ما استنكره الناس؛ فاعله وغير فاعله.

قال النووي: (هو ما اختلج وتردد ولم تطمئن النفس إلى فعله).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ما رآه المؤمن حسنًا فهوعند الله حسن، وما رآه المؤمن قبيحًا فهو عند الله قبيح).

«وكرهت أن يطلع عليه الناس» أي؛ فيعيرونه بفعله، فإن النفس بطبعها تحب المدحة وتكره المذمة.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولكن هذا خطاب للمؤمنين، أما الفاسق فإن الإثم لا يحيك في صدره، ولا يهمه أن يطلع عليه الناس، بل يجاهر به ولا يبالي، لكن المؤمن لكون الله ـ سبحانه ـ وتعالى ـ قد أعطاه نورًا في قلبه، إذا همَّ بالإثم حاك في صدره، وتردد فيه، وكره أن يطلع عليه الناس، فهذا الميزان إنما هو في حق المؤمنين).

والخير في حسن الخلق، لأن صاحبه يبادر إلى محاسن الأفعال وترك رذائلها، والمعصية ما يتردد في النفس من مطالب الهوى والآثام، ولا يحب أن يراه بها أحد من الناس مخافة الملامة والتعيير.

قال القرطبي: (إنما أحاله النبي ﷺ على هذا الإدراك القلبي؛ لما علم من جوده فهمه، وحسن قريحته، وتنور قلبه).

قوله: «وإن أفتاك الناس وأفتوك» يعني: أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم وإن أفتاه غيره، وهذا إنما يكون إذا كان المفتي يفتيه بمجرد ظن أو هوى من غير دليل شرعي.

وقد تبين من الحديث أن للإثم علامتين، علامة باطنة وعلامة ظاهرة. أما الأولى: فهي ما يشعر به الإنسان من قلق واضطراب في نفسه. والثانية: فهي أن تكره أن يطلع عليه الناس.

وفيه: أن للنفس شعورًا من أصل الفطرة بما تحمد وتذم عاقبته، ولكن غلبت عليها الشهوة فأوجبت لها الإقدام على ما يضرها، وكذلك كراهة اطلاع الناس عليه؛ دليل أن النفس بطبعها تحب اطلاع الناس على خيرها وبرها وتكره ضد ذلك. وإذا بقي الإثم خاطرًا ولم يعمل أو يتكلم به فلا إثم عليه.

وَفي الحديث الآخرعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ ﵁ قَالَ: أَتَيت رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ؟ قُلْت: نَعَمْ. فقَالَ: استفت قلبك، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاك النَّاسُ وَأَفْتَوْك**» [رواه أحمد].

وهذا الحديث؛ من الأحاديث الجوامع، وفيه من معجزات الرسول ﷺ إخبار السائل بما يريد سؤال عنه قبل أن يسأل، وهذا من الغيب الذي أطلعه الله تعالى عليه.

فقد جاء إلى رسول الله ﷺ وابصة بن معبد ﵁ فقال له رسول الله ﷺ:

«جئت تسأل عن البر؟» أي الحلال، لأن الله ﷻ اطلع نبيه عليه في نفسه؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله - سبحانه -. (قلت: نعم)

والبر: من جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ. وهو اختصار المعاني العظيمة في الألفاظ القليلة. (قال عن البر) أي معظمه: الخير والطاعة. (والبر) هي اللفظة الجامعة التي ينطوي تحتها كل أفعال الخير وخصاله. وجاء تفسيره في الحديث السابق بأنه حسن الخلق.

قال ابن دقيق العيد: (أما البر فهو الذي يبر فاعله، ويلحقه بالأبرار، وهم المطيعون لله ﷻ).

قال وابصة: نعم.

فقال ﷺ: «استفت قلبك» أي؛ اطلب الفتوى من قلبك ما دام على صفاء فطرته لم تدنسه آفات الهوى، لتوقعه فيما لا يرضي.

قال العلماء: (ولا يقال لكل إنسان: استفت قلبك، وإنما يقال ذلك لمن كان مثل الصحابي وابصة في قوة الفهم، وصفاء النفس، وسعة العلم، والحرص على تحري الخير، فمثله لا يرجع لفتوى رضي الله عنه، أما عامة الناس فلا يقال استفت قلبك، وإنما يقال له: استفت العلماء الذين يميل قلبك إلى أمانتهم في العلم، فاسأل واعمل بفتواهم وإن خالفت فتواهم ما في قلبك، لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]).

قال ﷺ: «البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب» أي؛ نفسك وقلبك، فإن القلب السليم يدرك البر والإثم، ويرتاح وينشرح.

«والإثم ما حاك في النفس» أي؛ في نفس المجتهد ولم يستقر حله عنده.

«وتردد في الصدر» أي؛ لم ينشرح له.

«وإن أفتاك الناس وأفتوك» أي؛ غير أهل العلم والاجتهاد من أهل الجهل والفساد، أو الناس عامة «وإن أفتوك» تأكيد لترك الشبهات.

وفي الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

والحق والباطل لا يلتبس أمرهما على المؤمن البصير، بل يعرف الحق بالنور الذي عليه، فيقبله قلبه، وينفر عن الباطل فينكره ولا يعرفه.

وقد يخلط كثير من الناس في فهم هذا الحديث، حيث يجعلونه مطية لهم في الحكم بالتحليل أو التحريم على وفق ما تمليه عليهم أهواءهم ورغباتهم، فيرتكبون من المحرمات ويقولون: (**استفت قلبك**) مع أن الحديث لا يمكن أن يراد به ذلك، وإنما المراد من الحديث أن المؤمن صاحب القلب السليم قد يستفتي أحدًا في شيء فيفتيه بأنه حلال، ولكن يقع في نفس المؤمن حرج من فعله، فهنا عليه أن يتركه عملًا بما دله عليه قلبه. ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

والبر من خصال الخير، ومن مواطن الأجور وهو طريق موصل إلى الجنة، وسبيل للزيادة في العمر، وهو من أسباب سعادة المرء في الدارين، وهو طريق لراحة البال واستقرار النفس واطمئنانها، والبر والإحسان إلى عباد الله معين على أمور الدنيا والدين.

فاحرصوا على مداخل البر ودقائقه لتكونوا من أهل الخير والصلاح والفلاح.

وفي الحديث: بيان مكانة حسن الخلق في الإسلام، وأن للنفس شعورًا من أصل الفطرة بما تحمد وتذم عليه فهي قادرة على تمييز الإثم من البر، لأن الله ﷻ فطر عباده على معرفة الحق، والسكون إليه وقبوله، وركُّز في الطباع محبة ذلك والنفور عن ضده.

وفي الحديث: الأمر بترك الشبهات التي تحصل للنفوس خشية أن تكون حرامًا في نفس الأمر.

وفيه: آية من آيات النبوة حيث أخبر ﷺ وابصة بن معبد بما في نفسه قبل أن يتكلم.

وهذا الحديث أصل في معنى البر والإثم.

وفيه: أن النبي أعطي جوامع الكلم.

وفيه: أن المؤمن يكره أن يطلع الناس على آثامه.

وفيه: أن المدار في الشريعة على الأدلة؛ لا على ما اشتهر بين الناس.

الحديث الثامن والعشرون

روى أبو داود والترمذي عَنْ أَبِي نَجِيحٍ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» [حديث حسن صحيح].

هذا الحديث حديث جليل، يحتوي على علوم فيها الحث على التقوى، والسمع والطاعة في غير معصية، والإخبار عن اختلاف الناس في المستقبل، وقد كان النبي ﷺ يعظ أصحابه بين الحين والآخر، ومما رواه العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ وعظهم وذكرهم، وأعلمهم ونصحهم بموعظة بليغة أثرت فيهم تأثيرًا بليغًا، كما وصف حالهم العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكل أحاديث النبي ﷺ جمعت الفصاحة والبلاغة، فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم ولهذا فإن لحديثه وقع في القلوب وأثر في النفوس.

قال رضي الله عنه: وعظنا النبي ﷺ، أي ذكرنا ونصحنا:

قوله: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة» وفي رواية «بليغة» يعني: بلغت إلينا وأثرت في قلوبنا، (وجلت منها القلوب) أي خافت وذرفت منها العيون كأنه قام مقام تخويف ووعيد. والموعظة: هي التذكير بالعواقب. وكان ذلك التذكير وتلك الموعظة بعد صلاة الصبح.

«وجلت منها القلوب» هذه صفة للمؤمنين عند سماع الذكر قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله: «وذرفت منها العيون» أي: دمعت وسالت منها العيون تأثرًا بها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

قوله: (فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا) لما رقت قلوبهم ولانت طلبوا المزيد من النصح والوصية. لأن المودع يستقصي في القول والفعل لا يترك شيئًا مما يهمه إلا ويورده ويستقصي فيه، ولعل الخطبة التي أشار إليها العرباض شبيهة بما

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا كالمودع. فقال: «**أنا محمد النبي الأمي ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم، وخواتمه وجوامعه، وعلمتكم خزنة النار وحملة العرش، وتجّوز لي ربي، وعوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه**».

قوله ﷺ في موعظته: «أوصيكم بتقوى الله» أوصاهم بتقوى الله، وهي وصية الله للأولين والآخرين، وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة» فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة. جمع بينهما تأكيدًا للاعتناء بهذا المقام. وجمع بين التقوى التي بها صلاح الآخرة، والإمامة وبها صلاح الدنيا.

وخرج الخلال في كتاب الإمارة من حديث أبي أمامة قال: «أمر رسول الله ﷺ أصحابه حين صلى العشاء أن احشدوا فإن لي إليكم حاجة، فلما فرغوا من صلاة الصبح قال: «**هل حشدتم كما أمرتكم؟**» قالوا نعم، قال: «**اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، هل**

عقلتم هذه ثلاثًا؟» قلنا: نعم. قال: «**أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، هل عقلتم هذه ثلاثًا؟»** قلنا: نعم. قال: «**اسمعوا وأطيعوا، هل عقلتم هذه ثلاثًا؟»** قلنا: نعم» قال: فكنا نرى أن رسول الله ﷺ سيتكلم كلامًا طويلًا، ثم نظرنا في كلامه، فإذا هو قد جمع لنا الأمر كله. قوله: «وإن تأمر عليكم عبد» وفي رواية: «حبشي» وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**».

«والسمع والطاعة» يعني لولاة الأمر في غير معصية، هاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر).

قوله ﷺ: «وإن تأمر عليكم عبد حبشي» أي: تولى الإمارة عليكم رجل ولو لم يكن من العرب، وهذه قاعدة شرعية فيها صلاح البلاد والعباد والوقاية من الفتن ودفع الشرور. والسمع والطاعة له بالمعروف لقوله ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**» [رواه البخاري].

قال ابن العطار: (هذا الحديث معجزة وعلم من أعلام النبوة).

قال ابن العربي: (والذي عندي فيه أن النبي ﷺ أخبر بفساد الأمر ووضعه في غير أهله، حتى توضع الولاية في العبيد، فإذا كانت فاسمعوا واطيعوا؛ تغليبًا لأهون الضررين، وهو الصبر على ولاية من لا تجوز ولايته، لئلا يغير ذلك فيخرج منه إلى فتنة عماء صماء، لا دواء لها، ولا خلاص منها).

والسمع والطاعة هنا ليسا على الإطلاق، بل هما مقيدان بما كان وفق كتاب الله وسنة رسوله، كما في الحديث «**ما أقام فيكم كتاب الله**» [رواه أحمد] ولحديث: «**إنما الطاعة في المعروف**» [رواه البخاري] ولحديث «**ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**» [رواه الحاكم].

قال الحسن: (والله لا يستقيم الدين إلا بالأمراء وإن جاروا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون).

ثم ذكر لهم النبي ﷺ أمرًا مستقبليًا بقوله:

«وأنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا» أي؛ أن من طال عمره منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، وهو ما حصل من الأمور التي وقعت بعد النبي ﷺ. وهذا آية من آيات النبي ﷺ.

ثم أعلمهم بالمخرج منها بقوله «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» أي: عليكم التمسك بسنتي، وهي طريق الرسول ﷺ علمًا وعملًا وقولًا، وكذلك سنة الخلفاء الراشدين الأربعة وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، -رضي الله عنهم أجمعين-، كما في الحديث الآخر: «**والخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكًا**». فإنهم خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ والراشد: من عرف الحق واتبعه.

وهذا إخبار منه ﷺ بما وقع في هذه الأمة من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه، فأمر عند ذلك بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين في الاعتقادات والأعمال والأقوال.

«تمسكو بها وعضوا عليها بالنواجذ» أي؛ تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ. والنواجذ أقصى الضرس. وهو كناية عن شدة التمسك وعدم التهاون والتفريط في سنته ﷺ.

ثم حذر ﷺ من محدثات الأمور، فقال:

«وإياكم ومحدثات الأمور» ومحدثات الأمور: هي الأمور المحدثة في الدين وليس لها أصل في الشريعة، وهي مذمومة.

«فإن كل بدعة ضلالة» هذا تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة،

والمراد بالبدعة ما أحدث في الدنيا مما لا أصل له في الشريعة، وهذا من جوامع الكلم، وهو أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردّ**». والمعنى أن كل محدثة في دين الله فهي ضلالة، فدعوها واحذروا منها، لأن الله ﷻ أكمل وأتم لنا الدين، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وقد اشتمل هذا الحديث على وصية أوصاها الرسول ﷺ لأصحابه وللمسلمين عامة من بعده، وجمع فيها التقوى لله ﷻ، والسمع والطاعة لأئمة المسلمين، وفي هذا تحصيل سعادة الدنيا والآخرة، كما أوصى ﷺ الأمة بما يكفل لهم النجاة والهدى إذا اعتصمت بالسنة، ولزمت الجادة، وتباعدت عن الضلالات والبدع، فاستمسكوا بوصية النبي ﷺ تفلحوا.

و هذا الحديث جامع لخيري الدنيا والآخرة، ولمصالح العباد في العاجل والآجل.

وفي الحديث؛ مشروعية إعطاء المواعظ قبل الأسفار وقبل التوديع، وفيه أن الموعظة التي يودع بها ينبغي أن تكون مؤثرة وأن تحتوي على معان جليلة. لأنها ترقق القلوب، وفيها التحذير من الفتن، والحرص على التمسك بالسنة والمحافظة عليها.

وفيه أيضًا: الأمر بالسمع والطاعة لولاة الأمور، والسمع والطاعة من الأعمال الصالحة التي أمرت بها الشريعة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]. وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إن خليلي أوصاني أن اسمع وأطيع وإن كان عبدًا مجدع الأطراف**» [رواه مسلم].

وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: «**اتقوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم، واطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم**» [رواه الترمذي].

وفي الحديث: أن البدع كلها مذمومة لقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة» وكل: من ألفاظ العموم، وفيه إشارة إلى أن العبادات توقيفيه وأنه لايجوز لنا أن نحدث عبادات جديدة لم يفعلها النبي ﷺ.

وفي الحديث: فضل البكاء من خشية الله وشوقًا إليه.

وهذا الحديث أصل في الاعتصام بسنة الرسول ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين.

فإن من ثمرات اتباع السنة: الهداية، والهداية هي أجل النعم وأعظمها، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤] قال ابن كثير: (ذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا

فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]).

ومن ثمرات اتباع النبي ﷺ دخول الجنة في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**» [رواه البخاري].

قال ابن قدامة: (وفي إتباع السنة بركة وموافقة الشرع، ورضا الرب سبحانه وتعالى، ورفع الدرجات، وراحة القلب، ودعة البدن، وترغيم الشيطان، وسلوك الصراط المستقيم).

وفي الحديث: ظهور آية من آيات النبي ﷺ في قوله: «**فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا**».

الحديث التاسع والعشرون

في الحديث: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدْنِي مِنْ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّك عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُك بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُك بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» فقُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْك هَذَا». قُلْت: يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْك أُمُّك وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!» [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح].

هـذا الحـديث أصـل في جوامـع أسـباب السـعادة، ومـن أحاديـث الوصـايا، وهـو جـواب سـؤال عظـيم، ومـن رحمـة الله أن فـتح لهـم أبواب الخير، ليتزودوا من أسباب الأجر، ومغفرة الذنوب.

وراوي الحديث هـو معـاذ بـن جبـل بـن أوس الأنصـاري المـدني البدري، أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، شـهد العقبـة مـع الأنصـار السبعين، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسـول الله ﷺ، وكـان أعلـم الأمـة بـالحلال والحـرام، وهـو أحـد السـتة الـذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ. بعثه النبي ﷺ إلى اليمن. ثم سار إلى الشام، وتوفي فيها سنة ثماني عشرة للهجرة، رضي الله عنه وأرضاه.

لقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عن أمور الخير وطريق الجنة، وما يقرب إليها، وعن النار وما يباعد عنها، وفي هذا الحديث سأل معاذًا النبي ﷺ بقوله رضي الله عنه: (أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار) أي؛ أرشدني إلى عمل شامل جامع لأعمال القلب واللسان والجوارح بحيث لو تمسكت به وسرت عليه يكون سببًا في دخولي الجنة وبعدي عن النار.

فأجابه النبي ﷺ على سؤاله في الحديث بقوله: «لقد سألت عن عظيم» وهو دخول الجنة والمباعدة عن النار، «وإنه» أي العمل الذي يدخل الجنة ويباعد عن النار«ليسير» أي هين.

«على من يسره الله عليه» فيه إشارة إلى أن التوفيق كله بيد الله ﷻ، فهو سهل على من سهله الله عليه بتوفيقه وتهيئة أسبابه له، وشرح صدره إليه، وأعانته عليه، وقد قال النبي ﷺ: «**اعملوا فكل مُيسر لما خلق له. أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم تلا** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

قوله ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئًا» فإن الشرك أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال في سورة الأنعام بعد أن ذكر جملة من الأنبياء ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقال عن نبينا محمد ﷺوحاشاه ذلك ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ثم قال ﷺ: «وتقيم الصلاة»، وإقامتها الإتيان بها على أكمل أحوالها تامة الأركان والواجبات والشروط.

«وتؤتي الزكاة» أي تدفع الزكاة المفروضة لمستحقيها.

«وتصوم» شهر «رمضان»، «وتحج البيت» الحرام لمن استطاع إليه سبيلًا.

هذه أركان الإسلام الخمسة، أرشده ﷺ لعبادة الله وحده مخلصًا له الدين، وإقامة الصلاة، والإتيان بشرائع الإسلام.

ولما رتب دخول الجنة على واجبات الإسلام دله بعد ذلك على أبواب الخير من النوافل.

فقال ﷺ: «ألا أدلك على أبواب الخير؟» وأبواب الخير: مسائله وطرقه المؤدية إليه، وظاهر هذه العبادة أن المراد بها النوافل لأنه ذكر قبل ذلك الفرائض.

(الصوم جنة)، أي سترة ووقاية تقي صاحبها من المعاصي ومن الشهوات، وتقيه في الآخرة من النار والمراد به هنا غير صوم رمضان، ومراده الإكثار من الصوم.

وفي الحديث: «**من صام يومًا في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا**» [متفق عليه]. قال النووي: (معناه المباعدة عن النار والمعافاة منها).

وقوله ﷺ: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار». أي؛

تمحوها وتذهب أثرها، والصدقة تمحو أثر الخطيئة إن كانت من الصغائر بحق الله ﷻ، أما الكبيرة فلا يمحوها إلا التوبة، وأما حق الآدمي فلا يمحوه إلا رضا صاحبه.

وفي الحديث الآخر: «**إن صدقة السر لتطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء**» وأراد بالصدقة هنا غير الزكاة. وقد قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ثم قال ﷺ من جملة الأعمال الصالحة: «وصلاة الرجل في جوف الليل» هذا هو الباب الثالث من أبواب الخير، والمراد بجوف الليل وسط الليل، (ثم تلا) شاهدًا لما قال من أن الصلاة من جوف الليل من أبواب الخير لأنه رتب عليها: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع، حتى بلغ آية يعملون»: أي: قرأ قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي أنهم لا ينامون ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧].

قوله: «وصلاة الرجل في جوف الليل» يعني تطفئ الخطيئة أيضًا كالصدقة فهي من أبواب البر، وهي دأب الصالحين من قبلنا وشعارهم. وخص الرجل بالذكر لأن السائل ذكر، وإلا فمثله المرأة.

وفي الترمذي من حديث بلال ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله ﷻ، ومنهاة عن الإثم، وتكفير السيئات، ومطردة للداء عن الجسد**».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل**».

وخرّج النسائي والترمذي من حديث أبي أمامة: قيل يا رسول الله: أي الدعاء أسمع؟ قال: «**جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات**». وقد رتب عليها الأجر العظيم بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]

ثم قال ﷺ: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله، أي دلني وأخبرني.

قال ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» المراد بالأمر: الدين، ورأسه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وعموده الصلاة المفروضة فلا يقوم إلا بها،

وذروة سنامه: الجهاد في سبيل الله، وذروة كل شيء أعلاه وأرفعه، وهذا يدل على أن الجهاد أفضل الأعمال بعد الفرائض. ولا شيء من معالم الإسلام أشهر ولا أظهر منه، فهو كذروة السنام التي لا شيء من البعير أعلى منه، وعليه يقع بصر الناظر من بُعد. ووجه إيثار الإبل بالذكر في تشبيه مكانة الجهاد بذروة السنام أنها خيار أموالهم، ومن ثم كانوا يشبهون بها رؤساءهم.

وفي رواية الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: **«إن شئت حدثتك برأس هذا الأمر، وقوام هذا الدين، وذروة السنام؟»** قلت: بلى. فقال نبي الله ﷺ: **«إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن قوام هذا الأمر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وإن ذروة السنام منه الجهاد في سبيل الله»**.

ثم قال ﷺ: «ألا أخبرك بملاك ذلك الأمركله؟» قلت: «بلى يا رسول الله»أخبرني.

«فأخذ بلسانه» أي أمسك لسان نفسه بيده، والحكمة في ذلك المبالغة في الزجر «فقال ﷺ: «كف عليك هذا» أي لا تتكلم بما لا يعنيك، وكف اللسان عن المحارم سلامة.

وفي الحديث «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**» «فقلت: يا نبي الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟» أي معاقبون بكل ما نتكلم به «**فقال:** ثكلتك أمك يا معاذ» قوله ﷺ: «**ثكلتك أمك يا معاذ**» أي: فقدتك، والعرب تدعو على الرجل ولا تريد وقوع الأمر به، «وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم -أو قال: مناخرهم-، إلا حصائد ألسنتهم؟!) هذا يدل على أن كف اللسان وضبطه هو أصل الخير كله، وأن من ملك لسانه فقد ملك أمره. وشبه النبي ﷺ ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل، وهو من بلاغة النبوة، فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل أنواع الكلام حسنًا وقبيحًا، والمعنى لا يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم، من الكفر، والقذف، والشتم، والغيبة، والنميمة، والبهتان، ونحوها.

في قوله: «وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم» يعني جزاء الكلام المحرم وعقوباته، وفيه دلاله على أنه ينبغي شغل الإنسان لسانه بالكلام الطيب. وفيه أن ظاهر الحديث يدل على أن أكثر ما يدخل الناس به النار هو النطق بألسنتهم، وذلك لأنه قد

يتكلم الإنسان بالكفر وبالشرك وبسب الله وسب نبيه، وبالدعوة إلى الباطل، وشهادة الزور والسحر والقذف والغيبة والنميمة والاستهزاء وغير ذلك من المعاصي القولية.

والمراد بحصائد الألسنة جزاء الكلام وعقوباته، فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، فمن زرع خيرًا حصد الكرامة، ومن زرع شرًّا حصد الندامة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزلّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**» [رواه البخاري ومسلم]. وفي الحديث الآخر أن النبي ﷺ سُئل: «**أكثر ما يدخل النار؟** قال: «**الأجوفان الفم والفرج**» [رواه ابن ماجة].

وقال يحيى بن أبي كثير: (ما صلح منطق رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله).

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

وفي الحديث السابق عن النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**».

قال شيخ الإسلام: (ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يُشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يُلقي لها بالًا، يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل مُتورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن بعض الناس لا تراه إلا منتقدًا داءً ينسى حسنات الطوائف والأجناس، ويذكر مثالبهم، فهو مثل الذباب يترك موضع البرء والسلامة، ويقع على الجرح والأذى، وهذا من رداءة النفوس وفساد المزاج).

وقد ورد في هذا الحديث جملة من الوصايا العظيمة هي:

الأولى: إقامة فرائض الإسلام الخمسة.

والثانية: السعي في أبواب الخير الثلاثة: الصوم النافلة، والصدقة، وصلاة الليل، ففيها وقاية من النار، ومن الذنوب والمعاصي.

والثالثة: في بيان بنيان الدين (وقد شبه بالفحل من الإبل): فرأسه الإسلام، وعموده الصلاة، وأعلاه الجهاد.

والرابعة: في الجامع لهذا: هو كف اللسان عن الحرام.

وفيه دليل على أن الأعمال سبب لدخول الجنة كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]. وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] وأما قوله ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحد منكم بعمله**» فالمراد أن العمل بنفسه لا يستحق به أحد الجنة لولا رحمة الله، فالجنة وأسبابها من فضل الله ورحمته.

وفي الدعاء المأثور: (**ونسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل**).

إن أمر هذا الدين عظيم، لكن في دعاء الله وتقواه ما ييسر على العبد الأخذ والالتزام بالأوامر والبعد عن النواهي طمعًا ورجاء في رحمة ربه ومغفرته لينال جنته.

ومن فوائد الحديث: حرص الصحابة رضي الله عنهم على العلم.

وفيه: علو همة معاذ رضي الله عنه حيث لم يسأل عن أمور الدنيا.

وفيه: ان العمل الصالح يدخل الجنة ويباعد عن النار.

وفيه: تيسير الطاعة والعبادة على من يسرها الله عليه.

الحديث الثلاثون

روى الدار قطني وغيره عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ جُرْثُوم بن نَاشِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا».

رسمت الشريعة منهجًا عظيمًا وطريقًا موصلًا إلى الصراط المستقيم، وفي الحديث حدد لنا ﷺ معالم هذا الدين وطبيعته، فأوضحت الحلال وحذرت من الحرام، ولم تدع شاردة ولا واردة إلا وبينتها ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين، فمن عمل بهذا الحديث، فقد حاز الثواب، وأمن العقاب، لأن من أدى الفرائض، واجتنب المحارم، ووقف عند الحدود، وترك البحث عما غاب عنه فقد استوفى أقسام الفضل، وأوفى حقوق الدين، لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث.

فعبر عن شرع الله بألفاظ أربع: الفرائض، والمحارم، والحدود، والمسكوت عنه.

وأول قضية يتناولها الحديث بيان موقف المكلف نحو ما يرد عليه من الأوامر في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

قال ابن حجر: (هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ الوجيزة البليغة؛ وذلك لتضمنه جميع قواعد الشرع وأحكامه وآدابه؛ إذ الحكم الشرعي إما مسكوت عنه أو متكلم به؛ وهو إما مأمور به وجوبًا أو ندبا، أو منهي عنه تحريمًا أو كراهة، أو مباح؛ فالواجب: حقه ألا يُضيع، والحرام: حقه ألا يقارب، والحدود - وهي الزواجر الشرعية؛ كحد الردة والزنا والسرقة والشرب: حقها أن تقام على أهلها من غير محاباة ولا عدوان).

وفي قوله ﷺ: (إن الله تعالى فرض) أي؛ أوجب سبحانه وتعالى وألزم عباده، (فرائض) فرضها عليهم وبينها في كتابه وسنة نبيه ﷺ (فلاتضيعوها) تهاونًا أو كسلًا (وحد حدودًا) (فلا تعتدوها) وأما قوله (فلا تنتهكوها) أي فلا تدخلوا فيها.

قوله ﷺ: «وسكت عن أشياء» وهو الذي لم يذكر حكمه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم بالنص عليه. وكل ذلك «رحمةً لكم غير

نسيان فلا تبحثوا عنها» وهذا موافق لقوله ﷺ: «**ذروني ما تركتكم فإنما أهلك الذين قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم**».

قال بعض العلماء: كانت بنو إسرائيل يسألون فيجابون، ويعطون ما طلبوا، حتى كان ذلك فتنة لهم، وأدى ذلك إلى هلاكهم، وكان الصحابة ﷺ قد فهموا ذلك، وكفوا عن السؤال إلا فيما لا بد منه، وكان يعجبهم أن يجيء الأعراب يسألون رسول الله ﷺ فيسمعون ويعون.

قوله ﷺ: «إن الله ـ تعالى ـ فرض فرائض» وهو الواجبات التي أوجبها الله على عباده وألزمهم بها. وذهب بعض أهل العلم إلى أن ما ثبت عن طريق الكتاب فرضًا، وما ثبت عن طريق السنة واجبًا.

«فلا تضيعوها» أي؛ بالإخلال بها، إما بتركها، أو بترك ركن من أركانها؛ أو شرط من الشروط المتوقف على صحتها عليه.

وفي هذا توجيه عظيم إلى عدم التفريط في أداء الفرائض، والفرائض هي الواجبات التي أوجبها الله على عباده وألزمهم بها، ومنها ما يكون واجبًا على كل أفراد الأمة، وهو ما يسمى بالفرائض العينية، ومنها ما هو واجب على الكفاية، أي إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين. فهذه الفرائض - بنوعيها - واجبة على كل مكلف ما دام مستطيعًا، وإذا ورد الأمر من الله تعالى أو من رسوله

ﷺ فلا مجال لرده أو عدم القيام به، لأن هذا هو مقتضى إيمان العبد بالله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] فهذه الطاعة هي عنوان العبودية والتسليم لحكم الله وشرعه.

ثم ذكر ﷺ ما يتعلق بالمحرمات، فأرشد إلى تركها، فدعا إلى ترك المعاصي بجميع أنواعها، وإنما عبر عنها بلفظ الانتهاك، ليبين ما عليه حال من يقارف المعاصي من تعد وعدوان على أحكام الله ﷻ، فأتى بهذه اللفظة للتنفير عن كل ما نهى الله عنه.

قال ﷺ:

«وحد حدودًا» أي بيَّن وعين أحكامًا كحد الزنا والسرقة.

«فلا تعتدوها» أي لا تتجاوزوها.

وقيل: حدود الله: أحكامه وأوامره ونواهيه، فلا تعتدوها. أي؛ فلا تتجاوزوا عنها بتركها.

«وحرم أشياء» التنكير للتكثير.

«فلا تنتهكوها» بالوقوع فيها ولا تقربوها، مثل الشرك والزنا والخمر، وعقوق الوالدين، وقتل النفس إلا بالحق، والسرقة وأشياء كثيرة؛ وكأن التحريم كالحجاب الحائل بين المكلف وبينها فلا يصل إليها إلا بانتهاكه وخرقه.

وإنما عبر عنه بلفظ الانتهاك؛ ليبين ما عليه حال من يقارف المعاصي من تعد وعدوان على أحكام الله، فأتى بهذه اللفظة لتنفير عن كل ما نهى الله عنه.

«وسكت عن أشياء» أي؛ لم يحكم فيها بوجوب أو حل أو حرمه. فهي شرعًا على الإباحة الأصلية.

«رحمة لكم» أي؛ من أجل الرحمة والتخفيف عنكم.

«غير نسيان» أي؛ سكوت عن إظهار الحكمة، ومقتضاه أن يكون باقيًا على أصل إباحته. لأن النسيان مستحيل عليه سبحانه وتعالى.

وإذا كان الأمر كذلك.

«فلا تبحثوا عنها» أي؛ فلا تسألوا عن حالها، لأن السؤال عما سكت الله عنه يفضي إلى التكاليف الشاقة. إنه سكوت عن إظهار حكمه، ومقتضاه أن يكون باقيًا على أصل إباحته، وليس معنى هذا جواز الابتداع في الدين والزيادة فيه، بحجة أنه مسكوت عنه، فإن الابتداع ليس مسكوتًا عنه، بل هو محرم كما دلت الأدلة على ذلك.

وهذا الحديث أصل كبير من أصول الدين وفروعه، من عمل به فقد حاز الثواب، وأمن العقاب؛ لأن من أدى الفرائض التي فرضها الله على عباده وألزمهم القيام بها وأوجبها عليهم، واجتنب المحارم،

وهي المعاصي وهي الأفعال التي منع الله من قربانها وارتكابها وانتهاكها ووقف عند الحدود وهي ما نهى الله عن تجاوزها وتعديها قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وقد تطلق الحدود ويراد بها الذنوب قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] وقد يراد بالحدود العقوبات الشرعية المقدرة، وترك البحث عما غاب عنه، فقد استوفى أقسام الفضل، وأوفى حقوق الدين.

قال أبوبكر ابن السمعاني - رحمه الله تعالى -: (من عمل بهذا الحديث فقد حاز الثواب وأمن العقاب، لأن من أدى الفرائض واجتنب المحارم ووقف عند الحدود، وترك البحث عما غاب عنه، فقد استوفى أقسام الفضل، وأوفى حقوق الدين، لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث).

وأخرج البزار في مسنده والحاكم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا**» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وظاهر هذا الحديث أن الله ﷻ يسكت لكنه ليس سكوتًا مطلقًا، فلا يقال: السكوت من الله وصف، وإنما يقال: فعل لأن ما ينسب إلى الله ثلاثة أشياء: أسماء، وصفات، وأفعال، والسكوت من الأفعال وليس من الأسماء ولا من الصفات، وهذا من كمال الله ﷻ، فإنه سبحانه إذا شاء تكلم وإذا شاء لم يتكلم.

إن عنوان سعاد العبد في هذه الحياة هو أساس فلاحه في الدنيا والآخرة، وأن يكون حافظًا لحدود الله محافظًا على أوامره حافظا نفسه في طاعة الله، ومن حفظ الله حفظه الله، ومن اتقى الله وقاه.

والله ﷻ أمر بالعدل فيما يتعلق بحقوقه وما افترضه على عباده، وبالعدل فيما يتعلق بحقوق العباد بعضهم مع بعض، والعدل هو القيام بالواجب على وجهه سالمًا من التفريط والإفراط، ومن أعظم ما يدخل فيه من حقوق الله، تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علمًا وعملًا واعتقادًا، ومحبة واجلالًا وتعظيمًا، ظاهرًا وباطنًا، والقيام بما هو من حقوقها ولوازمها وهو أداء الفرائض، والواجبات الشرعية بإخلاص ونية صادقة وتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله بمحبته وطاعته، ومتابعته متابعة صادقة، وامتثال أوامره واجتناب نواهية سواء ما وافق رغبات النفس أو ما لا يوافق رغباتها لقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

ونهى سبحانه عن الفحشاء، والفحشاء كل أمر قبيح فاحش من الأمور التي حرمها الشرع وحذر منها، وعن المنكر؛ أي ما أنكره الشرع وحذر منه. وأعظمه الشرك بالله وقتل النفس والزنا وغيرها.

وفي الحديث: الحلال من أحله الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وكذلك الحرام ما حرمه.

وفيه: لا ينبغي تضييع حدود الله وتجاوزها.

وفيه: سعة رحمة الله بعبادة ولطفه بهم.

وفيه: أن ما سكت عنه الشرع إنما هو عافية للأمة، فربنا أحصى لكل شيء وأحاط به علمًا، وما كان ربك نسيًا.

وفيه: كراهة التنطع في السؤال عما لم يقع والتشدد في البحث عما تركه الشارع، لأن ذلك قد يفضي إلى التكاليف الشاقة، وهذا كان في عصر النبوة.

الحديث الواحد والثلاثون

روى ابن ماجة عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﵁ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؛ فَقَالَ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ».

حرص الصحابة ﵃ على معرفة ما يقربهم إلى الله، وينفعهم في حياتهم وتعاملاتهم، وهذا من باب جمع خيري الدنيا والآخرة. وقد سئل أحد الصحابة ﵁ الرسول ﷺ بقوله: (دلني) ونبهني (على عمل إذا عملته) مريدًا به وجه الله؛ (أحبني الله، وأحبني الناس). وهذا مطلب عال يطلب فيه السائل ما يجلب محبة الله له، وما يجلب محبة الناس له.

فدله النبي ﷺ على وصيتين عظيمتين وقاعدتين أساسيتين، هي عنوان محبة الله ومحبة الناس.

ومحبة الله لعباده الزهد في الدنيا. ومحبة الناس بالإعراض عما في أيديهم فيميلون إليه ميلًا طبعيًا، وهذا الحديث هو أحد الأحاديث

التي عليها مدار الإسلام، إذ الزهد في الدنيا فيه محبة الله، والزهد فيما عند الناس فيه العزة والعفة ومحبة الناس.

قال أبو داود: (أصول السنن في كل فن أربعة أحاديث: حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات)، وحديث: (الحلال بيِّن والحرام بيِّن)، وحديث: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، وحديث: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس).

قال ﷺ في الحديث:

«أزهد في الدنيا» الزهد؛ هو القناعة بما أعطاك الله، والتعفف عن الناس من نحو مال وجاه، وأعرض مما لا تدعو إليه الضرورة.

وفي الحديث (وازهد فيما أيدي الناس) والزهد فيما في أيدي الناس ألا يتعلق القلب بما في أيدي الآخرين، ويتضمن هذا عدم سؤال الآخرين بشيء من أموالهم من أجل حاجة النفس.

قال شيخ الإسلام: (فأعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق، إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم).

والزهد: ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا وإن كان حلالًا، والاقتصار على الكفاية، والورع ترك الشبهات. قيل: أعقل الناس

الزهاد، لأنهم أحبوا ما أحبه الله، وكرهوا ما كره الله من جمع الدنيا، واستعملوا الراحة لأنفسهم. وقد وصى النبي ﷺ جماعة من الصحابة أن يكون بلاغ أحدهم من الدنيا كزاد الراكب، ووصى ابن عمر أن يكون في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل، وأن يعد نفسه من أهل القبور.

قال شيخ الإسلام: (والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة، فأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك، فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر، أو زهد فيما لا ينفع، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال، كما قال النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**» [رواه مسلم].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الزهد هو ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، أما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع).

وقال سفيان الثوري: (الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباءة).

ووجه هذا أن قصر الأمل يوجب محبة لقاء الله بالخروج من الدنيا، وطول الأمل يقتضي محبة البقاء فيها، فمن قصر أمله، فقد

كره البقاء في الدنيا، وهذا نهاية الزهد فيها، والإعراض عنها، فالزهد في الدنيا يراد به تفريغ القلب من التعلق بها والاشتغال لها، ليتفرغ لطلب الله، ومعرفته والقرب منه، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وهذه الأمور ليست في الدنيا.

وذم الدنيا ومحبتها يكون مذمومًا إذا كان إيثارًا لشهوة النفس وانشغالًا بغير الحق ـ سبحانه ـ، أما حبها لفعل الخير وإعانة الخلق فليس بمذموم، بل هو عبادة وطاعة لله ﷻ.

قوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله» فمحبة الخالق للعبد منزلة عظيمة، فهي مفتاح السعادة وباب الخير.

وفيه: دليل على أن الزهد أعلى المقامات وأفضلها، لأنه جعله سببًا لمحبة الله ـ تعالى ـ.

وقال أيوب السختياني: (لا يقبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان؛ العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم).

وفي الحديث المرفوع: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**» [رواه البيهقي].

ثم قال ﷺ: «وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» أي؛ اعرض عما في أيديهم من الدنيا وأن لا يكون قلبك متعلقًا بما في أيدي الناس من نعيم الدنيا، فإذا فعل العبد ذلك، مالت إليه قلوب الناس،

وأحبته نفوسهم؛ والسر في ذلك أن القلوب مجبولة على حب الدنيا، وهذا الحب يبعثها على بغض من نازعها في أمرها، فإذا تعفف العبد عما في أيدي الناس، عظم في أعينهم، لركونهم إلى جانبه وأمنهم من حقده وحسده، ومحبة الناس معينة على الطاعة وسائر أمور الدنيا.

قال الحسن: (لا تزال كريمًا على الناس، أو لا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك).

وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس والاستغناء عنهم.

في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سأل الناس أموالهم تكثرًا فإنما يسأل جمر جهنم، فليقل أو ليستكثر**» [رواه مسلم].

قال الغزالي: (والسؤال في الأصل أنه حرام، وإنما يباح لضرورة أو حاجة ملحة قريبة من الضرورة، لما فيه من الشكوى من الله تعالى، وفيه إظهار قصور نعمة الله على عبده، وهو عين الشكوى، وفيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وكذلك أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالبًا، فقد يعطيه حياء أو رياء، وهذا حرام على الآخذ).

وقال الشيخ ابن عثيمين: (فالمسكين يجب عليه الصبر، ويجب

عليه أن يمتنع عن سؤال الناس، لا يسأل إلا عند الضرورة القصوى، إذا حلت له الميتة حل له السؤال).

وقد أخذ النبي ﷺ البيعة على بعض أصحابه في الحديث ومنه«**ولا تسألوا الناس شيئًا**» «قال راوي الحديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه» [رواه مسلم].

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من يتقبل لي بواحدة، أتقبل له الجنة**» قال: قلت: أنا يا رسول الله، قال: «**لا تسأل الناس شيئًا**» قال فربما سقط سوط ثوبان وهو على بعيره، فما يسأل أحدًا أن يناوله، حتى ينزل إليه فيأخذه» [رواه أحمد].

قال يحيى بن معاذ: (لست آمركم بترك الدنيا، آمركم بترك الذنوب، ترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة، وأنتم إلى إقامة الفريضة أحوج منكم إلى الحسنات والفضائل).

وفي الحديث: الدلالة على القناعة بالرزق الحلال والرضا به بعد بذل أقصى الجهد في السعي والعمل، والتعفف عن الحرام والشكر على الحلال وإنفاقه في الوجوه المشروعة.

والزهد ليس بالفقر والاستجداء والتذلل والكسل، وإنما هو بغنى النفس والتعفف.

والمراد بالزهد في الشيء: الرغبة عنه. والفرق بين الورع والزهد، أن الورع: ترك ما يضر، وأما الزهد: فهو ترك ما لا ينفع، والزهد في الدنيا قد ورد إشارات تتضمن مدحه، منها قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦: ١٧] وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ﴾ [القصص: ٨٣].

قال أبو إدريس الخولاني: (الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، إنما الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أصبت بمصيبة كنت أشد رجاء لأجرها منها لو بقيت).

وقيل لأبي حازم الزاهد: (ما مالك؟ قال: لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما في أيدي الناس).

وقال الفضيل بن عياض: (أصل الزهد الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ).

وسئل الزهري من الزاهد؟ فقال: (من لم يغلب الحرام صبره، ولم يشغل الحلال شكره).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: (الزهد في الدنيا قصر الأمل، واليأس مما في أيدي الناس).

وقال إبراهيم بن أدهم: (الزهد ثلاثة أصناف: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة، فأما الزهد الفرض: فالزهد في الحرام، والزهد الفضل: الزهد في الحلال، والزهد السلامة: الزهد في الشبهات).

وقال سعيد بن جبير: (متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما يلهك فليس متاع الغرور، ولكنه متاع بلاغ إلى ما هو خير منه).

وقال النبي ﷺ: «**من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله عليه أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**» [رواه أحمد].

وليس المراد بالزهد ترك التكسب، قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وكان عمر يقول في خطبته على المنبر: (إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن الإنسان إذا آيس من شيء استغنى عنه).

وروي أن عبد الله بن سلام لقي كعب الأحبار عند عمر فقال: يا كعب من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به. قال: فما يذهب

بالعلم من قلوب العلماء بعد أن حفظوه وعقلوه؟ قال: يذهبه الطمع، وشَرَه النفس، وتطلب الحاجات إلى الناس. قال: صدقت.

ومن زهد فيما أيدي الناس وعف عنهم، فإنهم يحبونه ويكرمونه لذلك، ويسود به عليهم.

قال أعرابي لأهل البصرة: (من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال: بما سادهم؟ قالوا احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم).

وقد أجمل النبي ﷺ الحديث عن الدنيا وحال المؤمن فيها بقوله ﷺ: «**مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**» [رواه الترمذي].

وفي الحديث إثبات صفة المحبة لله ﷻ، فالله ﷻ يُحِب، ويُحَب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي الحديث كما روى ذلك الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من كانت الآخرة همه جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه شتت الله شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، والسعيد من اختار باقية يدوم نعيمها على بالية لا ينفد عذابها**».

ولما كان العمل وطلب العيش والتكسب من ضروريات الحياة ولوازمها هيأ الله لعباده مصادر الرزق وطرقه وأسبابه، وقد حث الإسلام على الكسب والتعفف عما في أيدي الناس، وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري أن النبي ﷺ قال: «**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحد فيعطيه أو يمنعه**».

وقال ﷺ عندما سُئل عن الكسب الطيب، قال ﷺ: «**عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور**» [رواه أحمد] وفي الحديث الآخر عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود** عليه السلام **كان يأكل من عمل يده**» [رواه البخاري].

وأعظم الله الأجر لمن يعول نفسه وذريته، فإنه لما مر رجل على النبي ﷺ فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه ما رأوا فقالوا: يا رسول الله لوكان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان**» [رواه الطبراني].

وقدم الله ﷿ الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل على المجاهدين في سبيله في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المزمل: ٢٠].

وفي الحديث: علو همم الصحابة ﵃.

وفيه: إثبات محبة الله ﷿.

وفيه: فضيلة الزهد في الدنيا، وأن الزهد مرتبة أعلى من الورع، وأنه من أسباب محبة الله.

وفيه: فضيلة التعفف عما في أيدي الناس.

الحديث الثاني والثلاثون

الأخوة بين المسلمين هي سبيل وطريق الحياة الطيبة، فهم يتعاونون على البر والتقوى والنصح والمحبة فيما بينهم، ولذا حرم الإسلام التقاطع والتدابر، والغيبة والنميمة وكل ما فيه ضرر على أخيك المسلم، بل الواجب نشر المحبة والوئام والصفاء والتسامح والتجاوز والإعانة.

وفي هذا الحديث:

روى ابن ماجة والدار قطني عَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ».

هذا الحديث أصل عظيم وقاعدة من قواعد الفقه وهو قاعدة عظيمة عند أهل العلم مع قصر ألفاظه، واختصار كلماته، إلا أنه يشمل على قواعد وليس على قاعدة واحدة فحسب.

وقد وضع النبي ﷺ قاعدة عظيمة في التعامل فيما بيننا وفي التعامل مع أنفسنا، وفي قوله ﷺ: «لا ضرر» والضرر يكون في البدن، ويكون في المال، ويكون في الأولاد، ويكون في غيره. وقوله ﷺ:

«ولا ضرر» أي ولا مضاره. والضرر ضد النفع.

والمضارة بالناس على نوعين:

الأول: أن يضرهم فيما لا يعود عليه بمصلحة.

والثاني: أن يضرهم بما له فيه مصلحة.

والأول أقبح ويدل على صدورة من غير عاقل، لكنه حاسد لا يريد الخير لا لنفسه ولا للناس، وإنما كل سعيه أن يزول الخير عن الناس سواء انتفع هو أم لم ينتفع.

والفرق بين الضرر والضرار: أن الضرر يحصل بدون قصد، والمضارة بقصد، ولهذا جاءت بصيغة المفاعلة.

قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». الضرر: هو أن يدخل على غيره ضررًا بما ينتفع هو به بغير حق.

قيل: والضرار: هو أن يدخل على غيره ضررًا بلا منفعة، كمن منع مالًا يضره، وقيل الضرر أن يضرّ به من لا يضره، والضرار: أن يضر بمن قد أضر به على وجه غير جائز، والمراد إدخال الضرر بغير حق، فيكون الضرر أعم فعطف الضرار عليه من عطف الخاص على العام.

وفيه: الحث على الكلمة الطيبة، وإزالة الأذى عن الطريق.

وفيه: أن كل ما يقرب إلى الله ﷻ من عبادة وإحسان إلى خلقه فإنه صدقة.

وهذا الحديث أصل عظيم في أبواب كثيرة، ولاسيما في المعاملات، كالبيع والشراء والرهن والارتهان، وكذلك في الأنكحة يضار الرجل زوجته أو هي تضار زوجها، وكذلك في الوصايا يوصي الرجل وصية يضر بها الورثة.

قال أبو داود: الفقه يدور على خمسة أحاديث: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**».

وقول النبي ﷺ: «لاضرر ولا ضرار» وقوله: «**إنما الأعمال بالنيات**». وقوله: «**الدين النصيحة**». وقوله: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**».

وفي هذا الحديث قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار» زاد الحاكم «**من ضارّ ضرّه الله، ومن شاقّ شقّ الله عليه**».

وفي رواية للدارقطني عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لا ضرر ولا ضرورة، ولا يمنعنّ أحدكم جاره أن يضع خشبته على حائطه**».

وفي الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ملعون من ضارّ مؤمنًا أو مكر به**». وقد قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ [النساء: ١٢].

وقال النبي ﷺ: «**إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضره الموت فيضارّ في الوصية فيدخل النار**».

وقال تعالى في حق الزوجات: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ﴾ [الطلاق: ٦] وقال تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقد جاء النهي عن الإضرار بالزوجة وغيرها وذلك باساءة عشرتها وإلحاق الضرر بها والله ﷻ يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فمن ذلك أن يؤذي زوجته لكي تفتدي منه، وترد إليه ما أعطاها من مهر. وقد قال ﷺ: «**إن أعظم الذنوب عند الله رجل تزوج امرأة فلما قضى حاجته منها طلقها وذهب بمهرها، ورجل استعمل رجلًا فذهب بأجرته، وآخر يقتل دابة عبثًا**» [رواه الحاكم وصححه الالباني].

قال ابن عثيمين: ومن صور الاضرار بالزوجة: كانوا في الجاهلية يطلق الرجل المرأة فإذا شارفت انقضاء العدة راجعها، ثم طلقها

ثانية فإذا شارفت انقضاء العدة راجعها، ثم طلقها ثالثة ورابعة، لقصد الاضرار، فرفع الله تعالى ذلك إلى حد ثلاث طلقات فقط.

ومن ذلك مثلًا: رجل طلق امرأته ولها أولاد منه، حضانتهم للأم إلا إذا تزوجت، والمرأة تريد أن تتزوج ولكن تخشى إذا تزوجت أن يأخذ أولاده، فتجده يهددها ويقول: إن تزوجتِ أخذت الأولاد، وهو ليس له رغبة في الأولاد ولا يريدهم، ولو أخذهم لأضاعهم لكن قصده المضارة بالمرأة بأن لا تتزوج، فهذا لا شك أنه حرام وعدوان عليها، ولو تزوجت وأخذت أولادها معها مع قيامها بواجب الحضانة ورضا زوجها الثاني بذلك، لكن قال: أريد أن أضارها، ونعرف أنه إذا أخذهم لم يهتم بهم، بل ربما يدعهم تحت رعاية ضرة أمهم، يعني الزوجة الثانية، وما ظنك إذا كان أولاد ضرتها تحت رعايتها سوف تهملهم، وسوف تقدم أولادها عليهم، وسوف تهينهم ولكنه أخذهم لمضارة، فهذا لا شك أنه من المحرم.

مثال آخر: رجل أوصى بعد موته بنصف ماله لرجل آخر من أجل أن ينقص سهام الورثة فهذا محرم عليه مع أن للورثة أن يبطلوا ما زاد على الثلث.

مثال آخر: رجل له ابن عم بعيد لا يرثه غيره، فأراد أن يضاره وأوصى بثلث ماله مضارة لابن العم البعيد أن لا يأخذ المال فهذا أيضًا حرام.

ويدخل في ذلك التدليس والغش في المعاملات وكتم العيوب فيها، والمكر والخداع والنجش وتلقي الركبان، وبيع المسلم على بيع أخيه، والشراء من شرائه، ومثله الإجارات وجميع المعاملات والخطبة على خطبة أخيه، وكل معاملة من هذا النوع، فإن الله لا يبارك فيها، لأنه من ضار مسلمًا ضاره الله، ومن ضاره الله تخل عن الخير وتوجه إليه الشر، ذلك بما كسبت يداه، ويدخل في ذلك مضارة الشريك لشريكه والجار لجاره بقول أوفعل، حتى أنه لا يحل له أن يُحدث بملكه ما يضر بجاره فضلًا عن مباشرة الإضرار به.

ومن أمثلة ما وقع النهي فيه عن الإضرار بالآخرين، الإضرار في الوصايا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢] ومن ذلك يخص أحد ورثته بأكثر مما له، أو ينقص الوارث، أو يوصي لغير وارثه، بقصد الإضرار بالورثة، ومن ذلك الوقيعة في الناس عند الولاة ليغريهم بعقوبة أوأخذ ماله أومنعه من حق هو له.

وكذا نهى الشرع عن الإضرار بالوالد أوالرضيع في الرضاعة، قال تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وفي الحديث تحريم مضارة المسلم، ومعصوم الدم والمال، ومن أضر بأخيه فقد ظلمه والظلم حرام. وأخرج أبو داود في المراسيل عن واسع بن حبان قال: «كان لأبي لبابة عذق في حائط رجل فكلمه. فقال: إنك تطأ حائطي إلى عذقك فأنا أعطيك مثله في حائط وأخرجه عني فأبى عليه، فكلم النبي ﷺ. فقال: «**يا أبا لبابة: خذ مثل عذقك فحزها إلى مالك، واكفف عن صاحبك ما يكره**»، فقال: ما أنا بفاعل. فقال: «**اذهب فأخرج له عذقه إلى حائطه، ثم اضرب فوق ذلك بجدار فإنه لا ضرر في الإسلام ولا ضرار**».

وفي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**» [رواه مسلم].

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ملعون من ضار مؤمنًا أو مكر به**» [رواه الترمذي].

وأخرج أبو داود أيضًا في السنن من حديث أبي جعفر محمد بن علي أنه حدث عن سمرة بن جندب «أنه كان له عذق من نخل في

حائط رجل من الأنصار ومع الرجل أهله، وكان سمرة يدخل إلى نخلة فيتأذى به وشق عليه، فطلب إليه أن يناقله فابى، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له فطلب إليه النبي ﷺ أن يبيعه فأبى، فطلب إليه أن يناقله فأبى. قال: فهبه لي ولك كذا مدًّا رغبه فيه فأبى. فقال: أنت مضارّ. فقال النبي ﷺ للأنصاري: «**اذهب فاقلع نخله**». قال أحمد في رواية حنبل: كل ما كان على هذه الجهة وفيه ضرر يمنع من ذلك، فإن أجاب وإلا أجبره السلطان، ولا يضر بأخيه في ذلك وفيه مرفق له.

قال ابن رجب: ويستدل بذلك على وجوب العمارة على الشريك الممتنع منها، وعلى إيجاب البيع إذا تعذرت القسمة.

ومن صور المضارة أيضًا: المضارة بالمدين المعسر الذي أمر الله بإنظاره إلى ميسرة أو إعفائه من الدين أو من بعضه، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ورد النهي عن الإضرار في أمور كثيرة. ومسائل الضرر في الأحكام كثيرة جدًّا، فيجتهد الحاكم في ذلك، فإن كان الضرر بحق أمضاه، وإن كان للتعنت والبغي والتطاول والحسد، فلا ضرر ولا ضرار.

وقد قضى عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على محمد بن مسلمة أن يجرى ماء جاره في أرضه وقال: (لنمرنّ به ولو على بطنك).

وهذا الحديث يعتبر قاعدة من قواعد الشريعة، وهي أن الشريعة لا تقر الضرر وتنكر الإضرار أشد وأشد.

وإن الحاق الضرر بالأمة أفرادًا وجماعة أمر محرم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

والجزاء من جنس العمل، قال ﷺ: «**من ضار ضار الله به، ومن شاق شاق الله به**» [رواه أحمد]. ومن الأضرار أن يخطب المسلم على خطبة أخيه، فإذا خطب امرأة حرم عليك أن تخطبها حتى تتبين لك أنهم ردوا ذلك، أو أذن لك الآخر، وكل ذلك حتى لا تحلق الأذى والضرر بأخيك المسلم فليتق المسلم ربه، وليتجنب الضرر، وليكن داعية خير، ينصح بالخير في أقواله وأعماله. قال يحي بن معاذ: (ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه).

بل الأصل في علاقة ا لمسلم بالمسلم ما قاله النبي ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في**

حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره ا لله يوم القيامة» [رواه البخاري ومسلم].

وفي الحديث الآخر: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**» [رواه مسلم].

وفي الحديث: النهي عن الضرر ورفعه.

وفيه: أن المعاملة الحسنة هي الأصل بين المسلمين.

وفيه: أن الإحسان إلى الناس من أسباب الألفة ودفع الشقاق.

الحديث الثالث والثلاثون

روى البيهقي في السنن عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ، لَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ».

هذا الحديث من أجلِّ الأحاديث وأرفعها، وأقوى الحجج وأنفعها، وهوقاعدة عظيمة من قواعد الشريعة، وأصل عظيم من أصول الأحكام، وطرق الحكم، وأعظم مرجع عند التنازع والخصام، ويقتضي أن لا يحكم لأحد بدعواه.

قال النووي: (وهذا الحديث قاعدة كبيرة من قواعد أحكام الشرع، ففيه أنه لا يقبل قول إنسان فيما يدعيه بمجرد دعواه، بل يحتاج إلى بينة، أو تصديق المدعى عليه، فإن طلب يمين المدعى عليه فله ذلك).

ومن مقاصد الشريعة حماية أموال الناس ودمائهم لأنها جاءت لحماية أموال الناس ولحفظ دمائهم، وإقامة العدل ودفع الظلم.

والذي في الصحيحين منه: «لو يعطى الناس» أي، لو يجاب في دعواه

«بدعواهم» بمجرد قولهم أو طلبهم «لا دعى ناس دماء رجال وأموالهم» أي لاستباح الناس دماء غيرهم دون حق، «**ولكن اليمين على المدعى عليه**»أي الحلف على نفي ما ادُعي به عليه.

وفي رواية: «**أن النبي ﷺ قضى أن اليمين على المدعى عليه**». وفي الصحيحين أيضًا: «أن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**شاهداك أو يمينه**» قلت: إذًا يحلف ولا يبالي. فقال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين يستحق بها مالًا هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان**» فأنزل الله تصديق ذلك، ثم قرأ هذه الآية:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [آل عمران: ٧٧]. وفي رواية لمسلم بعد قوله: إذًا يحلف «**قال ليس لك إلا ذلك**».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**البينة على المدعى واليمين على من أنكر إلا في القسامة**». وقال قتادة: فصل الخطاب الذي أوتيه داود ؑ هو أن البينة على المدعى، واليمين على من أنكر.

ذكر في الحديث الدعوى تكون في الأموال والدماء، وهو كذلك، وتكون في الأموال والأعيان، وفي الأموال والمنافع، كأن يدعي أن

هذه أجره بيته لمدة سنة فهذه منافع، وتكون أيضًا في الحقوق كأن يدعي الرجل أن زوجته لا تقوم بحقه أو بالعكس، فالدعوى بابها واسع، وذكر ﷺ المال والدم على سبيل المثال، وإلا قد يُدعى حقوقًا أخرى.

وفي قوله ﷺ: «لو يعطى الناس بدعواهم» المراد برجال هنا، هم الذين لا يخافون الله تعالى. أي بما يدعونه على غيرهم، وليعلم أن إضافة الشيء تكون على أوجه:

الأول: أن يضيف لنفسه شيئًا لغيره، مثل أن يقول (لفلان علي كذا) فهذا إقرار.

الثاني: أن يضيف شيئًا لنفسه على غيره مثل أن يقول: (لي على فلان كذا وكذا) فهذه دعوى.

والثالث: أن يضيف شيئًا لغيره على غيره، مثل أن يقول: (لفلان على فلان كذا كذا) فهذه شهادة.

وفي الحديث قوله ﷺ: «لكن البينة على المدعى» البينة: هي ما أبان الحق وأظهره، والتي تؤيد صدق دعوى المدعي فيحكم الحاكم بإقرار المدعى عليه، أو بشهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، أو رجل ويمين المدعى، وبيمين المنكر، وبيمين الرد، وبعلمه إذا لم يتهم.

«واليمين» أي دفع الدعوى «على من أنكر» أي على من أنكر دعوى خصمه إذا لم يكن لخصمه بينه. فإنه إذا فقد الدليل فلابد من اليمين، وهو فصل الخطاب.

والحكمة في اختصاص المدعى بالبينة، والمنكر باليمين لأن الشخص الذي ادعى على غيره أمرًا، فإنه يدعي أمرًا خفيًا يخالف ظاهر الحال، فلذلك يحتاج إلى أن يسند دعواه تلك ببينة ظاهرة قوية تؤيد صحة دعواه، بينما يتمسك المُنكر بظاهر الأمر، ويبقى العمل على الأصل، فجاءت الحجة -وهي اليمين- في حقه.

فإذا لم يأت المدعي بالبينة، وأنكر المدعى عليه استحقاق خصمه وحلف على ذلك لزم القاضي أن يحكم لصالح المنكر، لأنه حكمه هذا مبني على ظاهر الأمر والحال.

لكن ثمة أمر ينبغي التنبيه عليه، وهو أن قضاء القاضي لا يحل حرامًا ولا يحل حلالًا، ولا يغير من حقائق الأمور لأنه لا يعلم الغيب، وقد يكون هناك من الأدلة الزائفة أو الشهادات الكاذبة ما يخفى عليه فيحكم بموجبها كما ثبت في البخاري عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ قال: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو**

مما أسمع، فمن قضيت له عن حق أخيه شيئًا فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار».

وقد شدد النبي ﷺ على التخويف من أخذ الحرام لأنه قد يوجد من الناس من لا رادع عنده ولا تقوى، فقال: «**من حلف على يمين ليستحق بها مالًا هو فيها فاجر** -أي كاذب- **لقي الله وهو عليه غضبان**» وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «**أن النبي ﷺ قضى بيمين وشاهد**» [رواه مسلم وأبو داود والنسائي].

وعن جابر رضي الله عنه: «أن رجلين اختصما في ناقة، فقال كل واحد منهما نتجت هذه الناقة عندي واقاما بينة، فقضى بها رسول الله ﷺ للذي هي في يده».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ رد اليمين على طالب الحق» رواهما الدارقطني، فإذا لم يحلف المدعى عليه وطلب يمين المدعي فله ذلك. وقد كان شريح وإياس بن معاوية يحكمان في

الأموال المتنازع فيها بمجرد القرائن الدالة على صدق أحد المتداعيين.

وكذلك قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز لما قال الحاكم: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٧: ٢٨].

وقضى شريح في أولاد هرة تداعاها امرأتان كل منهما تقول هي ولد هرتي. قال شريح: ألقها مع هذه، فإن هي قرّت ودرت واسبطرت فهي لها، وإن فرت وهرت وبارت فليس لها. قال ابن قتيبة: قوله اسبطرت: يريد امتدت للإرضاع، وقوله وإن بارت: أي اقشعرت وتنفشت.

وروي عن علي رضي الله عنه أنه أحلف المدعي مع بينته أن شهوده شهدوا بحق. وقال إسحاق: إذا استراب الحاكم وجب ذلك.

وقال ابن عباس في المرأة الشاهدة على الرضاع أنها تستحلف.

وقضى ابن مسعود في رجل مسلم حضره الموت فأوصى إلى رجلين مسلمين معه، وسلمهما ما معه من المال، وأشهد على وصيته كفارًا، ثم قدم الوصيان فدفعا بعض المال إلى الورثة وكتما

بعضه، ثم قدم الكفار فشهدوا عليهم بما كتموه من المال، فدعا الوصيين المسلمين فاستحلفهما ما دفع إليها أكثر مما دفعاه، ثم دعا الكفار فشهدوا وحلفوا على شهادتهم، ثم أمر أولياء الميت أن يحلفوا أن ما شهدت به اليهود أو النصارى حق فحلفوا، فقضى على الوصيين بما حلفوا عليه.

وأما حقوق الله ﷻ: فمن العلماء من قال لا يستحلف فيها بحال، ومنها من قال يستحلف إذا اتهم. وروى الخلال بإسناده عن الركين بن الربيع عن أبيه قال: أحمس - أي شرد - لأخي فرس بعين التمر فرآه في مربط سعد، فقال: فرسي، فقال سعد: لك بينته؟ قال: لا ولكن أدعوه فيحمحم فدعاه فحمحم فأعطاه إياه.

وقال أبو الزناد: كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، وكان يكتفي باليسير إذا عرف صرف مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من غشم الولاة قبله على الناس. وذكر القاضي أن الأموال المغصوبة من قطاع الطريق واللصوص يكتفي من مدعيها بالصفة كاللقطة.

وليحذر المسلم من اليمين الغموس وهي التي تغمس صاحبها في النار، قال ﷺ: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**» [رواه البخاري] واليمين الغموس: هي

اليمين الكاذبة التي يقتطع بها الإنسان حق أخيه بغير حق، يحلف بالله على أمر ماض كاذبًا متعمدًا وهي من كبائر الذنوب، وسميت غموسًا لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار.

وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار**» فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: «**وإن كان عودًا من أراك**» [رواه مسلم].

فإن أداء ما للغير من غير حق إنما هو من الظلم، الذي هو أقبح الكبائر والذنوب، وعاقبته وخيمة، وهو سبب الفساد والفتن، والبلاء والإحن، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] ويقول تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨] وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**».

وقال ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن**»، وذكر منها «**دعوة المظلوم**».

كم من الناس من يرجو رَحِمَهُ اللَّهُو يخشى عقابه، وهو مع ذلك قد ظلم العباد، واعتدى عليهم في أموالهم وأعراضهم فأنى يستجاب

لهذا، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل الخيرات، وتتصدق وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: «**لا خير فيها، هي من أهل النار**» [رواه الحاكم].

وفي ذلك الموقف العظيم يوم القيامة ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

فاتقوا الله عباد الله، وتذكروا يوم الحساب، ويوم العرض على الله عز وجل قال تعالى ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، تذكروا يوم تبعثر القبور، ويحصل ما في الصدور، وعند الله تجتمع الخصوم، فيقتص من الظالم للمظلوم.

وعلى المسلمين مناصحة الظالم وكفه عن غيه، وردعه عن أعماله، قال ﷺ: «**إن الناس إذا رأو الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه**» [رواه أبوداود].

وفي الحديث: التحذير من الظلم وأخذ ما ليس له.

وفيه: الرجوع إلى الشريعة والتحاكم إليها.

وفيه؛ أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر.

وفيه: إقامة العدل بين الناس ورفع الظلم.

الحديث الرابع والثلاثون

إن من أهم المهمات وأفضل القربات؛ التناصح والتوجيه للخير، والتواصي بالحق والصبر عليه، والتحذير مما يخالفه ويغضب الله ﷻ ويباعد من رحمته.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمره عظيم، وهو من أسباب صلاح المجتمع وقوته وتماسكه. وترتبط خيرية هذه الأمة ارتباطًا وثيقًا بدعوتها للحق، وحمايتها للدين، ومحاربتها للباطل، ذلك أن قيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحقق لها التمكين في الأرض ورفع راية التوحيد، وتحكيم شرع الله ودينها، ولذلك امتدحها الله ﷻ في كتابه الكريم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقدمه الله ﷻ في سورة التوبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة: ٧١].

وفي هذا التقديم إيضاح شأن هذا الواجب، وبيان لأهميته في حياة الأفراد والمجتمعات والشعوب، وبتحقيقه والقيام به تصلح الأمة ويكثر فيها الخير ويضمحل الشر ويقل المنكر، وبإضاعته تكون العواقب الوخيمة، والكوارث العظيمة والشرور الكثيرة، وتتفرق الأمة، وتقسو القلوب أو تموت، وتظهر الرذائل وتنتشر، ويظهر صوت الباطل ويفشو المنكر.

وهذا الحديث؛ أصل في تغيير المنكر، ولذلك عده العلماء من الأحاديث التي عليها مدار الدين.

قال النووي: (هو من أعظم قواعد الإسلام).

فإن الدلالة على الخير وإنكار المنكرات من الأعمال الصالحة، ومن خصال الإيمان. والمنكر: ما أنكرته الشريعة ونهت عنه.

روى مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

أخرج مسلم من حديث طارق بن شهاب قال: «أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل فقال الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد تُرك ما هنالك. فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه» ثم روى هذا الحديث.

قال ابن دقيق العيد: (يحتمل أن يكون أبو سعيد لم يكن حاضرًا أول ما شرع مروان في الخطبة، ويحتمل أن يكون حاضرًا لكنه خاف حصول فتنة، ويحتمل أن همّ بالإنكار فبدره الرجل فعضده أبو سعيد).

وأخرج مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لايفعلون، ويفعلون ما لايؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**.

وفي قوله ﷺ: «من رأى منكم منكر فليغيره» أي؛ علم بوجود المنكر سواء رآه أو سمعه أو نقل له. وتأكد رؤيةً أو سماعًا أو نقلًا موثوقًا، والمنكر هو ما نهى الله عنه ورسوله، لأنه ينكر على فاعله أن يفعله. سواءً أكان فعلًا، أم قولًا، أم اعتقادًا.

«فليغيره» أي؛ يزيله أو يغيره، وهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر.

«بيده» وذلك خاص بمن تحت يده، كالراعي إذا صدر من الرعية منكر يغيره بيده، وكذلك الأب في أهل بيته. قال الإمام أحمد: التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح.

«فإن لم يستطع» الانكار بيده بأن ظن لحوق ضرر به، لكون فاعله أقوى منه فالواجب تغييره «فبلسانه»أي فليغيره بالقول وتلاوة ما أنزل الله من الوعيد عليه، فُيذكر العاصى بالله، ويخوفه من عقابه.

«فإن لم يستطع» ذلك بلسانه لوجود مانع، كخوف فتنة، أو خوف على نفس، أو عضو، أو مال محترم، أو شهر سلاح «فبقلبه» أي؛ بكراهة ذلك المنكر وبغضه والتغيير بالقلب من عمل القلب، وعمل القلب إذا كان خالصًا صوابًا يثاب عليه الشخص، ومن تمام الإنكار بالقلب مغادرة المكان الذي فيه المنكر.

«وذلك أضعف الإيمان» أي؛ أقله ثمرة.

وفي الحديث: وجوب تغيير المنكر بدرجاته حسب الاستطاعة، فالأول الإنكار باليد واللسان، ويجب بحسب القدرة والطاعة، والإنكار بالقلب فرض على كل مسلم في كل حال، فإنه إن لم ينكر قلبه دل على ذهاب الإيمان منه.

قال القصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أقوى شعب الإيمان بوجه، وأضعفها بوجه، فتغييره باليد واللسان أقوى شعب الإيمان وتغييره بالقلب أضعف الإيمان».

وقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى-: «ويجب هجر من كفر أو فسق ببدعة، أو دعا إلى بدعة مضلة أو مفسّقة على من عجز عن الرد عليه أو خاف الاغترار به والتأذي دون غيره».

قال النووي -رحمه الله تعالى-: (واعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله بعذاب، قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فينبغي لطالب الآخرة، والساعي في تحصيل رضى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم، لا سيما وقد ذهب معظمه، ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، واعلم أن الأجر على قدر النصب، ولا يتركه أيضا لصداقته ومودته فإن الصديق للإنسان وهو

الذي يسعى في عمارة آخرته، وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب آخرته أو نقصها وإن حصل بسببه نفع في دنياه).

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: (أول ما تغلبون عليه من الجهاد جهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه المعروف، وينكر قلبه المنكر نكس، فجعل أعلاه أسفله).

وفي سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**».

وفي المسند من حديث جرير عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله فلم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب**».

وفي سنن أبي داود وابن ماجة والترمذي عن أبي ثعلبة الخشنيّ أنه قيل له: كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: سألت عنها خبيرًا، أما والله لقد سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوًا متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوامّ**».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فيأمر الإنسان حينئذ نفسه).

قال العلماء: (ولا يسقط الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لكونه لا يقبل في ظنه بل يجب عليه فعله. قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]).

وقال ابن دقيق العيد: (ولا يشترط في الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر أن يكون كامل الحال، ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولاية، بل ذلك ثابت لآحاد المسلمين، وإنما يأمر وينهى من كان عالمًا بما يأمر به وما ينهى عنه، فإن كان من الأمور الظاهرة مثل الصلاة والصوم، والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال فذلك للعلماء، والعلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه، لكن على وجه النصيحة إلى الخروج من الخلاف).

وينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون من ذلك برفق ليكون أقرب إلى تحصيل المقصود.

قال سفيان بن عيينة: (لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى).

وقال الإمام أحمد: (الناس محتاجون إلى مداراة ورفق، والأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجل مُعلن بالفسق فلا حرمة له).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (يأمر بالرفق فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب، فيكون يريد أن ينتصر لنفسه).

قال: (وكان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلًا رحمكم الله، مهلًا رحمكم الله).

قال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى -: (من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وعابه).

قال ابن دقيق العيد: (وليس الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر البحث والتفتيش والتجسيس، واقتحام الدور بالظنون، بل إن عثر على منكر غيره).

وقال الماوردي: (ليس له أن يقتحم ويتجسس إلا أن يخبره من يثق بقوله: أن رجلًا خلا برجل ليقتله، أو امرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذه الحال أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث حذرًا من فوات ما لا يستدركه، والله أعلم).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهام وأعمال الرسل عليهم السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وهو من صفات المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وهو من خصال الصالحين، قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣: ١١٤].

وهو من خيرية هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهو سبب للتمكين في الأرض قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وهو سبب من أسباب تكفير الذنوب، قال ﷺ: «**فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، تكفرها الصيام والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» [متفق عليه].

وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظ للضرورات الخمس: في الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

وإن أعلى مراتب تغيير المنكر: تغييره باليد، وذلك إذا اقتضى عملًا، كإتلاف آلة المنكر، والعين المحرمة، وعقوبة فاعله، ومن ذلك: إقامة الحدود، والتعزيرات مما هو إلى السطان.

المرتبة الثانية: التغيير باللسان، وذلك ببيان حكم المنكر، والزجر عنه، ولوم فاعله، ودعوته للتوبة.

والمرتبة الثالثة: التغيير بالقلب، وذلك ببغض المنكر، والرغبة الصادقة في زواله، والعزم على تغييره بالقول والفعل لو أمكن ذلك.

قال شيخ الإسلام: «ومن لم يكن في قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرمه من الكفر والفسوق والعصيان، لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه، فإن لم يكن مبغضًا لشيء من المحرمات أصلًا لم يكن معه إيمان أصلًا».

وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عواقبه وخيمة وهو من أسباب وقوع الهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وهو سبب من أسباب عدم إجابة الدعاء، كما جاء في الحديث عن عائشة مرفوعًا: «**مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يُستجاب لكم**» [رواه ابن ماجة]. وفي تركه تسلط الفساق والكفار وتزيين المعاصي وشيوع المنكر واستمراؤه.

والمطلوب تغيير المنكر، لا مجرد الإنكار، فإن أدى إلى منكر أكبر منه، فإنه يصير الإنكار حينئذ منكرًا، ويكون التغيير والحالة هذه غير مستطاع.

وفي الحديث، مشاهد ليسر الإسلام في شرائعه.

وفي الحديث: أن إنكار المنكر مقيد بالقدرة والاستطاعة وهذا في الإنكار باليد واللسان، وأما الإنكار بالقلب واجب على كل أحد، ولا يعذر منه أحد من الخلق وفي قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا**» أن الإنكار متعلق بالرؤية والمشاهدة، أما الأمور المستورة فإنه لا يتعلق بها إنكار لقوله ﷺ: «**من رأى منكم**» قال بعض العلماء: بان الرؤية أعم من مشاهدة العين وقد يكون المراد بذلك العلم.

الحديث الخامس والثلاثون

خلق الله الخلق لعبادته وحده، والدخول تحت أمره ونهيه، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وما أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وقام سوق الجنة والنار إلا لأجل هذه الحقيقة العظيمة، ولإخراج العباد من داعية أهوائهم؛ إلى عبادة خالقهم ومولاهم.

ومن أعظم ما يعين على الطاعة والعبادة سلامة الصدر للمؤمنين ومحبة الخير لهم، وفي هذا الحديث الذي رواه الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ».

للمسلم حرمة عظيمة عند الله ﷻ، من أجل ذلك حرّم منه ما حرّم، ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**» [رواه البخاري ومسلم].

وهذا الحديث اشتمل على أحكام كثيرة وفوائد عظيمة، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هو حديث كثير الفوائد، مشير إلى جلِّ المبادئ والمقاصد، بل هو عند تأمل معناه وفهم مغزاه حاوٍ لجميع أحكام الإسلام منطوقًا ومفهومًا، ومشتمل على جمع الآداب أيضًا إيماءً وتحقيقًا).

وقال النووي: (ما أعظم نفع هذا الحديث وأكثر فوائده).

وأصل دوام الأخوة بين المسلمين سلامة الصدر تجاه المسلم، وقد حرص الإسلام على أمر المسلمين بكل ما فيه سلامة الصدر، كما حرص على نهيهم عن كل ما يعكر صفو ذلك. وفي هذا السياق جاءت أحاديث جامعة، بتعاليمها وأحكامها، وآدابها لتعمق هذه الأخوة الإيمانية.

وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث تعظيم حرمات المسلمين، بعضًا من الآداب والوصايا في التعامل بين المسلمين حتى لا يقع ظلم على أحد منهم، وحتى تصفو النفوس، وتزداد المودة. واشتمل هذا الحديث على النهي عن خصال ذميمة وفعال قبيحة.

قال ﷺ: «لا تحاسدوا» أي؛ لا يحسد بعضكم بعضًا، والحسد مركوز في طباع البشر. وهو أن يكره الإنسان أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل ويتمنى زوال النعمة عن المحسود. وقد انعقد الإجماع على تحريمه وقبحه.

والحسد: هو تمني زوال النعمة عن الغير، وهو خلق ذميم، ومنه الغبطة: وهي تمنى أن يكون له مثل ما لأخيه من غير تمنى زوالها عن أخيه.

وفي الحسد مفاسدة كثيرة: منها أنه تشبه باليهود وهو دليل على خبث نفس الحاسد، وفيه اعتراض على قدر الله وقضائه وما وهب ـ جل وعلا ـ لعباده.

ومن مفاسده أنه يأكل الحسنات. قال ﷺ: «**إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» [رواه أبو داود] وغير ذلك من المفاسد. وهذا هو الحسد المذموم، وهو تمني زوال النعمة؛ فأما الغبطة وهي تمني حال المغبوط من غير أن يريد زوالها عنه، فإن كانت في أمور الدين فهي محمودة.

والحاسد في غم لاينقطع، ومصيبة لايؤجر عليه، ومذمة لايحمد بها، ويسخط عليه الرب، ويغلق عنه أبواب التوفيق.

قال ابن تيمية: (لا يخلو جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه).

والعمل بهذا الحديث من أعظم الأسباب الموصلة للتآلف بين المسلمين وقلة الشحناء وتعميق الأخوة الإيمانية.

قال الله تعالى ناهيًا عن الحسد، وأن ما نال الناس من خير فهو من الله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ويروى أن إبليس قال لنوح عليه السلام: اثنتان أُهلك بهما بني آدم: الحسد، وبالحسد لُعنت وجعلت شيطانًا رجيمًا. والحرص أبيح آدم الجنة كلها، فأصبت حاجتي منه بالحرص.

وقال النبي ﷺ: «**دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر**» [رواه الترمذي]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**».

وإن كانت الغبطة في أمور الدنيا فلا خير في ذلك. قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

وقوله ﷺ: «ولا تناجشوا» النجش: هو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها، لكن من أجل نفع البائع والإضرار بالمشتري، وقيل: المراد الخداع في جميع المعاملات من غش واحتيال وغيرها، وفي النهي عنها حماية للأنفس وحماية للأموال وحماية للغير. وأصل النجش: الختل وهو الخداع.

قال ابن أبي أوفى: الناجش آكل ربا خائن. وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: **«من غشنا فليس منا، والمكر والخداع في النار»** قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»** [رواه الترمذي].

«ولا تباغضوا» أي؛ لا تتعاطوا أسباب التباغض، فيبغض بعضكم بعضا، بل يحبه، ومن أسباب البغض؛ الغيبة والنميمة، والسخرية والتنابز بالألقاب. فالبغض حرام إلا في الله تعالى، فإنه واجب ومن كمال الإيمان، كما قال ﷺ: **«من أحب له وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»** [رواه أبو داود].

قال ابن عبد البر: قوله: (ولا تباغضوا) نهي معناه الندب إلى رياضة النفس على التحاب، لأن المحبة والبغضة لا يكاد المرء يغلب فيهما نفسه لقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقال رسول الله ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»** [رواه البخاري].

ثم قال ﷺ: «ولا تدابروا» التدابر: هو الهجر والتقاطع، ومعناه: أن لا يولي أحدكم الآخر دبره من إعراضه عنه بوجهه وكراهيته له من أجل دنيا وعرض زائل ويقاطعه ويهجره، والتدابر محرم وسبب في رفع الخير، وحرمان من عرض العمل على الله ـ تعالى ـ.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ السلام»**.

وقوله ﷺ: «ولا يبع بعضكم على بيع بعض» أي لا يبيع سلعة باعها أخوه المسلم فيترك المسلم السلعة الأولى فيجعل البائع يبغض المشتري لعدم التزامه بالبيع.

وفي الصحيحين: «**لا يبيع المؤمن على بيع أخيه**» أن يقول لمن اشترى سلعة في مدة الخيار: افسخ هذا البيع أنا أبيعك مثله أو أجود بثمنه أو يكون المتبايعان قد تقرر الثمن بينهما وتراضيا به، ولم يبق إلا العقد فيزيد عليه أو يعطيه بأنقص.

قوله ﷺ: «**وكونوا عباد الله إخوانا**» أي؛ اكتسبوا ما تصيرون به إخوانًا مما سبق ذكره وغيره، مما يدعوا إلى الألفة ويمنع من النفرة.

وفي الحديث إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش والتباغض والتدابر، وبيع بعضهم على بيع بعض، كانوا أخوانًا: أي تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة، ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة، والتعاون في الخير مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال، وقد قال النبي ﷺ: «**تهادوا فإن الهدية تذهب وغر الصدر**» [رواه أحمد].

وقال الحسن: (المصافحة تزيد في المودة).

وأما الاحتقار فهو ناشئ عن الكبر، وقد قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**» أي: احتقارهم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانًا» تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وقوله ﷺ في الحديث: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه ولا يحقره» أي لا يتكبر عليه ويستصغره. وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وفي هذا تأكيد وإثبات عقيدة الولاء بين المسلمين بأن يعين بعضهم بعضاً، ويقوم بعضهم بحوائج بعضهم الآخر. وقد قال النبي ﷺ: «**انصر أخاك ظالما أو مظلومًا**». قال: يارسول الله أنصره مظلومًا، فكيف أنصره ظالما؟

قال: «**تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه**» [متفق عليه]. وقال النبي ﷺ: «**ما من امرئ مسلم يخذل امرءًا مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرءًا مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وتنتهك فيه حرمته، إلا نصره الله في موضع يحب فيه نصرته**» [رواه أبو داود]. وفي حديث آخر: «**من نصر أخاه بالغيب وهو يستطيع نصره، نصره الله في الدنيا والآخرة**».

وفي مسند الإمام أحمد عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: «**كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثًا هو لك مصدق وأنت به كاذب**».

«التقوى هاهنا» التقوى؛ هي اجتناب عذاب الله بفعل المأمور وترك المحظور.

وفي قوله «هاهنا» يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات. وفي رواية: «**وأومأ بيده إلى القلب**». وقال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وقال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتلّ جواظ مستكبر**» [رواه البخاري]. والتقوى محلها القلب، فإذا اتقى

القلب، اتقت الجوارح، وإذا لم يتق القلب، لم تتق الجوارح، وفي الحديث: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» [رواه البخاري].

ثم ذكَّر ﷺ بأخوه الدين وهي أقوى الوشائج وأعظمها، ومن هذه المحبة أن لا يظلمه، ولا يترك نصرته، ولا يكذب عليه ولو مازحًا، ولا يهضم حقه، ولا يسخر به، ولا يستهزأ به ولا يعيبه، ولا يستصغر شأنه ويضع من قدره.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بشراركم؟**» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «**المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبُرآء العيب**» وهذا التباغض المذموم هو الذي منْشَأَهُ التنافس في الدنيا واتباع الأهواء، فأما الحب والبغض في الله فهو من أوثق عرى الإيمان.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ألا من أظهر منكم لنا خيرًا ظننا به خيرًا وأحببناه عليه، ومن أظهر منكم شرًّا ظننا به شرًّا وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم تعالى).

قوله ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» يعني: يكفيه من الشر احتقاره لأخيه المسلم، فإنه إنما يحقره لتكبره عليه، والكبر من أعظم خصال الشر.

وختم ﷺ الحديث بحرمة دم المسلم بالقتل أو الجرح أو غيره، وماله من السرقة أو الغش أو غيرها، وعرضه من الغيبة والنميمة والاستهزاء والقذف.

وحذر إلى عدم التعدي على المسلم بقوله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

هذا مما كان النبي ﷺ يخطب به في المجامع العظيمة كما قال في حجة الوداع يوم النحر: «**إن دماءكم وموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**» [متفق عليه]. وقد قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» [رواه البخاري ومسلم].

وفي الأخذ بهذا الحديث النبوي العظيم تصفو النفوس وتصلح الأحوال وتطيب الحياة.

قال رجل لعمر ابن عبد العزيز: اجعل كبير المسلمين عندك أبًا، وصغيرهم ابنًا، وأوسطهم أخًا.

وقال بعض السلف: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث: إن لم تنفعه فلا تضرّه، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

فاحفظوا حق إخوانكم وتقربوا إلى الله بترك ما يؤذيهم وأعينوهم على الخير، وابذلوا لهم النصحية، مع الرفق واللين فالمسلم أخو المسلم.

وفي الحديث: تحريم الحسد والنهي عن التباغض والتدابر.

وفيه: وجوب الأخوة الإيمانية، وأن المسلم على المسلم حرام: دمه وماله، وعرضه.

وفيه: وجوب نصرة المسلم، وتحريم خذلانه.

الحديث السادس والثلاثون

هذا حديث عظيم جليل، جامع لأنواع من العلوم والقواعد، والآداب، والفضائل والفوائد والأحكام، وفيه ذكر لأعمال صالحة ومنازل عالية لمن قام بها، ففيه عظيم فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو مال، أو جاه أو نصح، أو دلالة على خير، أو إعانة بنفسه أو وساطته أو شفاعته، أو دعائه له بظهر الغيب.

وهذا الحديث موقعه عظيم، لما فيه من البشارة والنذارة التي تدفع المؤمن للعمل في سبيل وإعانة وخدمة الناس، ومجالسة أهل العلم والقرآن، وذم من يتكئون على الأنساب ويهملون الأعمال.

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِما سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ،

وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

في هذا الحديث فضل إعانة المسلمين، وتفريج كربهم وتسهيل أمورهم، ونفعهم بما يتيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة أو غير ذلك.

وفي الحديث الآخر: «**من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**» [رواه البخاري].

حث النبي ﷺ في وصيته على مكارم الأخلاق، ورتب عليها الأجر العظيم من الله ﷻ، ومن كريم الأخلاق تنفيس كربة المكروب.

قال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة» «من كرب الدنيا» أي، بعض كربها، وقال: «من كرب الدنيا» للإيذان بتعظيم شان التنفيس.

«نفس الله عنه» أي فرج الله عنه «كربة من كرب يوم القيامة» والكربة: هي الشدة العظيمة، التي توقع صاحبها في الكرب والضيق والضنك، وتنفيسها أن يخفف عنه منها فتزيل همه وغمه، ويرفع ما نزل به من ضائقة، والتنفيس للكربة يكون بتخفيفها أو إبعادها.

قوله ﷺ: «كربه من كرب يوم القيامة» هذا في تنفيس الكرب.

قال ﷺ: «نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» فإن الله يزيل كربه وشدائده في ذلك اليوم العظيم، فإن في القيامة كربًا وشدائد وأهوالًا عظيمة. ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة كما قيل في التيسير والستر.

قال النووي: (ويدخل في كشف الكربة وتفريجها من أزالها بماله أو جاهه أو مساعدته، والظاهر أنه يدخل فيه من أزالها بإشارته ورأيه ودلالته).

وقال ابن رجب: (قوله (كربة من كرب يوم القيامة) ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة كما قيل في التيسير والستر، قيل في مناسبة ذلك: أن الكرب هي الشدائد العظيمة، وليس كل أحد يحصل له ذلك في الدنيا، بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر، فإن أحدًا لا يكاد يخلو في الدنيا من ذلك، ولو بتعسر بعض الحاجات المهمة. وقيل: لأن كرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة لا شيء، فادخر الله جزاء تنفيس الكرب عنده لينفس به كرب الآخرة».

وهذا يرجع إلى أن الجزاء من جنس العمل، كقوله ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**» [رواه البخاري]. وقوله: «**إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**» [رواه مسلم].

وفي حديث كعب ابن عجرة «**ومن فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربته**».

والتنفيس: التخفيف، والتفريج: أعظم من ذلك. وقال النبي ﷺ: «**أيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مؤمن سقى مؤمنًا على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن كسا مؤمنًا على عري كساه الله من خضر الجنة**» [رواه الترمذي].

«ومن يسر على معسر» أي؛ سهل عليه وأزال عسرته. والمعسر: من أثقلته الديون وعجز عن وفائها، والتيسير على المعسر يكون باعانته على إزالة عسرته، فإن كان مدينًا أعانه على قضائه، وإن كان الدين له أنظره، أو وضع عنه إن لم يبرئه منه، والإبراء خير، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

قوله ﷺ: «ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة» وفي الحديث الآخر: «**من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن المعسر أو يضع عنه**» وفي الحديث الآخر أيضًا: «**من أنظر معسرًا، أو وضع عنه؛ أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**».

ودل الحديث على أن الإعسار قد يحصل في الآخرة، وقد وصف الله تعالى يوم القيامة بأنه يوم عسير وأنه على الكافرين غير

يسير، فدل على أنه يسير على غيرهم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وفي الحديث أن الجزاء من جنس العمل، وهذا موجب الحكمة، وهو سنة الله في جزاء العباد شرعًا وقدرًا، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وفي الحديث قوله ﷺ: «ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة» فيه استحباب ستر عورات المسلمين وزلاتهم. وفي الحديث الآخر: «**من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته**». «**ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة**» ومن ستر مسلمًا من عيب فيه، وحجبها حتى لا يتبين للناس، ستره الله في الدنيا والآخرة، أي؛ حجب عيوبه عن الناس في الدنيا والآخرة.

والمراد بالحديث عدم إظهار عيوبهم أو ذنوبهم خاصة في المستورين الذين لا يعرفون بشيء من المعاصي، فإذا وقعت منهم زلة أو هفوة فإنه لا يجوز التحدث بها ونشرها وكشفها لأن هذا من الغيبة المحرمة.

قال ابن دقيق العيد: (الستر على المسلم أن يستر زلاته، والمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفًا بالفساد،

وهذا في ستر معصية وقعت وانقضت. أما إذا علم معصية وهو متلبس بها، فيجب المبادرة بالإنكار عليه ومنعه منها، فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر إن لم يترتب على ذلك مفسدة، فالمعروف بذلك لا يستر عليه؛ لأن الستر على هذا يطمعه في الفساد والإيذاء وانتهاك المحرمات، وجسارة غيره على مثل ذلك، بل يستحب أن يرفعه إلى الإمام إن لم يخف من ذلك مفسدة).

قال بعض السلف: (أدركت قومًا لم يكن لهم عيوب، فذكروا عيوب الناس، فذكر الناس لهم عيوبًا، وأدركت قومًا كانت لهم عيوب، فكفوا عن عيوب الناس فنسيت الناس عيوبهم).

وفي الحديث قوله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». هذه كلمة جامعة في إعانة المسلم لأخيه المسلم ببدنه وماله وجاهه، وفيه وعد الله للعبد أن ييسر له أموره ويسهل عليه أحواله. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعاهد الأرامل يستقي لهن الماء بالليل.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: (**ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**) أي فمن أعان أخاه وسعى حسب طاقته في قضاء حاجته، وسواء أكان ذلك بقلبه أو بدنه، أو بهما لدفع المضار أو جلب المنافع إذ لكل عون (كان الله في حاجته) أي أن المكافأة على ذلك بجنسها من الجواد الكريم.

ولما كان للعلم منزلة عظيمة ومكانة رفيعة، جاء الحديث ليؤكد على فضله وعلو شأنه، فهو سبيل الله الذي ينتهي بصاحبه إلى الجنة، والمشتغلون به إنما هم مصابيح تنير للأمة طريقه، وهم ورثة الأنبياء، قال ﷺ حاثًا على العلم وطلبه والسعي إليه:

«ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة» قال ابن رجب: «سلوك الطريق لالتماس العلم يدخل في سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية مثل حفظه ومدارسته ومذاكرته ومطالعته وكتابته والتفهم فيه ونحو ذلك».

وقال ابن دقيق العيد: (وفي الحديث فضل السعي في طلب العلم، والمراد العلم الشرعي).

وقال الحسن: (العلم علمان: علم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب فذاك العلم النافع، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥: ١٦]).

والجزاء على ذلك من الله تسهيل الطريق التي يصل بها طالب العلم إلى الجنة، وذلك يكون بإعانته على تحصيل ما قصد فيكون بذلك محصلًا للعلم، ويكون أيضًا بإعانته على العمل بما علمه من أحكام الشريعة، وذلك يفضي به إلى دخول الجنة.

وأخرج البزار من حديث رفاعة بن رافع أن النبي ﷺ قال لعمر: «**اجمع لي من قومك**» يعني قريشًا فجمعهم فقال: «**إن أوليائي منكم المتقون، فإن كنتم أولئك فذلك، وإلا فانظروا، يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة، وتأتون بالأثقال فيعرض عنكم**».

وقوله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله» أي المسجد، فإن بيوت الله هي المساجد، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨] فأضافها إلى نفسه الشريفة «يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة» أي السكينة والوقار، والطمأنينة.

«وغشيتهم الرحمة» أي غطتهم وعمتهم، «وحفتهم الملائكة» أي أحاطت بهم ملائكة الرحمة، «وذكرهم الله فيمن عنده» أي؛ أثنى عليهم في المقربين عنده، وكفى شرفًا ذكر الله العبد في الملأ الأعلى.

وهذه الخصال الأربع لكل مجتمعين على ذكر الله تعالى؛ كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**إن لأهل ذكر الله تعالى أربعًا: تنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، وتحف بهم الملائكة، ويذكرهم الرب فيمن عنده**».

وفيه أن تلاوة القرآن وتعليم العلم الشرعي: ذكر لله، لأن من جزائه في هذا الحديث ذكر الله للتالين والمتدارسين.

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**». وكان النبي ﷺ أحيانًا يأمر من يقرأ القرآن ليسمع قراءته، قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**».

روى يزيد الرقاشي عن أنس قال: (كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقًا حلقًا يقرؤون القرآن، ويتعلمون الفرائض والسنن ويذكرون الله تعالى).

وقد قال سبحانه: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] وفي الحديث القدسي: «**فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم**» [رواه البخاري].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «**يقول الله أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**» وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤].

ثم قال ﷺ وبين قاعدة عظيمة: «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» أي؛ من تأخر من أجل عمله السيء، فإن نسبه لا يغنيه ولا يرفعه».

قال النووي: (معناه من كان عمله ناقصًا، لم يلحقه نسبه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيله الآباء، ويقصر في العمل).

قوله ﷺ: «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» أي: الجزاء على الأعمال لا على الأنساب. قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ

مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣: ١٣٦].

وقال ﷺ حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئًا**» فعم وخص حتى قال: «**يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا**» [متفق عليه].

وقوله ﷺ: «ومن بطأ به علمه لم يسرع به نسبه» معناه: من كان علمه ناقصًا، لم يلحقه بمرتبه أصحاب الأعمال، فينبغي ألا يتكل على شرف النسب، وفضيلة الآباء، ويُقصر في العمل، لأن من أخره عمله عن دخول الجنة لم يسرع به نسبه إلى دخول الجنة، لأن المعتبر في ذلك الإيمان والتقوى، فالعمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢] فإن الله رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

الحديث الذي مرَّ بنا موقعه عظيم لما فيه من البشارة والنذارة التي تدفع المؤمن للعمل في سبيل خدمة الناس وإعانتهم، ومجالسة أهل العلم والقرآن، وذم من يتكئون على الأنساب ويهملون الأعمال.

قال ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى -: (هذا حديث عظيم، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب، فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما يتيسر من علم أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، أو غير ذلك).

ثم أجمل ﷺ الحديث فيما بين الإخوة «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» أي؛ أن الله - تعالى - يعين الإنسان على قدر معونته أخيه.

ثم ذكر ﷺ فضل العلم والتعلم العلم الشرعي الذي يرفع به الجهل عن نفسه وعن غيره، ويدعوا إلى الله على بصيره، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة.

ثم ذكر ﷺ فضل الاجتماع في المساجد يقرأون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا كان جزاء ذلك أن نزلت على قلوبهم السكينة؛ وهي الطمأنينة والاستقرار، وغطتهم وشملتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وصارت حولهم، وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة.

قال الحسن: (أفضل الصدقة صدقة العلم).

وفي الحديث: الترغيب في تنفيس الكرب عن المؤمنين، والتيسير على المعسرين، وفك أسر المأسورين.

وفيه: الإشارة إلى يوم القيامة وأنه ذات كرب.

وفيه: الترغيب في ستر المسلم الذي لا يعرف عنه الفساد، وكذلك الحث على الاهتمام بكتاب الله تعالى، كما أن فيه فضل الجلوس في بيوت الله لمدارسة العلم، وفيه أن الجزاء من جنس العمل.

وفيه: الحث على طلب العلم، كما دل الحديث على أن من ذكر الله ذكره الله في الملأ الأعلى.

وفي الحديث: إشارة إلى طلب الجليس الصالح، وأن النسب لا ينفع إذا لم يكن معه العمل الصالح.

الحديث السابع والثلاثون

فضل الله واسع وجوده عظيم، وأفعال الله ﷻ دائرة بين الفضل والعدل، فهو جواد كريم، بر رحيم، وهو ﷻ عدل لا يظلم مثقال ذرة.

روى البخاري ومسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

هذا الحديث من الأحاديث القدسية، وهو ما أخبر الله به نبيه ﷺ بالإلهام أو رؤيا المنام، أو غير ذلك من كيفيات الوحي، فعبر عنه ﷺ بكلامه، وليس له حكم القرآن من حيث الإعجاز والتواتر أو التعبد بقراءته، وغير ذلك.

في الحديث بشارة وفضل من الله تعالى، يدل على أفضال الله تعالى على خلقه، ورأفته بهم، فهو رب كريم، وفضله عظيم يضاعف الحسنات دون السيئات.

قال ابن حجر: (وهذا الحديث حديث شريف عظيم، جامع لأصناف الخير ومقادير الحسنات والسيئات، بيَّن فيه ﷺ عن ربه ما تفضل الله تعالى به على عبيده).

وفي قوله تعالى في الحديث القدسي: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك» أي؛ كتب وقوعها في اللوح المحفوظ، وأما ثوابها فبما دل عليه الشرع، ثم بيَّن ذلك وفصله ووضحه.

«فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله ـ تبارك وتعالى ـ عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة».

وفي الحديث: أن من همَّ بحسنة كتبت له حسنة وإن لم يفعلها، لأن العزم والهم بالحسنة سبب إلى عملها وسبب الخير خير، وأن من هم بسيئة ثم رجع عنها لله ـ تعالى ـ لا لشيء آخر كتبت له حسنة، لأن رجوعه عن العزم عليها خير، فجوزي بمقابله بحسنة، وهذا من فضل الله ورحمته بعباده أن ضاعفها جودًا منه وكرمًا.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وفي قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فإذا استشعر العبد هذا الفضل، أفاضت على قلبه الطمأنينة والسكينة، والرجاء بالمغفرة، ودفعته إلى الجد في الخير ومتابعة الأعمال الصالحة، والعزم على فعل الخير.

«وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإذا هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

فالزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل.

أما السيئة فهي كما هي عدلًا منه إذا فعلها، أما إذا هم بها ولم يعمل بها طاعة لله ﷻ فتكتب له حسنة واحدة؛ لأنه ترك العمل بالسوء، وهذا عمل صالح يثاب عليه، والله يحب العمل الصالح.

قال ابن القيم: (أجمع العارفون على أن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وعبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات).

قال ابن تيمية: (جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم).

قال ابن بطال: (في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف؛ لأنه لو علم وكان ناجيًا أعجب وكسل، وإن كان هالكًا ازداد عتوًّا، فحُجب عنه).

فانظروا إلى عظيم لطف الله تعالى، وتأملوا هذه الألفاظ.

قال النووي: (أشار بقوله: «عنده») إلى مزيد الاعتناء به، وبقوله: «كاملة» إلى تعظيم الحسنة وتأكيد أمرها. وعكس ذلك في السيئة فلم يصفها بكاملة بل أكدها بقوله: «واحدة » إشارة إلى تخفيفها مبالغة في الفضل والإحسان».

فأكد تقليلها بواحدةٍ ولم يؤكدها بكاملةٍ فلله الحمد والمنة سبحانه لا نحصي ثناء عليه.

هذا حديث شريف عظيم بين فيه النبي ﷺ مقدار ما تفضل الله ﷻ به خلقه: من تضعيف الحسنات وتقليل السيئات، وتضمن هذا الحديث أربعة أنواع:

الأول: «من همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة».
قال أبو الدرداء: (من أتى فراشه وهو ينوي أن يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى).

والهم بالحسنة إذا لم يعمل المرء الحسنة ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يهم بالحسنة ويسعى في تحصيلها وفعل أسبابها لكنه لا يدركها فإن هذا يكتب له الأجر كاملًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

القسم الثاني: أن يهم بالحسنة فيعزم عليها ثم يتركها تكاسلًا، فهذا يثاب على الهم الأول والعزم الأول، ويعطى حسنة بسبب ذلك، ولكنه لا يثاب على الفعل.

وروي عن سعيد ابن المسيب قال: «من هم بصلاة أو صيام أو حج أو عمرة أو غزوة، فحيل بينه وبين ذلك بلغه الله تعالى ما نوى».

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن النبي ﷺ قال: «**إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا فهو صادق النية، فيقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان فهو بنيته، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا، فهو يتخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل. وعبد لم يرزقه مالًا وعلمًا، وهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته، فوزرهما**

سواء» وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

قال ابن عباس وغيره: (المفضل عليهم درجة هم القاعدون من أهل الأعذار، والمفضل عليهم درجات هم القاعدون من غير أهل العذر).

النوع الثاني: «من همّ بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة». قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقال النبي ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف**». قال الله تعالى «**إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي**».

ومضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بأسباب متعددة منها: حسن الإسلام، وكمال الإخلاص، وفضائل العمل في نفسه وعظم الحاجة إليه، وفضيلة المكان كما قال ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**» [رواه البخاري].

وفرضية العمل كما في قوله تعالى في الحديث القدسي: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه**» [رواه البخاري].

وكذلك عظم الزمان وشرفه كما في حديث: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب على الله من هذه الأيام يعني أيام العشر**» [رواه أبو داود]، وكذلك فضل العامل كما قال ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه**» [رواه البخاري ومسلم].

القسم الثاني: أن يهم بالحسنة ويعزم عليها ولكنه يترك تلك الحسنة من أجل حسنة أفضل منها، فإن هذا يثاب ثواب الحسنة العليا التي هي أكمل بلا إشكال، ويثاب على همه الأول بالحسنة الدنيا.

النوع الثالث: أن من هم بسيئة وهو عازم بقلبه على فعلها، ثم يراجع نفسه فيتركها ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة؛ يعني إذا

لم يعمل السيئة لأجل الله تعالى كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنما تركها من جرائي**» فإن عزم على فعلها وسعى في حصول ذلك فعجز ولم يتمكن عوقب عليها كما قال النبي ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**».

وقد قال النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل**». قال ابن المبارك: سألت سفيان الثوري: «أيؤاخذ العبد بالهم؟ فقال: إذا كانت عزمًا أوخذ».

النوع الرابع: «وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» إشارة إلى أنها غير مضاعفة، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. لكن السيئة قد تعظم أحيانًا لأسباب خاصة منها: شرف الزمان، وشرف المكان، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وكذلك نوع السيئة فالكذب على الرسول ﷺ ليس كالكذب على غيره، وغيبة العلماء ليست كغيبة غيرهم، والزنا بحليلة الجار، وزوجة المجاهد أعظم من الزنا في غيرهن، وغير ذلك. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ

يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

قال ابن عباس في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرمًا، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وكان جماعة من الصحابة يتقون سكنى الحرم خشية ارتكاب الذنوب فيه، وقد تضاعف السيئات بشرف فاعلها وقوّة معرفته بالله كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١]. وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله**» [رواه أحمد]. وعن أبي مالك

الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام**» وذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

زاد مسلم بعد قوله: «**وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة أو محاها، ولا يهلك على الله إلا هالك**» أي: بعد هذا الفضل العظيم من الله بمضاعفة الحسنات، والتجاوز عن السيئات لا يهلك عليه إلا من تجرأ على السيئات، ورغب عن الحسنات.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

قال ابن بطال: (في الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة، لأنه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنة، لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم الحسنات).

فعلى المسلم أن يتزود للدار الآخرة، ويكثر مما يقربه إلى الله زلفى، ويرفع درجته في الجنة، ويسأله المغفرة والعفو إنه جواد كريم.

وفي الحديث أن من مضاعفة الحسنات لا تنتهي عند سبع مئة، بل تضاعف أضعافًا كثيرة لا حد لها، ويشهد ذلك قوله ﷺ: «**لو أنفق أحكم مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**» [رواه البخاري].

وقوله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله تقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل**» [رواه البخاري].

وفيه: أن جزاء السيئة دائر بين العدل والعفو لقوله ﷺ في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «**من جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها، أو أغفر**»، ما عدا الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وفي الحديث: بيان سعة علم الله - تعالى - واطلاعه على السرائر وما تخفي الصدور.

وفي الحديث: التحذير من الذنوب في الخلوات والجلوات، وأن الله عز وجل مطلع على العبد وأعماله ونيته.

وقد ذكر العلماء الأسباب مانعة من العقوبة بإذن الله وهي:

السبب الأول: التوبة؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوبة مقبولة من جميع الذنوب بما في ذلك الشرك قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

السبب الثاني: الاستغفار، وهو طلب المغفرة والعفو من الله عز وجل.

السبب الثالث: الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]. وفي وصية النبي ﷺ لمعاذ: «**يا معاذ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها**».

السبب الرابع: دعاء المؤمنين له، فإن دعاء المؤمنين واستغفارهم للمؤمن، وكذلك صلاتهم على الميت ودعاءهم وشفاعتهم له من أسباب المغفرة.

السبب الخامس: دعاء النبي ﷺ واستغفاره في حياته وبعد مماته، كشفاعته يوم القيامة. واستغفاره لأمته في حياته.

السبب السادس: ما يُفعل بعد الموت من عمل صالح يُهدى له: مثل أن يُتصدق عنه أو يحج عنه، وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أوعلم يُنتفع به، أوولد صالح يدعو له**» [رواه مسلم].

السبب السابع: المصائب الدنيوية التي يكفر بالله بها الخطايا. في الحديث: «**ما يصب المؤمن من وصب ولا نصب ولاغم ولاهم ولا حزن ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**».

السبب الثامن: ما يُبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة والروعة وفتنة الملكين.

السبب التاسع: ما يحصل له في الآخرة من كرب وأهوال يوم القيامة.

السبب العاشر: رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد، وهو الغفور الرحيم.

الحديث الثامن والثلاثون

الحديث عن قوم اصطفاهم الله بمحبته، وآثرهم بفضله ورحمته. أولئك الذين اعتصموا بحبله وسارعوا إلى طاعته، فأفاض الله عليهم من أنواره، وجعل لهم مكانة لم يجعلها لغيرهم، وتولاهم بنصرته وتأييده، أولئك هم أولياء الله.

وأهم أمارات وعلامات الولي: محافظته على فرائض الله، واجتهاده في النوافل وهي السنن والمستحبات، ولكل فريضة نافلة، ونحسن الظن بالمؤمنين المتقين، ويكفينا ظاهر الأمر، فلا نقطع لأحد بالولاية بعينه، إلا بخبر من المعصوم ﷺ، فإن الإخلاص موضعه القلب، والعبرة بالخواتيم.

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ إنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَد آذَنْتهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

هذا الحديث في بيان حال الأولياء، لأنه يبين من هم أولياء الله وأحباؤه في الدنيا والآخرة.

قال ابن تيمية: (هذا أشرف حديث في ذكر الأولياء).

واختاره الإمام النووي في الأربعين حديثًا التي عليها مدار الدين.

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن الله تعالى قدم الإعذار إلى كل من عادى وليًا بأنه محاربه بنفس المعاداة).

قوله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب».

والمعاداة: إيجاد العداوة بالخصومة أو الإعراض أو بعدم المحبة أو البغض. وعداوة ولي من أولياء الله سبب لعداوة الله وحربه، والمعاداة: البغض، وإرادة إلحاق الأذى والضرر، والسعي في ذلك، فإن كان لدين ولي الله، فهو كفر، وإن كان لغير ذلك، وكان بغير حق فهو كبيرة، وإن كان بحق فمكروه، كالعداوة الناشئة عن خصومة.

جاء في الحديث: «من عادى لي وليًا». يعني صار عدوًا لي من أوليائي، والمعاداة ضد الموالاة.

والمراد: أعلمته بأني محارب له، وعادى: أي أذى وأبغض، وأغضب بالقول والفعل.

وليًا: من الولي وهو القرب والتولي، والولي هو القريب من الله، لتقربه إليه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهو المؤمن المتقي.

«فقد آذنته بالحرب» أي؛ فقد أعلمته وأعلنت له العداوة. أي؛ مهلكه بأخذه على غرة، وهذا وعيد شديد لمعاندته ومعاداته من أحب الله تعالى.

وأولياء الله هم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]. وولي الله تعالى من امتثل أمره واجتنب نهيه.

والولي: من الولى وهو القرب والدنو، فالولي هو القريب من الله ـ تعالى ـ لتقربه إليه باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والإكثار من نوافل العبادات مع كونه لا يفتر عن ذكره، ولا يرى غيره بقلبه توحيدًا وتعظيمًا. ومن تولى الله بالطاعة والتقوى، فإن الله يتولاه بالحفظ والنصرة.

قال ابن حجر: (المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته).

وقال ابن تيمية: (والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة: البغض والبعد، وقد قيل أن الولي سمي وليًا من موالاته للطاعات؛ أي متابعته).

قال ابن رجب: (فأولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم، قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]).

وولاية الله لا تتحقق ولا تكون إلا بالمجاهدة والقيام بما أمر الله به من الفرائض والنوافل وكثرة الذكر، مع الإخلاص له ﷻ، والمتابعة لرسوله ﷺ.

قال الفاكهاني: (وفي هذا تهديد شديد لأن من حاربه الله أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله؛ أكرمه الله).

ثم ذكر ما أعد لهم بقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥: ٥٦].

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضًا، فمن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه» [رواه الترمذي].

وفي قولـه: «وما تقـرب إليَّ عبدي» إضـافته للتشـريف المـؤذن بمزيـد الرفعـة والمنزلة.

«أحـب إلـيَّ ممـا افترضـت عليـه»؛ لأن الفـرائض مقدمـة علـى النوافـل، ونتيجـة هـذه الطاعـات والقربـات أن الله يحبـه، ويتـولاه بحفظه وعونه، ونصره وتأييده، فيحفظ سمعه من الحرام، وبصره ويده ورجله، وإن سأل الله ﷻ أعطاه، وإن استعاذه من شر شياطين الإنس والجن أعاذه.

قوله تعالى: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه». لما ذكر الله تعالى أعداءه ذكر أولياءه وقسمهم قسمين: أحدهما من تقرب إليه بأداء الفرائض وترك المحرمات. والثاني: من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل.

فالقسم الأول: المقتصدون، وهم أصحاب اليمين. والثاني المقربون، وهم السابقون الذين تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في النوافل والطاعات، والانفكاك عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك، يوجب للعبد محبة الله تعالى. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ

وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وكان داود عليه السلام يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد**» [رواه الترمذي].

قال ابن رجب: (ومن أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم).

وقال خباب بن الأرتّ لرجل: (تقرب إلى الله تعالى ما استطعت. واعلم أنك لن تتقرب إلى الله بشيء هو أحب إليه من كلامه).

وقال عثمان رضي الله عنه: (لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (من أحب القرآن أحب الله ورسوله).

ومما يتقرب به العبد إلى الله تعالى كثرة ذكر الله في كل وقت، وعلى كل حال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]

الآيات. وفضائل الذكر معروفة في القرآن والسنة، وهي أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

قوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها». وفي بعض الروايات: «**وقلبه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به**» هذا مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال ابن رجب: (المراد من هذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض، ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته، وخوفه ومهابته وإجلاله، والأنس به، والشوق إليه حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة، فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه، فحينئذٍ لا ينطق العبد

إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به، فهذا هو المراد بقوله: (كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها).

«وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه» فيه أن أحب الأعمال إلى الله أداء فرائضه، وأن كثرة النوافل من صلاة وصيام وحج وصدقة توجب محبة الله للعبد وقربه، فيرتقي إلى درجة الإحسان، فيمتلأ قلبه بمعرفة الله ـ تعالى ـ وعظمته وخوفه ورجائه.

قال ابن دقيق العيد: (فيه إشارة إلى أنه لا تقدم نافلة على فريضة، وإنما سميت النافلة نافلة إذا قضيت الفريضة وإلا فلا يتناولها اسم النافلة لأن التقرب بالنوافل يكون بتلو أداء الفرائض).

«وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» يعني بعد الفرائض، والفعل «لايزال» يدل على الاستمرار: يعني: ويستمر. ويكون الحب بالإجتهاد في نوافل الطاعات من صلاة وصيام وزكاة وحج والاشتغال بذكره، وكف النفس عن المكروهات. فالنوافل تقرب إلى الله وهي تكمل الفرائض، فيبتدأ الإنسان بالفرائض ثم يؤدي النوافل حتى ينال محبة الله ﷻ.

وأن من تقرب إلى الله بالنوافل ـ بعد أداء الفرائض لأنها مقدمة على النوافل ـ أحبه، ونصره، وحفظه، وأجاب دعاءه، ورقّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فلا ينطق بما يسخط الله، ولا تُحرك جوارحه في معاصي الله.وإن سأل الله أعطاه، وإن استعاذ مما يخاف أعاذه منه وأمَّنه.

«حتى أحبه فإذا أحببته» ورضيت عليه وأردت به الخير. ومحبة الله تحصل بأداء الفرائض، وتتضاعف بأداء النوافل.

ثم ذكر «فإذا أحببته» أي: أنزلته تلك المنزلة العظيمة.

«كنت سمعه الذي يسمع به» أي؛ حافظًا لسمعه وجوارحه من أن يستعملها في غير طاعة لله لا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني. وسددته في كل ما يسمع فلا يسمع إلا ما فيه الخير له.

«وبصره الذي يبصر به» أي؛ احفظه عما يحرم النظر إليه من الصور المحرمة فلا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

«ويده التي يبطش بها» فلا يعمل بيده إلا ما يرضاه الله ﷻ.

«ورجله التي يمشي بها» فلا يمشى إلا فيما يحل فيكون مسددًا في أقواله وفي أفعاله.

قال الخطابي: «هذه أمثال، والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشر بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله».

«ولئن سألني أعطيته» أي، دعاني، أعطيته سأله، وأجبت دعوته. أي: يصير مجاب الدعوة لكرامته على الله.

«ولئن استعاذني لأعيذنه» أي؛ استعاذ، مستعيذًا بحولي وقوتي في الحفظ من كل مؤذ لأعيذنه. وأكد هذه الجملة بالقسم ونون التوكيد اهتمامًا بمضمونها لأنه درء مفسدة وذلك جلب مصلحة، والأول أهم والعناية به أتم.

هذا جزاء ونتيجة محبة الله له، فإن سأل شيئًا أعطاه، وإن استعاذ به من شيء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب الدعوة لكرامته على ربه.

فذكر السؤال الذي به حصول المطلوب، والاستعاذة التي بها النجاة من المهروب، وأخبر أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعطي هذا المتقرب إليه بالنوافل يعطيه ما سأل ويعيذه مما استعاذ.

وفي آخر هذا الحديث: «**وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته**» وللطبراني: «**ولابد له منه**»، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما أغبط أحدًا يهون الله عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ قال: وكان عنده قدح من ماء، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول: «**اللهم أعني على سكرات الموت**»، قال: وجعل يقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**».

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان من الله وكرامة، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، وأحب لقاء الله فأحب الله لقاءه**». وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

قال العلماء: (إن كان المعادي للولي إنما يعاديه من أجله دينه فينطبق عليه هذا الحديث ويكون مستحقًا حرب الله عليه، وإن كان من أمور الدنيا فشرطه إن لا يحمله على البغضاء وإلا يقع عليه هذا الحديث،

فالمخاصمة جاءت بين المؤمنين كالصحابة والسلف والعلماء وهذا لا شيء فيه لبعدهم عن حصول البغضاء والكرة والمقت).

قال الطوفي: (لما كان ولي الله من تولى الله بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة، وأجرى الله العادة بأن عدو العدو صديق، وصديق العدو عدو، فعدو ولي الله عدو الله، فمن عاداه كان كمن حاربه، ومن حاربه فكأنما حارب الله).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم).

قال ابن رجب: (واعلم أن جميع المعاصي محاربة لله - تعالى -).

وقال الحسن: (ابن آدم هل لك بمحاربة الله من طاقة؟ فإن من عصى الله فقد حاربه، لكن كلما كان الذنب أقبح كانت المحاربة لله أشد، ولهذا سمى الله - تعالى - أكلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله - تعالى - ورسوله لعظم ظلمهم لعباده، وسعيهم بالفساد في بلاده، وكذلك معاداة أوليائه فإنه - تعالى - يتولى نصرة أوليائه ويحبهم ويؤيدهم، فمن عاداهم فقد عادى الله - تعالى - وحاربه).

وقال الحسن البصري: (ابن آدم هل لك بمحاربة الله من طاقة؟ فإن من عصى الله فقد حاربه).

وإن من آثار محبة الله للعبد: تسديد الله للعبد، وحفظ جوارحه عن المحارم والفضول، فلا يتصرف العبد بجوارحه إلا وفق الشرع. ومن آثار هذه المحبة الخاصة إجابه دعائه، وإعطاءه سؤله، وإعاذته مما استعاذ منه.

وفي الحديث: أن معاداة أولياء الله من كبائر الذنوب لقوله ﷺ: «فقد آذنته بالحرب» أي قد اعلمته بأنني محارب له، فأولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

وهناك فرق بين الولاية والموالاة، فالموالاة إنما تثبت لأهل الإيمان، وأما كون العبد مولى لله فهذا يشمل المؤمنين والكفار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١- ٦٢].

وولاية الله لعبادة على نوعين:

النوع الأول: الولاية العامة، ومنها قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

والنوع الثاني: الولاية الخاصة وهي للمؤمنين المتقين، وهذ الولاية الخاصة للمؤمنين المتقين هي المذكورة في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

والولاية لا تحصل إلا بطاعة الله ﷻ بفعل الواجبات وترك المحرمات، والتقرب بالنوافل، فمن ادعى أن ولاية الله تحصل بغير ذلك فهو كاذب في دعواه.

وفي: الحديث كرامة الله لأولياءه حيث كان الذي يعاديهم قد آذن الله بالحرب.

وفيه: الترغيب في كثرة النوافل في قوله ﷺ: «ولا يزال عبدي يتقرب على بالنوافل حتى أحبه».

وفي الحديث: الوعيد الشديد لمن عادى وليًا من أجل طاعته لله ﷻ إما بكراهيتهم أو إيذائهم.

الحديث التاسع والثلاثون

أمة الإسلام هي خير وأكرم أمة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وللنبي ﷺ علو قدر عند الله ﷻ وفضل على سائر الأمم. فقد أكرم الله ﷻ نبينا محمدًا ﷺ في أمته بأن لا يؤاخذ أحداً منهم ارتكب محظورًا أو ترك واجبًا خطأ أو نسيانًا، لا يكون ذلك في حكمه تعالى آثمًا.

فإن الله سبحانه وتعالى جعل أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «**جعلت أمتي خير الأمم**» [رواه أحمد] وقال ﷺ: «**نكمل يوم القيامة سبعين أمة نحن آخرها وخيرها**» [رواه ابن ماجة] وقال ﷺ: «**أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها، واكرمها على الله تبارك وتعالى**» [رواه أحمد].

وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «**أمتي هذه أمة مرحومة**» ومن رحمة الله ﷻ بأمة محمد ﷺ هذا الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

روى ابن ماجة والبيهقي في السنن عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ».

هذا حديث جليل، قال بعض العلماء ينبغي أن يُعد نصف الإسلام، لأن الفعل إما عن قصد أو اختيار أولا، الثاني: ما يقع عن خطأ أو نيسان أو إكره، فهذا القسم معفو عنه باتفاق.

قال الطوفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الحديث عام النفع، عظيم الموقع، وهو يصلح أن يسمى نصف ا لشريعة».

وفي هذا الحديث بيان سعة رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ ولطفه بعباده وإن رحمته سبقت غضبه حيث رفع عنهم الإثم فيما ورد في الحديث.

«إن الله» تعالى «تجاوز لي» أي عفا وصفح. وقيل: رفع المؤاخذة.

«تجاوزلي» لأجلي أي: من أجلي وتعظيم أمري.

«عن أمتي» أي أمة الرسول ﷺ، وأمة الرسول أمتان: أمة دعوة، وأمة إجابة، فأمة الدعوة هم كل أنسي وجني من حين بعثة الرسول ﷺ إلى قيام الساعة، وأمة الأجابة: هم الذين وفقهم الله وهداهم للدخول في الدين وصاروا مسلمين.

«الخطأ» وهو فعل الشيء من غير قصد.

«والنسيان» هو عدم ذكر الشيء لذهول أو غفلة، وهو معفو عنه، وما سمي الإنسان إنسانًا إلا من نسيانه.

أي لا إثم فيه، ولكن رفع الإثم لا ينافي أن يترتب على نسيانه حُكم، كما أن من نسي الوضوء وصلى ظانًا أنه متطهر، فلا إثم عليه بذلك، ثم إن تبين له أنه كان قد صلى محدثًا، فإن عليه الإعادة. وهذا من سماحة الدين والرحمة وعدم التحريج في الشريعة وسعة رحمة الله وأن رحمته سبقت غضبه حيث رفع عنهم الإثم في تلك الحالات.

قال ابن رجب: (والأظهر -والله أعلم- أن الناسي والمخطئ إنما عُفي عنهما يعني رفع الإثم عنهما، لأن الإثم مرتب على المقاصد والنيات، والناسي والمخطئ لا قصد لهما، فلا إثم عليهما، وأما رفع الأحكام عنهما فليس مرادًا من هذه النصوص).

ثم قال ﷺ: «وما استكرهوا عليه» أي على فعله أو قوله، فلا إثم على من صدر منه ذنب بالقهر والإجبار عليه.

وهذ الثلاثة أعذار شهد لها القرآن الكريم. أما الخطأ والنسيان فقد قال الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال الله ﷻ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ

مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

والتجاوز الذي في الحديث إنما هو عن الإثم، يعني: كون الإنسان إذا أخطأ لايأثم، وإذا انسي لا يأثم، وإذا فعل أشياء أكره عليها فإنه لا يأثم، وأما الضمان في المتلفات فإن ذلك لا يسقط مثل: القتل خطأ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢]. فالدية لازمة ولو كان ذلك خطأ، بل الدية إنما تكون في الخطأ.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. شق ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وقالوا: إن هذا شيء لا نطيقه.

فقال: أتريدون أن تقولوا كما قالت بني إسرائيل.سمعنا وعصينا؟ قولوا: سمعنا وأطعنا، فلما قالوا وذلت بها ألسنتهم أنزل الله قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ

وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦]، فنسخت قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ونسخ الله قوله ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وسامحهم عما وقع في النفوس في قوله ﷺ في الحديث: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها مالم تعمل أو تتكلم**» فما كان من وساوس الصدر فهو معفو عنه مالم يعمل العبد أو يتكلم، لكن إذا استقر في القلب وصار عملًا يؤاخذ به الإنسان، إذا استقر في قلبه من المنكر، ومن الكبر والخيلاء أو نفاق أو غير هذا من أعمال القلوب الخبيثة يؤخذ به الإنسان، أما إذا كان عوارض تخطر في البال، ولا تستقر، فالله لا يحاسب عليها، بل من فضله وجوده وكرمه يتجاوز عنها، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ هذا بالنسبة إلى المستقر في القلوب، المقيم في القلوب من أعمال القلوب يؤاخذ عليه الإنسان، من نفاق ورياء وكبر وغير هذا من أعمال القلوب، واعتقادات باطلة سواء أظهرها أو أخفاها فهو مؤاخذ بها.

قال شيخ الإسلام: (وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة أن الله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان، فهذا عام عمومًا محفوظًا، وليس في

الأدلة الشرعية ما يوجب أن الله يعذب من هذه الأمة مخطئًا على خطئه، وإن عذب بالمخطئ من غيره هذه الأمة).

وقال الشيخ ابن عثيمين: (للتكليف موانع منها: الجهل والنسيان والإكراه، لقول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» [رواه ابن ماجة والبيهقي] وله شواهد من الكتاب والسنة تدل على صحته، فالجهل: عدم العلم، فمتى فعل المكلف محرمًا جاهلًا بتحريمه فلا شيء عليه.

والنسيان: ذهول القلب عن شيء معلوم، فمتى فعل محرمًا ناسيًا فلا شيء عليه، كمن أكل في الصيام ناسيًا، ومتى ترك واجبًا ناسيًا فلا شيء عليه حال نسيانه، ولكن عليه فعله إذا ذكره لقول النبي ﷺ: **«من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها»**.

وهذا كله فيما يتصور فيه الجهل والنسيان، وأما ما لا يتصور فيه ذلك كسب الدين مثلًا فلا يكون عذرًا لفاعله، كما أن الجهل الذي يعذر به وكذا النسيان هو الجهل بالحكم الشرعي وأما الجهل بالعقوبة مع العلم بالتحريم فلا يؤثر ولا يكون عذرًا).

ثم قال رحمه الله تعالى: (هناك فرق بين الجهل بالحكم وبين الجهل بالعقوبة، فالجهل بالعقوبة لا يعذر به الإنسان، والجهل

بالحكم يعذر به الإنسان، ولهذا قال العلماء: (لو شرب مسكرًا يظن أنه لا يسكر، أو يظن أنه ليس بحرام فإنه ليس عليه شيء، ولو علم أنه مسكر وأنه حرام، ولكن لا يدري أنه يعاقب عليه، فعليه العقوبة ولا تسقط عنه).

وربنا ﷻ هو الرحمن الرحيم، وهو أرحم الراحمين، الذي وسعت رحمته كل شيء، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والأنس والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبه يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولده، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة**».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (قدم رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبى تبتغي، إذا وجدت صبيًا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**» [متفق عليه].

ومن رحمة الله بعباده إرسال الرسل وإنزال الكتب والشرائع لتستقيم حياتهم على سنن الرشاد والهدى بعيدًا عن الضنك والعسر

والضيق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ورحمته تعالى هي التي تدخل عباده المؤمنين الجنة يوم القيامة، ولن يدخل أحد الجنة بعمله كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لن يُدخل أحدًا عمله الجنة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمه، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب**» [رواه البخاري ومسلم].

وعلى المؤمن أن يبقي على رجاء رحمة الله والخوف من عقابه فهو القائل ﷻ: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

وعلى المسلم أن يعلم عظم فضل الله عليه بمضاعفة الحسنات والتجاوز عن الزلات فيسارع إلى التوبة ويكثر من الاستغفار ونوافل العبادات عسى الله أن يرحمه ويختم له بخير.

وفي الحديث: بيان سعة رحمة الله ولطفه بعباده.

وفيه: أن جميع المحرمات في العبادات وغير العبادات إذا فعلها الإنسان جاهلًا أو ناسيًا أو مكرهًا فلا شيء عليه فيما يتعلق بحق الله، أما حق الآدمي فلا يعفى عنه من حيث الضمان، وإن كان يُعفى عنه من حيث الإثم.

الحديث الأربعون

روى البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، وَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

هذا الحديث جامع لمعاني الخير وأشرفه، فيه الحث على التفرغ من هموم الدنيا والاشتغال بأمور الآخرة.

قال المناوي: (وهذا الحديث أصل عظيم في قصر الأمل، وألا يتخذ الدنيا وطنًا وسكنًا، بل يكون فيها على جناح سفر مهيأ للرحيل، وقد اتفقت على ذلك وصايا الأمم، وفيه حث على الزهد، والإعراض عن الدنيا).

وهذا الحديث أصل جامع لأنواع الخير، وفيه الابتداء بالنصيحة والإرشاد لمن يطلب ذلك، وتحريضه ﷺ إيصال الخير لأمته، فإن هذا الكلام لا يخص ابن عمر وحده.

وفي الحديث عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي) يعني أمسك بهما، لأجل أن يسترعي انتباهه ليحفظ ما يقول. والمنكب: هو مجمع العضد والكتف.

«فقال» له النبي ﷺ: «كن في الدنيا» أي في مدة إقامتك بها، «كأنك غريب» أي؛ مُشبها به، بألا تركن إليها وتطمئن فيها.

قال ابن هبيرة: (أن رسول الله ﷺ حض على التشبه بالغريب، لأن الغريب إذا دخل بلدة لم ينافس أهلها في مجالسهم، ولا يجزع أن يُرى على خلاف عادته في الملبوس، ولا يكون متدابرًا معهم).

«أو عابر» أي مسافر «سبيل» أي طريق، والمسافر همه قطع المسافة إلى مقصده، لا ينفذ في سفره إلا بقوته وتخفيفه من الأثقال، غير متشبث بما يمنعه عن قطع سفره، معه زاده وراحلته يبلغانه على ما يعنيه من مقصده، وفي هذا إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا، وأخذ البلغة منها، والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر على أكثر مما يبلغه غاية سفره، فكذلك المؤمن لا يحتاج في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل).

وعندما نتأمل في حقيقة هذه الدنيا، نعلم أنها لم تكن يومًا دار إقامة، أو موطن استقرار، ولئن كان ظاهرها يوحي بنضارتها

وجمالها، إلا أن حقيقتها فانية ونعيمها زائل، كالزهرة النضرة التي لا تلبث أن تذبل ويذهب بريقها.

تلك هي الدنيا التي غرت الناس، وألهتهم عن آخرتهم، فاتخدوها وطنًا لهم ومحلًا لإقامتهم، لا تصفو فيها سعادة، ولا تدوم فيها راحة، ولا يزال الناس في غمرة الدنيا يركضون، وخلف حطامها يلهثون، حتى إذا جاء أمر الله انكشف لهم حقيقة زيفها، وتبين لهم أنهم في غفلة ساهون، وصدق الله العظيم ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال داود الطائي: (إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة، حتى ينتهي ذلك بهم على آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عما قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك).

أصل حياة المسلم في الدنيا قصر الأمل والاستعداد بحسن العمل، فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا يطمئن فيها فإنها دار ممر، والآخرة هي دار المقر، ولهذا قال ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»؛ لأن الغريب إذا دخل بلدة لم

ينافس أهلها، ولا يلج معهم في الخصومات، وكذلك عابر السبيل لا يأخذ معه في سفره ما يثقله ويعوقه عن بلوغ وطنه، بل يكتفي بأقل زاد ومتاع.

وقد بين تعالى حال الدنيا فقال: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]. وقال ﷺ: «**مالي وللدنيا؛ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها**» [رواه أحمد]. فإن المؤمن في الدنيا كالغريب، وهو النازل في غير وطنه، يعد العدة للرحيل والعودة، ولا يعنيه ما يعني أهل الوطن، ولا يبالي بقله من يعرف.

قال المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؛ لأصحابه: (اعبروها ولا تعمروها).

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: (إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل).

ودخل رجل على أبي ذر، فجعل يقلب بصره في بيته. فقال يا أبا ذر أين متاعكم؟ فقال: إن لنا بيتًا نتوجه إليه. فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا ههنا.

وقال الحسن: المؤمن كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، له شأن وللناس شأن. وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

فحي على جنات عدن فإنها　　منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى　　نعود إلى أوطاننا ونسلم

وكان عطاء السلمي يقول في دعائه: اللهم ارحم في الدنيا غربتي، وارحم في القبر وحشتي، وارحم موقفي غدًا بين يديك.

وقال بعضهم:

ترحل عن الدنيا بزاد من التقى　　فعمرك أيام وهن قلائل

وما أقبح التفريط في زمن الصبا　　فكيف به والشيب للرأس شاعل

قال المروزي: قيل لأبي عبد الله: أي شيء الزهد في الدنيا؟ قال: (قصر الأمل، ومن إذا أصبح قال لا أمسي).

وقال أبو بكر المزني: (إن استطاع أحدكم أن لا يبيت إلا وعهده عند رأسه مكتوب فليفعل، فإنه لا يدري لعله أن يبيت في أهل الدنيا ويصبح في أهل الآخرة).

وقال بعض السلف:

إنّـــا لنفــرح بالأيــام نقطعهـــا وكل يوم مضى يدني من الأجل

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا فإنما الربح والخسران في العمـل

وكان ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء) حظًا منه على أن يجعل الشخص الموت بين عينيه، فيشتغل بالعمل الصالح، وأن يقصر الأمل، ويترك غرور الدنيا، ويبادر إلى العمل، لأن المرء لا يدري متى يصل إلى وطنه صباحًا أو مساءً، فهو إذا أمسى في غربته لا ينتظر الصباح، وإذ أصبح لا ينتظر المساء، وهذا المعنى لا يدل على ترك الرزق وتحريم ملذات الدينا، بدليل فعل النبي ﷺ وصحابتة الكرام، لكن المراد الاستفادة من الأوقات والإيقاظ من الغفلات وترك الملهيات.

قوله: (وخذ من صحتك لمرضك)، يعني: اغتنم الأعمال الصالحة قبل أن يحال بينك وبينها بمرض يمنع من العمل. لأنه لابد للإنسان من الصحة والمرض، فينتفع أيام صحته، وينفق ساعاته فيها بما يعود عليه نفعه.

«ومن حياتك لموتك» تنبيه على اغتنام أيام حياته لأن من مات انقطع عمله وفات أمله.

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**».

وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس بأن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

وقد ذم الله الأمل وطوله، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (خط النبي ﷺ خطوطًا، فقال: «**هذا الإنسان، وهذا الأمل وهذا الأجل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب**» [رواه البخاري].

وفي هذا تنبيه على تقصير الامل واستقصار الأجل خوف بغتته، ومن غيب عنه أجله فهو جدير بتوقعه وانتظاره خشية هجومه عليه في حال غرة وغفلة.

وهذا الحديث لا يدل على ترك السعي في الأرض لطلب الرزق وتحريم ملذات الدنيا؛ بل يستعد المسلم للموت بصلاح دينه ودنياه.

والمؤمن الحق كيس فطن، ذكي زكي، موفق معان، ولذلك يحرص على فعل الخيرات واغتنام فرصة الحياة الدنيا لنيل الحسنات ورفعة الدرجات والتقرب إلى رب البريات.

وقد أمرنا ربنا عَزَّ وَجَلَّ بذلك في آيات كثيرة من كتابة الكريم، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وسئل رجل النبي ﷺ أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: «**أن تصدق وانت صحيح شحيح تخش الفقر وتأمل الغنى، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**» [رواه البخاري].

فسارعوا عباد الله إلى التوبة النصوح واستدركوا ما فات من الأوقات فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له من مرض أو شغل أو موت يقطعه عن الدنيا. والسعيد من وعظ بغيره.

وينبغي للمؤمن أن يتخذ من مرور الليالي والأيام عبرة لنفسه، فإن الليل والنهار يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويطويان الأعمار، ويشيبان الصغار ويفنيان الكبار، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: (إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل).

وقال الحسن: (إن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله ﷻ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة).

وفي الحديث: التزهيد في الدنيا وأن لا يتخذها الإنسان دار إقامة.

وفيه: حسن تعليم النبي ﷺ بضرب الأمثال المقنعة.

وفيه: أنه ينبغي للعاقل مادام باقيًا والصحة متوفرة أن يحرص على العمل قبل أن يموت فينقطع عمله.

الحديث الواحد والأربعون

جاء في الحديث عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» [حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح].

راوي هذا الحديث هو عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، كان من فضلاء الصحابة وعُبادهم وزهادهم، يصوم النهار ويقوم الليل، توفي في مكة سنة خمس وستين من الهجرة، عن اثنتين وسبعين سنة.

وهذا الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو حديث عظيم نافع وجيز، جامع لأفراد الشريعة، لإفادته أن من كان هواه تبعًا لجميع ما جاء به النبي ﷺ فهو المؤمن الكامل، ومن أعرض عن جميع ما جاء ﷺ ومنه الإيمان فهو كافر.

وفي الحديث قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم» أي لا يؤمن الإيمان الكامل، وليس المراد به نفي الإيمان بالكلية. «حتى يكون هواه» أي حبه وميله «تبعًا» أي تابعًا. «لما جئت به» من الشريعة المطهرة، فلا يلتفت إلى غيرها.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وفي هذا الحديث ترسيخ النفوس المؤمنة إلى الإنقياد لأحكام الشرع وتعاليمه، وبيان وجوب الالتزام والإذعان لأحكامه وشرائعه، فإن المؤمن إذا رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا حمله ذلك على أن يحكم الشرع في حياته، فيحل حلاله، ويحرم حرامه، ويحب ما دعا إليه، ويبغض ما نهى عنه، ولا يجد في ذلك ضيقًا ولا تبرما، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقد ذم الله ﷻ من كره ما أحبه الله، أو أحب ما كرهه الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

ومحبة الإنسان للخلق تتفاوت، فهناك المحبة الطبيعية كمحبة الإنسان لأولاده وأبويه وهذه المحبة لا يلام عليها، وأن تحب مسلمًا لأنه نفعك دينيًا أو نفعًا دنيويًا، فتحبه ويميل قلبك إليه لحسن

عمله وخلقه، وهذا كله لا ينافي محبة الإيمان. المحبة الثالثة: أن تحب الإنسان لصلاحه ولتقاه ولعبادته واستقامته والتزامه بأمور الله ﷻ، مع أنه ما نفعك في دنياك، ولا شفع لك ولا أهدى لك فهذه محبة دينية، وهي التي يجد بها المرء حلاوة الإيمان. قال معاذ رضي الله عنه (الحب في الله أن لا يزيد في حالة البر، ولا ينقص بالجفاء).

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال:

«**ثلاث**» أي؛ من خصال، أو ثلاث خصال. «**من كن فيه**» أي؛ وجدن منه تامة واتصف بهن. «**وجد بهن حلاوة الإيمان**» وجد: أي؛ بسببهن.

قال النووي: (المراد من حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في الدين وإيثار ذلك عن أعراض الدنيا، تحصل بفعل طاعته وترك معصيته، وكذا الرسول).

وقال ابن عثيمين: (حلاوة يجدها الإنسان في قلبه، ولذة عظيمة لا يساويها شيء، يجد انشراحًا في صدره، رغبة في الخير، حبًا لأهل الخير، حلاوة لا يعرفها إلا من ذاقها بعد أن حُرمها).

قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: (معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضا الله ﷻ ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، ومحبة العبد ربه ـ سبحانه وتعالى ـ بفعل طاعته، وترك مخالفته، وكذلك محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ).

والأمر الأول الذي يجد به المرء حلاوة الإيمان كما قال النبي ﷺ: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**» أي؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه من عداهما. وأن يقدم محبة الله ومحبة رسوله على محبة نفسه وولده وإخوته، وأهله وذويه وماله وأقاربه، وأسرته والناس كلهم، وذلك لأنه يعرف بأن الله ـ تعالى ـ هو ربه، وهو مالكه، وهو المتصرف فيه، فيحبه من كل قلبه، ويعرف أن النبي محمد ﷺ هو رسول الله إلى الثقلين، وهو الذي أنقذهم الله به من الضلالة والكفر والعصيان. فيحبه من كل قلبه، فيكون بذلك مقدمًا لمحبة الله ومحبة رسوله على محبة كل شيء. فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى بما يرضى الله ورسوله، ويسخط ما يسخطه الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك، أو ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبَّة الواجبة.

وإذا أحب الله ـ تعالى ـ أحب عبادته وسارع إليها، أحب الصلاة

والصوم والصدقة وغيرها من الطاعات، وتلذذ بها وداوم عليها وأكثر منها.

ومحبة النبي ﷺ اتباع أمره، واجتناب نهيه، ويتخذه أسوة وقدوة، ويدافع عن سنته وينشرها.

الأمر الثاني الذي يجد به المرء حلاوة الإيمان قوله ﷺ: **«وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله»** المرء هو المسلم المؤمن، لأنه هو الذي يمكن أن يخلص لله في محبته.

قال ابن عثيمين: (تحب المرء لا تحبه إلا لله، ولا تحبه لقرابة، ولا لمال ولا لجاه، ولا لشيء من الدنيا، إنما تحبه لله؛ ومحبة القرابة وما عداهم محبة طبيعية لكن إذا كان قريبك من عباد الله الصالحين، فأحببته فوق المحبة الطبيعية فأنت أحببته لله).

والأمر الثالث الذي يجد به حلاوة الإيمان قوله ﷺ:«وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن انقذه الله منه» الإنقاذ أعم من العصمة منه ابتداءً بأن يولد على الفطرة ويستمر، أو بالإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة. فآمن ودخل في الإيمان والتزم بالطاعة وسلك طريقها سائلًا الله الثبات على دينه.

«كما يكره أن يعود في النار» أي؛ يرمى في النار؛ لأنه علم ووجد حلاوة الطاعة ونعيمها وأنسها.

وهذا الحديث أصل في وجوب اتباع ما جاء به الرسول ﷺ موافق لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النسا: ٦٥]. وسبب نزول هذه الآية: «أن الزبير بن العوام رضي الله عنه كان بينه وبين رجل من الأنصار خصومة في ماء فتحاكما إلى رسول الله ﷺ فقال: «**اسق يا زبير وسرح الماء إلى جارك**» - يحضه على المسامحة والتيسير- فقال الأنصاري: يا رسول الله يا رسول الله، أن كان ابن عمتك، فتلوّن وجه رسول الله ﷺ، ثم قال «**يا زبير احبس الماء حتى يبلغ الجدر ثم سرحه**» [رواه البخاري] وذلك أن رسول الله ﷺ كان أشار على الزبير بما فيه مصلحة الأنصاري بما قال: أي أغضبه استوعب للزبير حقه الذي يجب له. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين**». وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال يحيى بن معاذ: (ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده).

وقال بعضهم:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وفيه الفرق بين الهوى واتباع الهوى، فاتباع الهوى: هو الدوران معه، وإن خالف الأمر، فيكون مذمومًا، والهوى: هو الرغبة في الشيء ومحبته، فإن وافق الأمر كان محمودًا، وإن خالفه، كان مذومًا.

وجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠].

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه.

وكذلك حب الأشخاص: الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبة الله ومحبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، ويحرمُ موالاة اعداء الله، ومن يكرهه الله عمومًا، وبهذا يكون الدين كله لله، ومن «**أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**» [رواه أبو داود].

والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق: أنه الميل إلى خلاف الحق كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقًا، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره، وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه، وسئل صفوان بن عسال: هل سمعت من النبي ﷺ يذكر الهوى

فقال: سأله أعرابيٌّ عن الرجل يحب القوم ولم يلحق بهم، فقال: «**المرء مع من أحب**».

ولما نزل قوله ﷻ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥١]، قالت عائشة للنبي ﷺ: «**ما أرى ربك إلا يسارع في هواك**».

وقال عمر في قصة المشاروة في أسارى بدر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وهذا الحديث مما جاء استعمال الهوى فيه.

والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال الحسن: قال أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله، إنا نحب ربنا حبًّا شديدًا، فأحب الله أن يجعل لحبه علمًا، فأنزل الله هذه الآية.

قال أبو يعقوب النَّهْرُجُوريُّ: (كل من ادَّعى محبة الله ﷻ، ولم يوافق الله في أمره فدعواه بطالة، وكل محب ليس يخاف الله، فهو مغرور).

وقال يحيى بن معاذ: (ليس بصادق من ادعى محبة الله ﷻ ولم يحفظ حدوده).

قال وهيب بن الورد: بلغنا - والله أعلم - أن موسى عليه السلام، قال: يا رب أوصني؟ قال: أوصيك بي، قالها ثلاثًا، حتى قال في الآخرة: أوصيك بي أن لا يعرض لك أمرٌ إلا آثرت فيه محبتي على ما سواها، فمن لم يفعل ذلك لم أزكِّه ولم أرحمه.

وفي الحديث من الفوائد: تحذير الإنسان من أن يُقدم على النصوص الشرعية شيئًا فلا يجوز له أن يقدم رغبة وهوى. قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وفيه: وجوب تحكيم الشريعة في كل شيء.

وفيه: أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

الحديث الثاني والأربعون

روى الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتنِي وَرَجَوْتنِي غَفَرْتُ لَك عَلَى مَا كَانَ مِنْك وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتنِي غَفَرْتُ لَك، يَا ابْنَ آدَمَ! إنَّك لَوْ أَتَيْتنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُك بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

هذا حديث قدسي وهو مما يرويه الرسول ﷺ عن ربه من قوله، فهو من كلام الله، ولكن ليس له حكم القرآن.

وفي هذا الحديث بيان أن رحمة الله واسعة، وفضله عظيم، وفيه بيان لأسباب حصول المغفرة، وفيه فضل التوحيد وعظم شأنه.

وفي الحديث؛ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله-تعالى-» هذا من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي ﷺ عن ربه.

«يا ابن آدم» المقصود به هنا: المسلم.

«إنك ما دعوتني» أي؛ بمغفرة ذنوبك. و«ما» مصدرية ظرفية، أي؛ مدة دعائك.

«ورجوتني» بأن ظننت تفضلي عليك بإجابة دعائك وقبوله.

والرجاء: تأميل الخير وقرب وقوعه.

وفيه: أن الدعاء مع الرجاء موجبان لمغفرة الله ـ تعالى ـ، لأن العبد إذا دعا الله ﷻ مستغفرًا لذنبه، ويرجو من الله أن يغفر له، ومستحضرًا أن فضل الله عظيم، وعظم رجاؤه بالله، وأيقن أن الله ﷻ سيغفر له، حصل له مطلوبه؛ لأن في ذلك إحسان الظن في الله وإعظام الرغب بالله ﷻ.

«غفرت لك» أي؛ ذنوبك، وسترتها عليك بعدم العقاب عليها في الآخرة.

والمغفرة: غفر الشيء؛ بمعنى ستره، فهي ستر الذنب، وستر أثر الذنب في الدنيا والآخرة، ومن أسماء الله الغفور والغافر، ومن أسمائه التواب.

«على ما كان منك» من المعاصي وإن تكررت.

«ولا أبالي» أي؛ لا أكترث بذنوبك ولا استكثرها وإن كثرت، إذ لا يتعظمني شيء، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عند حسن ظن عبده به.

«يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء» يعني من كثرتها وتراكمها بلغت عنان السماء، أي؛ السحاب العالي.

«ثم استغفرتني» أي؛ تبت توبة صحيحة.

«غفرت لك ولا أبالي» وإن تكرر الذنب والتوبة في اليوم الواحد، والذنوب وإن تكاثرت وبلغت ما عسى تبلغ فتلاشت عند حلمه وعفوه، فإذا استقال منها العبد باستغفار غُفرت، لأن طلب الإقالة من كريم، والكريم محل إقالة العثرات وغفر الزلات.

والدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانه له، وهو عبادة عظيمة، والله ﷻ أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

والدعاء فيه قطع العلائق عن الخلائق وفيه اعتماد القلب على الله، والاستعانه به، وتفويض الأمور إليه وحده - سبحانه وتعالى-، بل إن الله ﷻ ليغضب حين يترك العبد سؤاله قال ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه، والله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صغرًا خائبتين**» [رواه ابن ماجة].

والدعاء سبب لانشراح الصدر وزوال الغم، وتفريج الهم، قال ﷺ: «**من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**» والله ﷻ يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

والدعاء ثمرته حاصلة قال ﷺ: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يُصرف عنه من السوء مثلها**» قالوا: إذًا نكثر يا رسول الله!- أى من الدعاء، قال: «**الله أكثر**» وهذا مشروط بشرط، قال ﷺ: «**ما لم يعجل**» قالوا يا رسول الله: ما عجلته؟قال: يقول: «**دعوت دعوت ولا أراه يستجاب لي**».

ومن آداب الدعاء: أن يبدأ بالثناء على الله، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، ويتحرى أوقات الإجابة كالثلث الأخير من الليل، وبين الأذان والإقامة وحال السجود، وغيرها، وأن يكون متوضأ مستقبلًا القبلة، هذا كله مع البعد عن المحرمات وإطابه المطعم.

ثم جاء في تتمة الحديث:

«يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض» أي؛ بملء الأرض خطايا وذنوب. «خطايا» في حال كونك:

«ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا» و«ثم» في قوله «ثم لقيتني» هنا للتراقي في الإخبار، وأن عدم الشرك مطلوب أولي. فإن السبب الأعظم للمغفرة هو التوحيد، فمن فقده فقد فقدها.

«لأتيتك بقرابها مغفرة» عبر بها للمشاركة، وإلا فمغفرة الله أعظم وأوسع من ذلك. يعني غفرت على عظم ذنوبك وكثرة خطاياك. والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه. وقراب الأرض ملؤها أو ما يقارب ملأها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وفي الحديث: بيان سعة رحمة الله - تعالى - بعباده وإحسانه إليهم.

وفيه: أن الله ﷻ يحب من عباده أن يدعوه ويرجوه ويطلبوا منه المغفرة.

وفيه: أن الإيمان شرط في مغفرة الذنوب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وفيه أن التوحيد هو السبب الأعظم لتفريج الكربات في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] هذه في الآخرة، وفي الدنيا ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وفيه: إذا تاب العبد من ذنوبه توبة نصوحًا غفرها الله له، ولو كانت ملء الأرض أو بلغت عنان السماء.

وفيه: أن الاستغفار الكامل الذي يثمر المغفرة هو ما قارن عدم الإصرار، لأنه حينئذ توبة نصوح؛ أما مع الإصرار فمجرد دعاء.

وفي هذا الحديث أصل في فضل التوحيد والدعاء والاستغفار وفيه بشارة عظيمة، وحلم وكرم عظيم، وما لا يحصى من أنواع الفضل والإحسان والرأفة والرحمة والامتنان.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء**». وفي صحيح الحاكم عن جابر: «أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ وهو يقول: واذنوباه مرتين أو ثلاثًا. فقال له النبي: «**قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي**»، فقالها، ثم قال له: «**عد**» فعاد، ثم قال له: «**عد**» فعاد، فقال له: «**قم قد غفر الله لك**».

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وللتوبة ثلاثة شروط: الإقلاع عن المعصية، والندم على ما فات، والعزم على أن لا يعود، وإن كانت حق آدمي فليبادر باداء الحق إليه والتحلل منه.

قال الحسن: (أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة).

وعن أبي هريرة مرفوعًا: «**بينما رجل مستلق إذ نظر إلى السماء وإلى النجوم فقال: إني لأعلم أن لك ربًّا خالقًا اللهم اغفر لي فغفر له**» [رواه ابن أبي الدنيا].

وعنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**سيِّدُ الاسْتِغْفار أَنْ يقُول الْعبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَه إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَني وأَنَا عَبْدُكَ، وأَنَا على عهْدِكَ ووعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صنَعْتُ، أَبوءُ لَكَ بِنِعْمتِكَ علَيَ، وأَبُوءُ بذَنْبي فَاغْفِرْ لي، فَإِنَّهُ لا يغْفِرُ الذُّنُوبِ إِلاَّ أَنْتَ**» [رواه البخاري].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «إن كنا لنعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور**» [أخرجه الأربعة].

وفي سنن أبي داود عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**».

قال قتادة: «إن هذا يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواءكم فالاستغفار».

وفي الدعاء المأثور: «**اللهم إني أسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب**».

وفي المسند عن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «**ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله**» فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده ثم قال: «**الحمد لله. اللهم بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني الجنة عليها، وإنك لا تخلف الميعاد**»، ثم قال: «**أبشروا فإن الله قد غفر لكم**».

وفي هذا الحديث من الفؤائد: أن هناك ثلاثة أسباب يحصل بها العبد مغفرة الذنوب:

أحدها: الدعاء مع الرجاء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر: ٦٠].

الثاني: أن من أسباب مغفرة الذنوب: الاستغفار، ولو عظمت الذنوب وبلغت من كثرتها عنان السماء وهو السحاب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ويشترط في الاستغفار حضور القلب، مع الندم على ما مضى، والعزم على عدم العودة إلى الذنب.

السبب الثالث: من أسباب مغفرة الذنوب: إفراد الله بالعبادة، وهو التوحيد وعدم صرف شيء من العبادات لغير الله، ومن فقد التوحيد فإنه يفقد مغفرة الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومن أدعية نبينا ﷺ التي تعين في تفريج الكربات، وتقضى الحوائج ما رواه الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذى النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**» وروى الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض،**

ورب العرش الكريم» وروى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب ﵁ قال: علمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: «**لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين**».

وروى أبو داود عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت**».

وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: «**يا حي يا قيوم برحمتك استغيث**».

وفي الحديث: بيان شرف بني آدم.

وفيه: أن من دعاء الله ورجاه فإن الله تعالى يغفر له.

وفيه: أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا مهما عظمت.

وفيه: فضيلة التوحيد وأنه سبب لمغفرة الذنوب.

الحديث الثالث والأربعون

المال قوام الحياة، وهو من زينة الدنيا التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. وذكر ﷻ أنه مرغوب محبوب للإنسان في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وهو من نعم الله التي ساقها إلينا ويسرها لنا، قال ﷺ: «**ما كسب الرجل كسبًا أطيب من عمل يده**» [رواه ابن ماجة]. ولأهميته ومكانته حذر ﷻ من إضاعته والعبث به وصرفه في غير وجهه الصحيح ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وهذا الحديث أصل في قسمة المواريث، ولعظم أمرها وخوف التنازع والشقاق تولى سبحانه وتعالى قسمة الفرائض بنفسه في آيات كريمات، لا دخل للعباد فيها، فتولاها سبحانه بكل رحمة وعدالة وحكمة، فتولي العباد لهذه القسمة سيدخل فيها الظلم والهوى والمصالح الشخصية وحظوظ النفس وغيرها.

وهذا الحديث هو أول الأحاديث الثمانية التي زادها ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فاكمل العدد خمسين على ما جمعه النووي في الأحاديث الأربعين.

روى البخاري ومسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتَ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ».

والفرائض: جمع فريضة مفروضة، أي مقدرة، وسميت بذلك لأن فيها تقدير لنصيب الورثة. ويسمى هذا العلم أيضًا المواريث ومفرده ميراث، ومعناه لغة الانتقال، وشرعًا: هو انتقال المال والحقوق من الميت إلى ورثته.

ويسمى أيضًا علم التركات وهي مأخوذه من الترك، لأن الميت يترك ماله وحقوقه لورثته من بعده.

وقد أسبغ الله علينا نعمه ظاهرة وباطنة، فهدانا للإسلام وأتم علينا النعمة، ووهبنا من الأموال والخيرات ما تقوم به حياتنا ومعاشنا لينظر كيف نصنع به.

في الحديث «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع**» وذكر منها «**وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم انفقه**» [رواه أحمد].

وبعد ممات الإنسان حفظ الله له المال بأن تولى قسمته بنفسه إلى أولى الناس به، فحدد المواريث وقسمها، وقال: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ

لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]. وأخبر أن هذه حدوده جل وعلا، وحذر من تعديها وتجاوزها فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وقال ﷺ: «**إن الله قد أعطى كل ذي حقه فلا وصية لوارث**» [رواه أبو داود].

وهذا الحديث مشتمل على أحكام المواريث وجامع لها، والمراد بالفرائض هنا: الفروض المقدرة في كتاب الله. وقد ذكر الله ﷻ أحكام المواريث في ثلاث آيات من كتابه الكريم.

قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها». وفي رواية «**اقسموا المال بين أهل الفرائض على كتاب الله**» يشير إلى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١]. الآيتين. وقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، فاشتملت الآيات على ميراث الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات والإخوة والأخوات، فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ

وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ [النساء: ١١] يشمل ميراث الأولاد ذكورًا كانوا أو إناثًا، ويدل على ميراث الأب والأم قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١١].

ثم بين ميراث الرجل من امرأته فقال: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ [النساء: ١٢].

ثم بين ميراث المرأة من زوجها فقال: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ [النساء: ١٢].

ثم بين ميراث الإخوة من الأم فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ [النساء: ١٢].

ثم توعد تعالى من تجاوز هذه الفرائض المقدرة فقال: ﴿تِلۡكَ

حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

وبين ميراث الإخوة من الأب في آخر السورة فقال: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

قوله ﷺ: «**فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر**»: أي: أقرب رجل من العصبة وهم البنوّة، ثم بنوهم وإن سفلوا، ثم الأب ثم الجد وإن علا، ثم الأخ الشقيق، ثم الأخ من الأب، ثم بنوهم كذلك وإن سفلوا، ثم الأعمام، ثم بنوهم كذلك وإن سفلوا، ثم الأعمام، ثم بنوهم كذلك، ثم المولى المعتق، ثم عصابته.

وفي الحديث: اشتراك الرجال والنساء في الميراث، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ [النساء: ٧]

خلافًا للجاهلية الأولى الذين يُخصون بالميراث الكبار من الرجال دون النساء والصغار، وخلافًا لبعض القوانين المعاصرة التي تخص بالميراث الأكبر من الأولاد، أو تبيح للموروث التصرف في ماله كيف شاء.

ولقد غمر الإسلام المرأة برحمته وفضله وحفظ لها حقوقها وحذر من ظلمها وأخذ حقها، ونرى ذلك واضحًا جليًا في قسمة الميراث فإن تفوق الرجل على المرأة في الميراث ليس في كل الأحوال، ففي بعض الأحوال تساويه، وفي بعض الأحيان تتفوق المرأة على الرجل في الميراث، وقد ترث الأنثى والذكر لا يرث.

وهناك عشر حالات ترث المرأة مثل الرجل، وعشر حالات أخرى ترث المرأة فيها أكثر من الرجل، وعشر حالات تحجب المرأة فيها الرجل وتأخذ الإرث كاملًا، وأربع حالات فقط وهي التي يكون فيها للذكر مثل حظ الأنثيين.

وحذر الشرع من الجور في الوصية، وعلى الموصي إن لا تزيد وصيته عن الثلث إلا باجازة الورثة لقول النبي ﷺ: «**الثلث والثلث كثير**» [رواه مسلم] وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**».

والظلم أمره عظيم، والله ﷻ حكم عدل، لا يرضى لعباده الظلم؛ ومن أنواع الظلم تطليق الزوجة في حالة المرض أو قبله حتى لا ترث، وكذلك ظلم البنات بحرمانهم من الميراث بأشكال وحيل متنوعة منها، جعل الأراضي والعقارات باسم الأولاد، أو جعل أعماله في شركة لكل ابن نصيب فيها دون البنات، أوعدم اعطاء النساء حقهن من الميراث أو التضييق عليهن ليتنازلن عن مال أو أرض أوغير ذلك مما هو حق لهن.

ومنها الوصية لوارث قال ﷺ في خطبة الوداع: «**إن الله قد أعطى لكل ذي حقه فلا وصية لوارث**». إلى غير ذلك من أوجه الحرمان المخالفة لما أمر الله ﷻ به

والجور في الوصية من علامات سوء الخاتمة لأن الإنسان يظلم في آخر أيام الدنيا ويقبل على الله بمعصية عظيمة وهي حرمان أهل الحقوق من حقوقهم التي قدرها الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «**إن الرجل ليعمل بطاعة الله سبعين سنة ثم يحضره الموت فيضار في الوصية فتجب له النار**».

ويستحب لمن رأى موصيًا يحيف في وصيته أن ينهاه لنهي النبي ﷺ عن الزيادة في الثلث. قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩] هو أن يرى المريض يحيف على ولده فيقول له: اتق الله ولا توصي بمالك كله.

وقد أوصى أبوبكر الصديق ﷺ بالخمس، وقال: «رضيت مما رضي الله به لنفسه» يعني قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١].

وعن الشعبي قال: (كان الخمس أحب إليهم من الثلث).

وفي الحديث عن عامر بن سعد عن أبيه قال: (مرضت مرضًا أشفيت منه على الموت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني فقلت: يا رسول الله لي مال كثير وليس يرثني إلا ابنتي أفأوصي بالثلث؟) قال: **«الثلث والثلث كثير، إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»** [متفق عليه]. وليجعل المسلم وصيته في الأقربين وأوجه البر والخير حسب حاجة المسلمين.

وهذا الحديث: أصل في قسمة المواريث.

وفيه: رحمة الله بعباده حيث قسم المواريث بنفسه خوف الشقاق والأهواء.

وفيه: حفظ الإسلام لحقوق الرجل والمرأة والصغير والكبير؛ كل بحسبه ونصيبه من الميراث.

وفيه: عدل الإسلام وكماله في القيام بمصالح العباد الدينية والدنيوية.

الحديث الرابع والأربعون

راوي الحديث هي أم المؤمنين، الصديقة ابنة الصديق ابوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حظيت بمكانة خاصة عند النبي ﷺ، لم تحظ بها غيرها من أزواجه فكانت أحب نساءه إليه، كانت بحرًا زاخرًا، علمًا ودينا، تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وذلك قبل الهجرة ببعضة عشر شهرًا، وقيل بعامين ودخل بها في شوال سنة اثنتين، فروت عنه علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وكانت أعلم الناس وأفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا، قال الزهري: (لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل).

توفيت سنة سبع وخمسين للهجرة وقيل سنة ثمان وخمسين ودفنت بالبقيع ليلًا بعد صلاة الوتر.

أولادنا ثمرات قلوبنا، وفلذات أكبادنا، وزينة حياتنا، والأثر الصالح الذي نُذكر به إذا كانوا صالحين، وهم كسبنا، ودعاؤهم لنا من العمل الذي لا ينقطع بعد موتنا، قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» [رواه مسلم].

وقد أوجب الله ﷻ على الآباء رعاية أولادهم والعناية بهم، ومن أعظم أسباب السعادة والخير في تربيتهم اختيار الزوجة الصالحة التقية النقية التي تعين وتقوم على رعايتهم، وقد أوصى النبي ﷺ بها فقال: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**» [رواه البخاري].

وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: «**تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم**» [رواه ابن ماجة].

ومن حقوق الأولاد الرضاعة الطبيعية، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣] قال ابن كثير: «هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين».

وعليه فإرضاعُ الكبير يُحَرِّمُ، ولكنْ قُيِّدَ إطلاقُ هذا الحديثِ بأحاديثَ صحيحةٍ تَدُلُّ على أنَّه لا يَحْرُمُ، من الرضاع إلا ما كان في الحولَيْنِ، وما كان قبلَ الفِطَامِ؛ قال رسولُ الله ﷺ «**إِنَّمَا الرَّضَاعَةُ، مِنَ المَجَاعَةْ**» [رواه البخاري ومسلم]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ إِلاَّ مَا فَتَّقَ الأَمْعَاءَ، وَكَانَ قَبْلَ الفِطَامِ**» [رواه الترمذي]

وفي حديثِ ابن عَبَّاس: «لاَ رَضَاعَ إِلاَّ فِي الحَوْلَيْنِ» [رواه الدار قطني].

وقال القرطبي: (يرضعن خبر معناه الأمر على الوجوب، فواجب على الأم أن ترضع ولدها مالم يكن ثمة مانع يمنعها) ومتى لم يتهيأ ذلك للأم يبحث عن مرضعة ترضعه، ولا ينبغي للأمهات حرمان أطفالهن من الرضاع الطبيعي.

وعاتب الله ﷻ الأم في عدم إرضاعها لولدها حال الشقاق والفراق فقال: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

ومن تعذر عليه الإرضاع من والدته لوفاتها أو مرضها أو غير ذلك، فليختر له مرضعة طيبة.

وقد كره العلماء استرضاع الكافرة والفاسقة وسيئة الخلق، أومن بها مرض معدٍ لأنه يسري إلى الولد، واستحبوا أن يختار المرضعة الحسنة الخُلق والخلق فإن الرضاع يغير الطباع.

والرضاع لغة: مص الثدي لاستخراج اللبن منه، وفي الشرع: إيصال اللبن على الطفل سواء عن طريق الثدي أو عن طريق الأنبوب، أو عن طريق الإناء العادي ونحو ذلك.

والرضاع من رحمة الله تعالى، فالطفل في بطن أمه يتغذى بالدم عن طريق حبل السُرة، ثم إذا انفصل عنه فإنه لا يستطيع أن يأكل ولا

يشرب، فجعل الله له وعاءين مُعلقين في صدر الأم، واختار الله ﷻ أن يكون في الصدر لأن ذلك أقرب إلى القلب، ولأنه أقرب على كون الأم تحتضن الولد، وترق له وتحن عليه.

ولأهمية الرضاع وأثره الكبير في الطفل المرتضع، استحق الرضاع أن يختص ببعض الأحكام التي أوجبها الشرع في حقه، فالرضاع يشارك النسب في بعض الأمور والأحكام، فالرضاع حكمه حكم النسب في النكاح والخلوة، والمحرمية وجواز النظر.

روى البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ».

وهذا الحديث من جوامع الكلم. وفي رواية: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**».

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٢، ٢٣]. فكل هؤلاء يحرمن من الرضاع كما يحرمن من النسب. قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: ما مضى في الجاهلية فهو معفوّ عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احتراز من الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فتحرم على الرجل حلائل أبنائه وأبناء أبنائه وإن سفلوا من الرضاع والنسب، وكذلك حلائل أبيه وأجداده وإن علوا.

وينبغي أن يعلم أنه يترتب على التحريم عدد من المسائل، من ذلك مثلًا ما يتعلق بمسائل الحجاب، فإن التحريم في النكاح على نوعين:

الأول: تحريم دائم: يجعل المرء محرمًا للمرأة، ويجيز للمرأة أن تكشف لذلك الرجل.

والثاني: تحريم مؤقت: كتحريم أخت الزوجة، فمثل هذا لا يثبت أحكام المحرميه فليس الزوج محرمًا لأخت زوجته، ولا يحل لها أن تكشف أمامه.

لا يترتب على الرضاعة قرابة، فليس بين الرضيعين رحم، سُئل الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمة الله تعالى-: هل تجب صلة الأقارب من الرضاع؟ قال: لا». ويبقى الإحسان وحسن الخلق وطيب العشرة معهم.

وكذلك لا يرث الأخوة والأخوات من الرضاع وكذلك الأم الراضع لا يرثون المتوفي.

قال النووي: (أجمعت الأمة على ثبوت حرمة الرضاع بين الرضيع والمرضعة، وأنه يصير ابنها، يحرم عليه نكاحها أبدًا، ويحل له النظر إليها والخلوة بها والسفر بها).

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا يترتب عليه أحكام الأمومة من كل وجه، فلا يتوارثان، ولا يجب على كل واحد منهما نفقة الآخر، ولا يعتق عليه بالعتق، ولا ترد شهادته لها، ولا يعقلُ عنها، ولا يسقط عنها القصاص بقتله، فهما كالأجنبيين في هذه الاحكام).

وإذا كان هذا بالنسبة للأم من الرضاع فمن باب أولى الاخوة والأخوات.

ومن فوائد هذا الحديث: إن الإرضاع في التحريم كالنسب فيما يتعلق بتحريم التناكح وتوابعه، والجمع بين الأختين ونحوه

وتنزيلهم منزلة الأقارب في حل النظر والخلوة والسفر، لا باقي الأحكام كالتوارث والولاية والإنفاق ونحو ذلك.

قال الله ﷻ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٢، ٢٣].

وعلى ذلك: فالمحرَّمات مِنَ النَّسَبِ سبعٌ بنصِّ القرآن، ومِثْلُهُنَّ المحرَّماتُ مِنَ الرضاع؛ لهذا الحديثِ وغيرِهِ، وقد نُصَّ في الآيةِ على الأمِّ والأختِ مِنَ المحرَّماتِ مِنَ الرضاع.

وأمَّا المحرَّماتُ بالمُصاهَرَةِ، فأربعٌ مذكورةٌ في الآيتَيْن.

إنَّ المُطْلَقَ الرَّضاعةِ يحرِّمُ ولو رَضْعةً واحدة، وقد اختَلَفَ الناسُ في مقدارِ الرضاعِ المحرِّمِ؛ ولهم في ذلكَ ثلاثةُ أقوال:

أحدُها: أنه يُحرِّمُ الرَّضْعة الواحدةُ؛ للإطلاقِ في حديث ابن عَبَّاسٍ: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ، مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**» [متفق عليه]، وحديثِ عائشةَ لهذا، وللإطلاقِ في الآية، في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣].

الثاني: لا يُحرِّمُ إلاَّ ثلاثُ رَضَعاتٍ؛ لحديثِ: «**لاَ تُحَرِّمُ الرَّضْعَةُ أَوِ الرِّضْعَتَانِ، أَوِ المَصَّةُ أَوِ المَصَّتَانِ**» [رواه مسلم].

الثالثُ: لا يحرِّمُ إلا خمسُ رَضَعاتٍ؛ لحديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ القُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ**» [رواه مسلم]؛ وهذا قولُ كثيرٍ من أهلِ العلم؛ وهو الصوابُ.

وقد اختَلَفتَ العلماءُ في المرادِ بالرَّضْعةِ:

فقيل: المَصَّةُ.

وقيل: الإملاجةُ، وهي: أن يَرْتَضِعَ فيقطَعَ للتنفُّس.

وقيل: أنْ يَرْتَضِعَ حتى يَتْرُكَهُ باختيارِهِ مِنْ غيرِ عارض.

وقيل: هي الرَّضْعةُ المُشْبِعةُ؛ بمنزلةِ الوَجْبةِ من الطعام؛ وهذا أقربُ الأقوالِ وأحْوَطُها في ثبوتِ التحريمِ والمَحْرَمِيَّة، وما دُونَ ذلك، فهو شُبْهةٌ ينبغي الاعتمادُ عليها في تحريم النكاحِ، دُونَ ثبوتِ المَحْرَمِيَّةِ، احتياطًا للتحريمِ مِنَ الجانبَيْن؛ فمَنْ رضَعَ خمسَ رَضَعاتٍ

مُشْبِعـاتٍ، فقد ثبَتَ بهذا الرضاعِ تحريمُ النكاحِ، وثبوتُ المَحْرَمِيَّة.

وفي الحديث: رحمة الإسلام بالرضيع، وذكر بعض حقوقه.

وفيه: بيان مقدار الرضاعة المحرمة.

وفيه: بيان أحكام الرضاعة وما يختص بها.

الحديث الخامس والأربعون

من صفات النبي ﷺ في الكتب السابقة وعلى ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أنه الذي يحل الطيبات ويحرم الخبائث، وهذا تشريع عام في المآكل والمشارب، والملابس وغير ذلك.

وهذا قاعدة كبيرة تحافظ على كل طيب، وتنفي كل خبيث، كما أنها معتمد لكل ماجّد وطرأ ليقاس بمقياسها الصحيح وهذا من كمال الشريعة، ومن عناصر البقاء والخلود فيها، فإنها جاءت بشرائع وأحكام لتحقيق مقاصد عظمى بعد توحيد الله وعبادته، فالتشريع دائر على حفظ الدين، وعلى حفظ العقل، وعلى حفظ المال، وعلى حفظ العرض، فالشريعة جاءت بمنع كل ما يفسد الأديان، ويهلك النفس، ويعطل العقول، ويهتك الأعراض، ويتلف الأموال، فكل ما كان سببًا لنقص في شيء من هذه الأمور الخمسة: الدين، النفس، والعقل، والعرض، والمال، فإن الشريعة نهت عنه. وكل ما يقوى ويعزز هذه الأصول الخمسة فجاءت الشريعة آمر به وحاثة عليه، ومشرعة له. وقد جاءت نصوص كثيرة تبين أن المحرمات معدودة

ومحصورة، وأما المباحات فمسكوت عنها رحمة بنا، ولكثرتها.

ومن هذه النصوص هذا الحديث:

روى البخاري ومسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: لَا، هُوَ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِم الشُّحُومَ، فَأَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ».

هذا الحديث أصل في النهي عن بيع المحرمات، وأكل ثمنها. وهذا من كمال الشريعة فإنها حرمت كل ما يضر بالإنسان في دينه وعقله ونفسه وماله.

وفي الحديث أن جابر بن عبد الله ﵁ (سمع رسول الله ﷺ عام الفتح)، هو فتح مكة وكان في السنة الثامنة من الهجرة في شهر رمضان.

يقول: (إن الله ﷻ ورسوله حرّم بيع الخمر) قال القرطبي: (إنه ﷺ تأدب فلم يجمع بينه وبين اسم الله في ضمير الاثنين). (والميتة والخنزير والأصنام).

ومما ورد في الحديث هذه الأشياء الأربعة المعدودة.

الأولى: (الخمر): وهي كل ما أسكر وخامر العقل، وهي أم الخبائث التي بها تزول عن الإنسان نعمة العقل التي كرمه الله بها، ويأتي في حال سكره ولهوه بأنواع المنكرات والعظائم، وإشاعة العداوة والبغضاء بين المسلمين والصد عن الخير وعن ذكر الله، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وقد ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله الخمر وبائعها ومشتريها، وشاربها وساقيها، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها**» [رواه الترمذي].

وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشرب، ولا يبع**» [رواه مسلم].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل مسكر حرام، وما أسكر الفرق فملء الكف منه حرام**» [رواه أبوداود والترمذي].

ومع وضوح ضررها الديني والدنيوي إلا أن الفاسدين يزينون للجاهلين شرب الخمر ويسمونها بغير إسمها، فيسمونها مشروبات روحية وقد قال ﷺ: «**ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها**» [رواه البخاري].

الثانية: (الميتة) التي لم تمت -غالبًا- إلا بعد أن تسممت بالأمراض والأوبئة، أو احتقن دمها في لحمها فأفسده، فأكلها مضرة على البدن، وهدم للصحة. ومع هذا فهي جيفة خبيثة نتنة بخسة، تعافها النفوس وتكرهها.

الثالث: (الخنزير) وهو أخبث الحيوانات وأكرهها وأبشعها، وهو قذر نجس. وقد وردت جملة من الآيات في تحريم الخنزير ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] وغيرها من الآيات.

الرابع: (الأصنام) وهي أساس ضلال الإنسان، ومفاسده عظمى، وهي التي بها حورب الله تعالى وأشركت في عبادته وحقه على خلقه، وكان من دعا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]. وما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب إلا لمحاربتها وإنقاذ الناس من شرها.

والأصنام: جمع صنم، وهو ما كان مصورا. والوثن: ما له جثة، فبينهما عموم وخصوص وجهي، فإن كان مصورًا فهو وثن وصنم.

فهذه الخبائث التي وردت في الحديث هي عناوين المفاسد والمضار التي تعود على العقل والبدن والدين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الحديث: (اشتملت هذه الكلمات الجوامع على تحريم ثلاثة أجناس: مشارب تفسد العقول، ومطاعم تفسد الطباع، وتغذي غذاء خبيثًا، وأعيان تفسد الأديان وتعدو إلى الفتنة والشرك).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: وقد صح حديث أنس «**إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية**».

قوله: «أرأيت شحوم الميتة» أي؛ اخبرني عن حكم بيع شحوم الميتة وهي التي ماتت حتف أنفها فهل يحل مع وجود هذه المنافع فيها، «فإنه يطلي بها السفن» أي يدهن.

«ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس» أي، يستضيئون به، حين يجعلونه في المصابيح وهي السرج.

قال ﷺ: «لا، فهو حرام» أي البيع.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بلغ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن فلانًا باع خمرًا؛ فقال: «قاتل الله فلانًا، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود حرّمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها**» [متفق عليه].

زاد أبو داود: «**وإن الله إذا حرّم أكل شيء حرم ثمنه**».

ثم قال رسول الله ﷺ: عند ذلك «قاتل الله اليهود» لعنهم الله، لما ارتكبوه من هذه الحيلة الباطلة قال ﷺ: «إن الله حرم عليهم الشحوم فأجملوه».

قوله: (فأجملوه) أي: أذابوه واستخرجوا دهنه، وفي الحديث إبطال الحيل والوسائل إلى المحرم.

(ثم باعوه فأكلوا ثمنه)

قال الحافظ ابن حجر: «والظاهر أن النهي عن بيعها للمبالغة في التنفير عنها ويلتحق بها في الحكم الصلبان التي تعظمها النصارى، ويحرم نحت جميع ذلك وصنعته».

قال ابن رجب عند قوله ﷺ:«**إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه**» وهذه كلمة عامة جامعة تطَّرد في كل ما كان المقصود من الانتفاع به حرامًا، وهو قسمان:

أحدهما: ما كان الانتفاع به حاصلًا مع بقاء عينه كالاصنام، فإن منفعنها المقصودة منها الشرك بالله، وهو أعظم المعاصي على الإطلاق، ويلتحق بذلك ما كانت منفعته محرمة ككتب الشرك والسحر والبدع والضلال، وكذلك الصور المحرمة، وآلات الملاهي المحرمة كالطنبور، وكذلك شراء الجواري للغناء.

والقسم الثاني: ما لا ينتفع به مع اتلاف عينه، فإذا كان المقصود الأعظم منه محرمًا فإنه يحرم بيعه كما يحرم بيع الخنزير والخمر والميتة مع أن في بعضها منافع غير محرمة كأكل الميتة للمضطر، ودفع الغصة بالخمر، وإطفاء الحريق به، ولكن لما كانت هذه المنافع غير مقصودة لم يعبأ بها وحرم البيع ولكن المقصود الأعظم من الخنزير والميتة أكلها، ومن الخمر شربها ولم يلتفت إلى ما عدا ذلك، وقد أشار ﷺ إلى هذا المعنى لما قيل له: أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: «**لا، هو حرام**».

وفي هذا الحديث من الفوائد: تحريم الخمر وعمله وما يعينها عليه، وشربه، أو التداوي به، ويدخل في مسمى الخمر كل مسكر «**وكل ما أسكر قليله فكثيره حرام**» ومنه الحشيش والأفيون فكلها

خبائث محرمة لما فيها من المضار الكبيرة والمفاسد العظيمة على العقل والدين والبدن والمال، وما تجره من الشرور والعداوات والجنايات إلى غير ذلك من مفاسد لا تخفى.

ومن فوائد الحديث: تحريم الميتة، لحمها وشحمها، ودمها وعصبها، وحرمت لما فيها من المضرة على البدن، ولما فيها من الخبث والقذارة والنجاسة.

وحرم كذلك بيع الخنزير وأكله وملامسته وقربه، فهو من الخبائث التي هي مفسدة محضة، لا مصلحة فيها.

وفي الحديث من الفوائد أيضًا: تحريم بيع الأصنام، لما تجره من شر كبير، ومن ذلك الصليب الذي هو شعار النصارى والتماثيل التي تصنع للزعماء والرؤساء وغيرهم.

وفي الحديث: أن التحايل على محارم الله سبب لغضبه ولعنه، فإن من يأتي الأمر عالمًا تحريمه أخف ممن يأتيه متذرعًا إليه بالحيل، لأن الأول معترف بالإعتداء على حدود الله ويرجى له الرجوع والاستغفار، وأما الثاني؛ فهو مخادع لله تعالى، وبحيلته هذه سيصر على آثامه، فلايتوب، فيكون محجوبًا عن الله تعالى.

وفي الحديث: أن الحيل هي سنة اليهود المغضوب عليهم، وأن حبهم للمادة قديم، حملهم على الحيل ونقض العهود وغشيان الحرمات.

الحديث السادس والأربعون

خلق الله الخلق لعبادته وحده، والدخول تحت أمره ونهيه، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وما أُرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وقام سوق الجنة والنار إلا لأجل هذه الحقيقة العظيمة، ولإخراج العباد من داعية أهوائهم؛ إلى عبادة خالقهم ومولاهم.

وقد بعث الله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق بشيرًا ونذيرًا، يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر، ويحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث، قال تعالى في وصف ما جاء به النبي ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وجاءت الشريعة بحفظ العقل، ولهذا حرمت كل ما يؤدي إلى زواله، وأعظم ذلك المسكرات والمخدرات، ووضعت قاعدة عامة لكل ما حرم من المسكرات والمفترات، وهو أن ما أسكر كثيرة فقليله حرام من أي شيء كان، وعلى أي لون كان، وكيفما كان.

روى البخاري عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بِهَا، فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: الْبِتْعُ وَالْمِزْرُ، فَقِيلَ لِأَبِي بُرْدَةَ: مَا الْبِتْعُ؟ قَالَ: نَبِيذُ الْعَسَلِ، وَالْمِزْرُ نَبِيذُ الشَّعِيرِ، فَقَالَ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَام».

راوى هذا الحديث هو الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ واسمه عبد الله بن قيس بن سليم، أسلم بمكة، وهاجر إلى أرض الحبشة، ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله ﷺ بخيبر، وأرسله ﷺ مع معاذ بن جبل إلى اليمن، وله فضائل جمة، قال له النبي ﷺ: «**يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**» توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكوفة في خلافة معاوية، سنة اثنتين وأربعين للهجرة، ودفن بالثوية على بعد ميلين من الكوفة.

وهذا الحديث أصل في تحريم جميع المسكرات المغطية للعقل وفيه شاهد لما خُص به النبي ﷺ جوامع الكلم. فإن هذا الجواب جامع يدخل فيه المسؤول عنه وغير المسؤول عنه.

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قام عمر رضي الله عنه على المنبر فقال: (أما بعد: نزل تحريم الخمر وهي من خمس: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل). وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كل مسكر حرام، وما أسكر الفرق فملأ الكف منه حرام**» [رواه أبو داود].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وقد ورد في آية التحريم جملة أمور:

الأول: أن الله قرن الخمر والقمار بالأوثان وعبادة الأصنام، وهي عين الشرك ولهذا جاء في الحديث «**من مات وهو يشرب الخمر مات كعابد وثن**».

الثاني: جعل الله الخمر والقمار رجسًا، والرجس ما يستقذر عقلًا وشرعًا وذلك ليشمئز المؤمن ويبتعد عنها.

ثالثًا: أنهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر.

رابعًا: أن الله جعل اجتنابهما سبيلًا للفلاح فقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

خامسًا: أنهما يؤديان إلى وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين.

سادسًا: أنهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، والصلاة هي عماد الدين.

جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**الخمرة أم الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته**» [حسنه الألباني].

وفي الحديث الآخر: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن..**» [رواه البخاري].

قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (من زنى أو شرب الخمر، نزع الله منه الإيمان، كما يخلع الإنسان القميص من رأسه. إن شاء رده إليه وإن شاء سلبه إياه).

في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر ولا مكذب بالقدر**» [رواه أحمد].

قال ابن رجب: (واعلم أن المسكر المزيل للعقل نوعان:

الأول: ما كان فيه لذة وطرب، فهذا هو الخمر المحرم شربه، وادخلوا في ذلك الحشيشة التي تعمل من ورق العنب وغيرها مما يؤكل لأجل لذته وسكره.

وفي سنن أبي داود من حديث شهر بن حوشب عن أم سلمة قالت: «**نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر**» والمفتر هو المخدر للجسد، وإن لم ينته إلى حد الإسكار.

والثاني: ما يزيل العقل ويسكره لا للذة فيه ولا طرب كالبنج ونحوه. فقال أصحابنا: إن تناوله لحاجة التداوي أم الخبائث به وكان الغالب منه السلامة جاز).

قال ابن عثيمين: (كل ما أسكر فهو خمر سواء كان من العنب أو من التمر أو من الشعير أو من البر أو من غير ذلك، كل ما أسكر فهو خمر، قال النبي ﷺ: «**كل مسكر خمر**» والإسكار هو تغطيته العقل على وجه اللذة والطرب ليس مجرد تغطيه العقل، ولهذا البنج ليس مسكرًا وإن كان يغطي العقل، والمبنج لا يدري ماذا يحصل له، لكن الخمر -نسأل الله العافية- يجد الإنسان من السكر لذة وطربًا ونشوى حتى يتصور أنه ملك من الملوك وأنه فوق الثريا وما أشبه ذلك».

وأما «التنباك» الذي افتتن الناس به في هذه الأزمنة فقد اختلف العلماء فيه؛ فمنهم من حرمه، ومنهم من كرهه، والراجح تحريمه؛ لأنه يزيل العقل في بعض الأحيان، وهو مضر بالجسد، مضيع للمال، خبيث الرائحة. وأما قياسه على قهوة البن فهو قياس فاسد؛ فإن البن

من الطيبات، والتنباك ونحوه من الخبائث. وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وكثير ممن يشربون التنباك لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

والمسكر المحرم يدخل فيه المسكر المائع، ويدخل فيه المسكر الجامد، ويدخل فيه المسكر المطعوم، والمسكر المشروب، سواء كان من حب أو تمر أو مادة غير ذلك. وتشمل الأحاديث كذلك المخدرات كالحشيش والأفيون لأن الأحاديث الواردة بتحريم المسكر تعمها وتشملها. في الحديث عن أم سلمة لقالت: «**نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر**» [رواه أحمد].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «**أوصاني خليلي... ولا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر**» [رواه ابن ماجة].

كم أفسدت هذه المخدرات بأنواعها من بيوت، وكم هدمت من أسر، وكم مزقت من علاقات، وكم أفقرت بعد غنى، وأذلت بعد

عز، وأضعفت بعد قوة، جاء في المعجم الكبير عنه ﷺ: «**من شربها وقع على أمه، وخالته، وعمته**».

وقد ظهرت مآسي وأمور عظيمة تجعل العاقل حيرانًا من شرها وفتكها في المجتمعات حتى استعملها الاعداء سلاحًا لإضعاف الأمة وصرفها عن قيمها وأخلاقها ودينها.

وقد ذكر ابن القيم: (آفات الخمر فقال: إنها تغتال العقل، ويكثر اللغو على شربها وتستنزف المال وتصدع الرأس، وهي كريهة المذاق، وهي رجس من عمل الشيطان، توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتدعو إلى الزنا، وتذهب الغيرة، وتورث الخزي والفضيحة وتلحق شاربها بالمجانين، وتسلبه أحسن السمات وتكسوه أقبح الأسماء الصفات، وتسهل فتك النفس وإفشاء السر، ومؤاخاة الشياطين في التبذير، وتهتك الأستار وتظهر الأسرار، وتدل على العورات، وتهون ارتكاب القبائح، وتخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثن، وكم أفقرت من غني، وذلت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة ونسجت عداوة، وفرقت بين رجل وزوجته وكم أوقعت في بلية، وعجلت من منية، وجرت على شاربها من محنة، فهي جماع الإثم ومفتاح الشر).

وشرب الخمر والمسكر كبيرة من الكبائر، وذنب عظيم، وقد ورد الوعيد الشديد الذي توعد به شاربها في الدنيا والآخرة، ومن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إن على الله عهدًا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال**»، قالوا: وما طينة الخبال؟ قال: «**عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار**».

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن مات وهو يشرب الخمر يدمنها لم يشربها في الآخرة**».

ومن العقوبات الشرعية أن يجلد شارب الخمر، فعن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ جلد في الخمر بالجريد والنعال، وجلد أبوبكر أربعين» [رواه مسلم] فإن تكرر منه فقد قال النبي ﷺ: «**من شرب الخمر فاجلدوه، وإن عاد في الرابعة فاقتلوه**» [رواه الترمذي].

وفي هذه الأحاديث بيان أن كل مسكر حرام مهما تغيرت الأسماء ومهما تغيرت الأشكال والألوان ما بقيت العلة وهي الإسكار، عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها**» [رواه أبوداود].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليستحلن طائفة من أمتي الخمر بأسماء يسمونها إياه**» [رواه ابن ماجة].

قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم بتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وآنية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي أو تقتل هذا الغلام أو تشرب الخمر، فسقتة الخمر، فقال: زيدوني، فلم يبرح حتى وقع عليها، وقتل النفس؛ فاجتنبوا الخمر فإنه لا تجتمع هي والإيمان ابدًا إلا أوشك أحدهما أن يُخرج صاحبه) [رواه البيهقي].

اللهم جنبنا ما يغضب وجهك الكريم، واصرف عنا السوء برحمتك يا أرحمن الراحمين.

وفي الحديث: حفظ الإسلام للدين والعقل والعرض والمال.

وفيه: تحريم الخمر.

وفيه: إيجاز الجواب من النبي ﷺ بقوله: «**كل مسكر حرام**».

الحديث السابع والأربعون

جاءت الشريعة الإسلامية لتحافظ على الضرورات الخمس، والنفس واحدة من هذه الضرورات وقد جاء في أحاديث المصطفى ﷺ ما يحفظ النفس من القتل أو الإيذاء أو الضرر أو المرض، وفي هذا الحديث الطبي النبوي جاء ليعالج ويحافظ على جسم الإنسان وصحته حتى لا يهلك أو يضعف، لأن الله خلق الإنسان لعبادته وطاعته وشكره، ولا يتأت هذا على الوجه الصحيح إلا بتمام الصحة والعافية والهمة والنشاط، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يَكْرِبَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ».

هذا حديث جامع لأصول الطب كلها، فقد قال ابن ماسوية الطبيب: (لو استعمل الناس هذه الكلمات لسلموا من الأمراض والأسقام، ولتعطلت المارستانات ودكاكين الصيادلة).

وقال طبيب العرب الحارث بن كلدة: (المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء).

وفي هذا الحديث النبوي الكريم ذكر لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في أكله وشربه، فقد قال ﷺ:

«ما ملأ آدمي وعاء» أي ظرفًا «شرًا من بطنه» وملء الأوعية لا يخلو من طمع أو حرص على الدنيا، وكلاهما شر على الفاعل.

قيل: البطن خُلق لأن يتقوم به الصلب بالطعام، وامتلاؤه يفضي إلى الفساد في الدين والدنيا، فيكون شرًا منها.

ثم بين ﷺ القدر المناسب والجيد فقال:

«بحسب ابن آدم أكلات» أي؛ كافية، لُقم تسد جوعه، وتسد رمقه وإمساك القوة.

«يقمن صلبه» أي؛ ظهره. كناية عن أنه لا يتجاوز ما يحفظه من السقوط ويتقوى به على الطاعة.

«فإن كان لا محالة» أي؛ لا بدَّ من التجاوز. عما ذكر، فلتكن أثلاثًا.

«فثلث» أي يجعله «لطعامه» فالثلث للطعام والمأكول. «وثلث» يجعله «لشرابه» أي، والثلث الثاني لمشروبه.

«وثلث» يدعه «لنفسه» أي؛ يدع ويترك الثلث الأخير لراحة تنفسه. فيحصل له نوع صفاء ورقة، وهذا غاية ما أختير للأكل، ويحرم الأكل فوق الشبع.

فإن كثرة الطعام تسبب الخمول، وتفسد الصحة، وتجلب النوم، وقلة الغذاء توجب رقة القلب، وقوة الفهم وانكسار النفس؛ وضعف الهوى والغضب.

قال الطيبي: (أي الحق الواجب أن لا يتجاوز عما يقام به صلبه ليتقوى به على طاعة الله، فإن أراد البتة التجاوز فلا يتجاوز عن القسم المذكور).

وقال ابن القيم: (مراتب الغذاء ثلاثة: أحدها مرتبة الحاجة، والثانية مرتبة الكفاية، والثالثة مرتبة الفضيلة، فأخبر ﷺ أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه فلا تسقط قوته ولا تضعف، فإن تجاوزها فليأكل بثلث بطنه، وهذا من أنفع ما للبدن ولما للقلب، فإن القلب إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا أورد عليه الشراب ضاق عن النفس، وعرض عليه الكرب والتعب).

وقيل أن كسرى سأل طبيبًا: (ما الداء الذي لا دواء له؟ قال: إدخال الطعام على الطعام).

وسأله عن الحمية؟ قال: الاقتصاد في كل شيء، فإذا أكل فوق المقدار ضيق على الروح».

وهذا الحديث له سبب، وهو ما روي من حديث عبد الرحمن ابن المرقع قال: فتح رسول الله ﷺ خيبر وهي مخضرة من الفواكه، فوقع الناس في الفاكهة فغشيتهم الحمى، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما الحمى رائد الموت، وسجن الله في الأرض، وهي قطعة من النار، فإذا أخذتكم فبردوا الماء في الشنان، فصبوها عليكم بين الصلاتين**» يعني: المغرب والعشاء. قال: ففعلوا ذلك فذهبت عنهم. فقال رسول الله ﷺ: «**لم يخلق الله وعاء إذا ملئ شرًّا من بطن، فإذا كان لا بد فاجعلوه ثلثًا للطعام، وثلثًا للشراب، وثلثًا للريح**»، وهذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها.

قال عمر رضي الله عنه: (أيها الناس، إياكم والبطنة من الطعام، فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسد، ومورثة للسقم).

وقال الحسن رحمه الله تعالى: (يابن آدم كل في ثلث بطنك، واشرب في ثلث، ودع ثلث بطنك يتنفس ويتفكر).

وقال محمد بن واسع: (من قل طعامه فهم وأفهم، وصفا ورق، وإن كثرة الطعام ليثقل صاحبه عن كثير مما يريد).

وعن مالك بن دينار قال: (لا ينبغي للمؤمن أن يكون بطنه أكبر همه، وأن تكون شهوته هي الغالبة).

وعن عثمان بن زائدة قال: (كتب إلى سفيان الثوري إن أردت أن يصح جسمك، ويقل نومك، فأقل من الأكل).

وجاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: **«طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة»**.

وفي مسند البزار وغيره عن فاطمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«شرار أمتي الذين عدوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوات التي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»** [رواه أحمد]. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٥٩-٦٣].

جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن**».

ومن مفسدات القلوب: الطعام، والمفسد له من ذلك نوعان:

أحدهما: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات وهي نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والدم ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع، والمخلب من الطير، ومحرمات لحق العباد كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضى صاحبه. إما قهرًا وإما حياء وتذمما.

والثاني: ما يفسده بقدرهن وتعدى حده، كالاسراف في الحلال والشبع المفرط فإنه يثقله عن الطاعات ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة طرق مجاري الشيطان ووسعها فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرفها، والشبع يطرقها ويوسعها؛ ومن أكل كثيرًا شرب كثيرًا فنام كثيرًا فخسر كثيرًا.

وقد أورد ابن القيم شذرات من هدي النبي ﷺ في الأكل والشرب فقال - رحمه الله تعالى-: كان ﷺ يأكل ما جرت عادة أهل بلدة بأكله، ولم يكن يحبس نفسه عن نوع واحد من الأغذية، وإذا كان في أحد الطعامين تحتاج إلى كسر وتعديل، كسرها وعدلها بضدها، كتعديل حرارة الرطب بالبطيخ، وإذا عافت نفسه الطعام لم يأكله. كما ذكر ذلك أبو هريرة رضي الله عنه: «**ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه ولم يأكل منه، وكان يحب اللحم والحلواء والعسل، وكان يأكل الخبز مأدومًا ما وجد إيدامًا...**».

والأكل من حيث الحكم على أقسام:

واجب: وهو مابه تحفظ الحياة، ويؤدي تركه إلى ضرر.

وجائز: وهو ما زاد على قدر الواجب، ولا يخش ضرره.

ومكروه: وهو ما يخش ضرره.

ومحرم: وهو ما يُعلم ما يستعان به على عبادة الله وطاعته.

وقد أُجمل ذلك في الحديث في ثلاث مراتب.

الأول: ملء البطن.

والثاني: اكلات أو لقيمات يقمن صلبه.

والثالث: قوله: «**فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**» هذ كله إذا كان جنس المأكول حلالًا.

وقد ندب النبي ﷺ إلى التقليل من الأكل في قوله: «**حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه**».

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «**المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**» [وراه البخاري] والمراد أن المؤمن يأكل بأدب الشرع، فيأكل في معي واحد، والكافر يأكل بمقتضى الشهوة والشره والنهم، فيأكل في سبعة أمعاء.

وندب النبي ﷺ مع التقلل من الأكل والاكتفاء ببعض الطعام إلى الإيثار الباقي منه، فقال: «**طعام الواحد يكفي الأثنين، وطعام الأثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة**» [رواه أحمد].

وعن أبي برزه عن النبي ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الفتن**» [رواه أحمد].

ديننا يذم الشره، والإكثار من الأكل، ويحث على الاكتفاء من الطعام بالقليل، فإن ذلك أفضل للمؤمن، وأليق به، لأن القناعة باليسير وبما يحضر من أمور الدنيا هي حال المؤمن.

مع ما مر بنا من توجيه النبي ﷺ في التقلل من الطعام، وما ينتج عن امتلاء البطن من أمراض للجسد والقلب، وما يحرمه الإنسان من الخيرات، فإن ذلك لا يمنع الإنسان من أن يشبع أحيانًا كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: **«فلم يزل يكسر الخبز ونعرف حتى شبعوا، وبقي بقية قال: «كلي هذا، وأهدي فإن الناس أصبتهم مجاعة»** [رواه البخاري].

ومن آداب الطعام: غسل اليدين قبل الطعام لتخليصهما من الغبار والأوساخ المؤذية المسببة للأمراض، وكذلك التسمية قبل الأكل **«ومن نسي أن يذكر الله في أول طعامه فليقل حين يذكر: بسم الله في أوله وآخره»** [رواه ابن حبان].

ويجب الأكل باليمين إلا لعذر، ومن الآداب أن يأكل المرء مما يليه، ويندب الجلوس للأكل ويكره الاتكاء، وينتظر حتى يبرد الطعام، ويسن لعق الأصابع وصحفة الطعام، ويسن أن يحمد الله عز وجل بعد الانتهاء من الطعام، ويدعو ويغسل يديه ويتمضمض، ويحمد الله ويشكره على ما رزق، وإن كان مدعوًا فليدعو للمضيف بالبركة.

وفي الحديث: استحباب التقلل من الأكل والاكتفاء ببعض الطعام. فإن هذا الحديث أصل في الاقتصاد في الطعام والشراب.

وفي الحديث: كمال الشريعة حيث اشتملت على مصالح الإنسان في دينه ودنياه.

الحديث الثامن والأربعون

روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ».

راوي الحديث؛ هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي القرشي، أسلم قبل أبيه، وكان من عُباد الصحابة وعلمائهم، كان يكتب في الجاهلية، فاستأذن الرسول ﷺ في أن يكتب ما يسمع فأذن له، وكان يشهد الغزوات ويضرب بسيفين، حمل راية أبيه يوم اليرموك، توفي سنة خمس وستين للهجرة.

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أربع خصال من خصال المنافقين.

والنفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو نوعان: اعتقادي، وعملي. فالاعتقادي: هو النفاق الأكبر، وصاحبه مع الكفار مخلد معهم في النار قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

والنفاق العملي: هو النفاق الأصغر، وهو من كبائر الذنوب.

والمنافق: هو من يضمر الكفر ويتظاهر بالإسلام، وهو سيء الباطن حسن الظاهر.

قال ابن رجب: (والذي فسره أهل العلم المعتبرون أن النفاق في اللغة: هو من جنس الخداع والمكر، وإظهار الخير وإبطان خلافه).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (الذي فسره به أهل العلم المعتبرون أن النفاق في الشرع ينقسم إلى قسمين: أحدهما النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر: وهو نفاق العمل: وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك. وحاصل الأمر: أن النفاق الأصغر كله يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية، كما قاله الحسن.

والنفاق الأصغر: وسيلة إلى النفاق الأكبر، كما أن المعاصي بريد الكفر، وكما يخشى على من أصر على المعصية أن يُسلب الإيمان عند الموت، كذلك يخشى على من أصر على خصال النفاق أن يسلب الإيمان فيصير منافقًا خالصًا).

وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أربع خصال، أو صفات متأصلة من كانت فيه كان منافقًا خالصًا.

قال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا» قال ابن بطال: (أي؛ في الخصال المذكورة).

«ومن كانت فيه خصلة منهن» أي؛ خلة وصفة.

«كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها» أي؛ يتركها ويتوب إلى الله منها.

«من إذا حدث كذب» وهو من أقبح الذنوب التي يرتكبها بنو آدم وهو أساس النفاق الذي بني عليه الكذب. والمعنى إذا حدث حدث بخلاف الواقع، فإن الكاذب يصور المعدوم موجودًا، والموجود معدومًا، والحق باطلًا، والباطل حقًّا، والخير شرًّا، والشر خيرًا، فيفسد على الإنسان تصوره وعلمه.

«وإذا وعد أخلف» أي: من غير عذر. وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ قال: «**العدة هبة**»، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥: ١٤٦].

«وإذا عاهد غدر» أي؛ إذا تعاهد وتواثق مع إنسان على أمر غدر به وفعل خلاف ما عهد إليه أن يفعله. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

والمراد بقوله إذا عاهد غدر: أي: لم يفِ بعهده. قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلًا بسلعة بعد العصر، فحلف بالله لأخذها بكذا فصدقه وهو على غير ذلك، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإلا لم يفِ**». ويدخل في هذا العهود والمبايعات والأنكحة، فهذه يجب الوفاء بها، وإذا احتوت على شروط وجب الوفاء بهذه الشروط.

«**وإذا خاصم فجر**» أي؛ مال عن الحق وقال الباطل، وبالغ في الخصومة.

والفجور في الخصومة على نوعين:

أحدهما: أن يدعي ما ليس به. **والثاني**: أن ينكر ما يجب عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**». وقال ﷺ: «**إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء، فإنما أقطع له قطعة من النار**» [متفق عليه]. وقال ﷺ: «**من خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع**».

والفجور في الخصومة: هو تعمد الميل عن الحق، ومن أعظمه الكذب في اليمين عند التخاصم.

الخامس: الخيانة في الأمانة. «وإذا اؤتمن خان» قال ابن عثيمين: (المعنى إذا ائتمنه الناس على أموالهم أو على أسرارهم، أو على أولادهم، أو على أي شيء من هذه الأشياء فإنه يكون والعياذ بالله يخون، فهذه أيضًا من علامة النفاق).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. وقال ﷺ: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**». وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَﵞ [الأنفال: ٢٧].

قال ابن عباس: (لا تخونوا الله بترك فرائضه، والرسول بترك سنته، وتخونوا أماناتكم هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله، والأعمال التي اؤتمن العباد عليها).

قال قتادة: (اعلموا أن دين الله أمانة، فأدوا إلى الله ﷻ ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشد من ذلك الودائع). وقد قال تعالى: ﵟإِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢاﵞ [الأحزاب: ٧٢- ٧٣].

وفيه وجوب الوفاء بالعهد، قال تعالى: ﵟوَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡﵞ [النحل: ٩١] وهو يشمل العهد الذي بين العبد وربه، وبينه وبين الناس. ويلتحق بالعهد جميع العقود اللازمة، كما قال تعالى: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِﵞ [المائدة: ١].

وقد ذكر النبي ﷺ في حديث سابق أن للمنافق ثلاث خصال، وفي هذا الحديث أربع؛ ولا منافاة بينهما لأن مفهوم العدد لا يفيد الحصر وليس حجة.

قال الطيبي: (العلامات مرة يذكر بعضها ومرة جميعها أو أكثرها).

قال ابن عثيمين: (فيه أيضًا على أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال نفاق، لقوله: «**كان فيه خصلة من النفاق**» هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ أن الإنسان يكون فيه خصلة نفاق وخصلة فسوق، وخصلة عدالة، وخصلة عداوة، وخصلة ولاية، يعني أن الإنسان ليس بالضرورة أن يكون كافرًا خالصًا، أو مؤمنًا خالصًا، بل قد يكون فيه خصال من الكفر وهو مؤمن، وخصال من الإيمان).

وقال رحمه الله تعالى: (وهذه الخصال الأربع إذا اجتمعت في المرء كان منافقًا خالصًا؛ لأنه استوفى خصال النفاق والعياذ بالله، وإذا كان فيه واحدة، منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها).

وقد ذم الله النفاق والمنافقين في آيات كثيرة، وحذر منهم في سورة البقرة وغيرها، وذكر أوصاف المنافقين وأفعالهم في سبعة وثلاثين موضعًا من القرآن، وسمى سورة كاملة في القرآن باسمهم (سورة المنافقون) وأفاضت السنة المطهرة في ذكر أوصافهم وهتك أستارهم.

سُئل الإمام أحمد: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق؟ قال: (ومن يأمن على نفسه النفاق).

قال الحسن: (لو كان للمنافقين أذناب لما استطعنا أن نمشي في الطرقات).

ولقد كان الصحابة الكرام -رضي الله عنهم وأرضاهم- وهم أفضل هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ، وهم الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه يخافون على أنفسهم من النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه.

يقول ابن أبي مليكة رَحِمَهُ اللَّهُ: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل) [رواه البيهقي].

وعن جبير بن نضير قال: (دخلت على أبي الدرداء في منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد جعل يتعوذ بالله من النفاق، فلما انصرف قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء إما أنت والنفاق؟ قال: «اللهم غفرا -ثلاث - من يأمن البلاء؟ من يأمن البلاء؟ والله إن الرجل ليفتتن في ساعة فينقلب عن دينه) [رواه البيهقي].

ومن علامات النفاق الأخرى التي لم ترد في هذا الحديث:

التهاون في أداء الصلوات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ

وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٠- ١٤٢].

وفي الصحيحين: «**ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لاتوهما ولو حبوا..**».

ومن صفاتهم والعياذ بالله: قلة ذكر الله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

ومن صفاتهم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

من صفات المنافقين البخل والشح، قال تعالى: في وصفهم ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقد حذر الله ﷻ من عاقبة النفاق وأنه سبيل إلى الحسرة والندامة، والهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ

أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣- ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

وفي الحديث: التحذير من الكذب والخيانة والغدر، والفجور في الخصومة.

الحديث التاسع والأربعون

روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا».

معْنَاهُ تَذْهَبُ أَوَّلَ النَّهَارِ خِماصًا: أي ضَامِرَةَ الْبُطونِ مِنَ الْجُوعِ، وترْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ بِطَانًا: أَيْ مُمْتَلِئَةَ الْبُطُونِ.

هذا الحديث أصل عظيم في التوكل على الله في طلب الرزق، والله عَزَّ وَجَلَّ هو الرزاق للإنسان والحيوان والطير، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢- ٣]. ومعنى قوله: حسبه؛ أي كافيه.

والمعنى توكلوا على الله في ذهابكم ومجيئكم وتصرفكم وسعيكم، فإذا فعلتم ذلك لرأيتم الخير، وسهل الله لكم الرزق وأسبابه، وعدتم سالمين غانمين، ولكن البعض يعتمد على قوته وجلده ويغش ويكذب وهذا خلاف التوكل على الله.

وحقيقة التوكل هو اعتقاد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح، ودفع المضارّ. قال سعيد بن جبير: (التوكل جمع الإيمان).

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**من سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله**». وفي الدعاء المأثور: «**اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك. اللهم اجعلني ممن توكل عليك فكفيته**».

قال ابن القيم: (التوكل نصف الدين، والنصف الآخر الإنابة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة).

وقد وردت جملة من الآيات العظيمة في التوكل، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١] وقال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩] وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

والتوكل خلق الرسل جميعًا فقد جاء على لسان الرسل جميعًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام والذين معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال شيخ الإسلام: (ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل).

وقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ وعن أصحابه رضي الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

قال السعدي: (التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده، والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به، في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه).

«والوكيل» من اسماء الله ﷻ، فهو الذي يتولى باحسانه شؤون عباده كلها، فلا يضيعها.

والله تعالى يحب المتوكلين: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والتوكل أمره عظيم وهو عبادة قلبية، وهو صدق الاعتماد واللجوء إلى الله ﷻ ورؤية الخير بيده ومن عنده. وهو دليل الإيمان والثقة واليقين بالله ﷻ، والنبي ﷺ يحث أمته على التوكل على الله ﷻ، ويضرب لهم مثلًا بالطير.

ولو أننا توكلنا على الله حق توكله في أرزاقنا، لرزقنا كما يرزق الطير وهي التي لا حول لها ولا قوة، تغدو صباحًا خماصًا ضامرة البطن من الجوع، وتعود آخر النهار ملأى البطون شبعا. وقد جمعت بين التوكل والسعي في طلب الرزق.

قال ابن رجب: (وهذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق).

ومعنى الحديث: أن الناس لو حققوا التوكل على الله بقلوبهم واعتمدوا عليه اعتمادًا كليًا في جلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم، وأخذوا بالأسباب المفيدة؛ لساق الله ﷻ إليهم أرزاقهم مع أدنى

سبب، كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوع من الطلب ولكنه سعي يسير، وتحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب بالجوارح طاعة، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] فجعل التوكل مع التقوى التي هي القيام بالأسباب المأمور بها، والتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا ولا عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها.

وفي قوله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا».

قال الطيبي: (أي؛ بأن تعلم يقينًا أن لا فاعل إلا الله، وأن كل موجود؛ من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، وغير ذلك مما ينطلق عليه اسم الموجود من الله ـ تعالى ـ، ثم تسعى في الطلب على الوجه الجميل، يشهد لذلك تشبيهه بالطير؛ فإنها تغدو خماصًا، ثم تسرح في طلب القوت، فتروح بطانًا).

والرزق مقسوم ومقدر، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] ومما يظهر من عدم التوكل على الله تحديد النسل بحجة قلة ذات اليد، وهذا خلاف أن كل مولود يأتي معه رزقه. قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

وحقيقة التوكل وصحته تبنى على أمور منها: معرفة الرب وقدرته وكفايته لخلقه، وصفاته وكماله.

والتوكل؛ إخلاص التوحيد لله، فلا يستقيم عبد حتى يصح توحيده، ويسلم من الشك والشرك، فمتى داخل القلب شرك أو شك فتوكله معلول.

ومنها: حسن الظن بالله ﷻ والثقة به.

والتوكل: هو انطرح القلب بين يدي الله، وهو عبادة من العبادات القلبية المحضة العظيمة، فهو عبادة بالقلب، والقلب فيها منقطع عن الأسباب، وأما الجوارح فتأخذ بالأسباب والمتوكل على الله حقًا يعلم أن الله كافل رزقه وجميع شؤون حياته، فيكن له وحده سبحانه وتعالى ولا يتوكل على سواه، ويثق أنه لا معطي ولا مانع، ولا ضار ولا نافع، ولا قابض ولا باسط ولا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل إلا الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له.

والتوكل لا ينافي السعي في الأشياء وبذل الأسباب، فإن الطير تغدوا في طلب رزقها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وكان الأنبياء يعملون مع عظم توكلهم على الله ﷻ، قال يوسف ابن أسباط: (كان يقال: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له).

وفي حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» [رواه أحمد].

وفي حديث جابر عن النبي ﷺ: «**لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله واجملوا في الطلب، خذوا ما حلّ، ودعوا ما حرم**» [رواه الطبراني].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ والمراد بالتوكل، اعتقاد ما دلت عليه هذه الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]. وليس المراد به ترك التسبب، والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين، لأن ذلك قد يجر إلى ضد ما يراه من التوكل».

وقال معاوية بن قرة: لقي عمر بن الخطاب ناسًا من أهل اليمن. فقال من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. قال: بل أنتم المتأكلون، إنما المتوكل الذي يلقى حبه ويتوكل على الله، وقد قال النبي ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»** [رواه مسلم].

ومن ثمرات التوكل: الرضا بالقضاء، ومن كل أموره إلى الله بما يرتضيه له ربه ويختاره، ومن كان كذلك فقد حقق التوكل.

قال بعض السلف: (من سره أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله، ومن توكل على الله واعتمد عليه وأحسن الصلة به، حفظه الله ورعاه، فإن لم يكن في الدنيا، كان في الآخرة، والآخرة خير وأبقى).

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال - يعني إذا خرج من بيته -: «بسم الله توكلنا على الله، ولا حولا ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت ووقُيت وكفيت، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكفي ووقي**» [رواه ابو داود].

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا الله أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والانس والجن يموتون**» [رواه مسلم].

وفي الصحيحين: في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمة، وصفوا بأنهم: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**» [رواه البخاري].

قال ابن القيم: (وأعظم أنواع التوكل: التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول ﷺ، وجهاد أهل الباطل؛ فهذا توكل الرسل، وخاصة أتباعهم).

ثم قال رحمه الله: (والناس بعد ذلك في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل على الله في حصول رغيف، ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوبًا لله مرضيًا، كانت له فيه العاقبة

المحمودة، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا، كان ما حصل له بتوكله وضرره عليه، وإن كان مباحًا، حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إن لم يستعين به على طاعته).

وعلى المسلم تحقيق التوكل بتفريغ القلب من الالتفات إلى غير الله تعالى، وتحقيق التوحيد، وكذلك الثقة بالله وحسن الظن به، ومن ثم التفويض له، والإيمان الراسخ بالقضاء والقدر، وكذلك قراءة القرآن وتدبر معانيه.

ومن ثمرات التوكل على الله ﷻ: أنه يبعث الصبر على التزام حدود الله تعالى ومجانبة الحرام، وفيه طمأنينة النفس، وارتياح القلب وطرد الهم، وبه ما يحصل من كفاية الله ﷻ للمتوكل عليه في أموره كلها، وأن التوكل من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وأنه يورث محبة الله ﷻ للعبد، وأنه يورث قوة القلب وشجاعته وثباته، وأنه يورث الصبر والتحمل، وأنه يقي العبد بإذن الله من تسلط الشيطان. وأن التوكل على الله من أسباب تحصيل الرزق، وأنه يورث الرضا بالقضاء، وهذا من أعظم ثمرات التوكل.

وفي الحديث: الترغيب في تحقيق التوكل على الله في طلب الرزق، وهو صدق الاعتماد عليه سبحانه، وتفويض الأمر إليه في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الأخذ بالأسباب وترك التعلق بها.

الحديث الخمسون

ذكر الله ﷻ عبادة من أجلِّ العبادات وأحبها إليه سبحانه، فلم يزل يأمر بها عباده ويحثهم عليها، تزكية لنفوسهم وتقوية لإيمانهم وزيادة في يقينهم، فإن الملازم لذكرالله في كل أحواله، لا تراه إلا سباقًا إلى طاعة الله، وقافًا عند حدود، قائمًا بأمره، مُدبرًا عن الدنيا، مقبلًا على الآخرة، وقد أمر الله ﷻ بالاكثار من ذكره فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] واخبرنا جل وعلا أن ذكره سبب لطمأنينة القلوب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ قَالَ: «أَتى النَّبِيَّ ﷺ رجلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ؟ قَالَ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ ﷻ».

وفي هذا الحديث؛ الحث على الذكر وبيان فضله. عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلًا ـ قيل أنه أعرابي ـ قال: (يا رسول الله إن شرائع

الإسلام قد كثرت علي) سواء من واجب أو مندوب شرعه الله ﷻ لعباده من الأحكام.

(فباب نتمسك به جامع) أي فأخبرني بشيء أتشبت به واتعلق ليكون مغنيًا لي عن النوافل التي كثرت علي فعجزت عن استقصائها.

قال رسول الله ﷺ موجهًا ومعلمًا له:

«لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله ﷻ» كناية عن كثرة الذكر ومداومته باللسان، وهو خبر معناه الأمر. وفيه كثرة أنواع العبادات، وأبواب الخير، وأن من عظيم فضل الله تيسير أسباب الأجر، وفيه تفاضل العباد في نصيبهم من أبواب البر والخير.

قال الطيبي: (رطوبة اللسان عبارة عن سهولة جريانه، كما أن يبسه عبارة عن ضده، ثم أن جريان اللسان حينئذ عبارة عن مداومة الذكر، فكأنه قال: داوم الذكر).

وقيل: رطوبة اللسان عبارة عن مداومته، وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

«لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله» من قراءة القرآن، ومن التهليل والتسبيح، والتكبير وغيرها.

قال ابن القيم: (الذكر هو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته).

وقال الحسن: (أحب عباد الله إلى الله، أكثرهم له ذكرًا، وأتقاهم قلبًا).

وقال ابن تيمية: (ملازمة ذكر الله أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة). ولهذا قال ابن القيم: (أشد العقوبة أن يمسك الله لسانك عن ذكره).

إن كثرة ذكر الله باللسان تسبيحًا وتحميدًا، وتهليلًا وتكبيرًا، وغير ذلك، مع مواطأة القلب: يقوم مقام كثير من نوافل الطاعات؛ ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: **«لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»** [رواه مسلم]، وقوله ﷺ: **«كلمتان، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»** [رواه البخاري ومسلم].

وقوله ﷺ: **«من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، عشر مرات، كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»** [رواه مسلم].

وقوله ﷺ: «**من قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مئة مرة، حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**» [رواه البخاري ومسلم].

وقوله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة: كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه**» [رواه البخاري ومسلم].

وفي صحيح ابن حبان وغيره من حديث معاذ بن جبل قال: آخر ما فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت له: أي الأعمال خير وأقرب إلى الله؟ قال: «**أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله**».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١: ٤٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**استكثروا من الباقيات الصالحات**»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**التكبير، والتسبيح، والتهليل، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله**» [رواه أحمد].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه**».

ومن خصال الإيمان الإكثار من ذكر الله بخلاف المنافقين فإنهم يذكرون الله لكنهم لا يكثرون من ذكره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال أبو الدرداء: (الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك).

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال: (أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر).

قال الحسن: (أحب عباد الله إلى الله أكثرهم له ذكرًا وأتقاهم قلبا).

وقال كعب: (من أكثر ذكر الله برئ من النفاق). وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩].

وقال عيسى عليه السلام: (يا معشر الحواريين كلموا الله كثيرًا، وكلموا الناس قليلًا. قالوا: كيف نكلم الله كثيرًا؟ قال: اخلوا بمناجاته، واخلوا بدعائه).

وقيل لمحمد بن النضر: (ألا تستوحش وحدك؟ قال: كيف أستوحش وهو يقول: «**أنا جليس من ذكرني**»).

وفي صحيح البخاري عن عبادة عن النبي ﷺ قال: «**من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي، أو قال: ثم دعا استجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته**».

وعن ابن عمر مرفوعًا: «**من دخل سوقًا يصاح فيه ويباع فيه فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة**» [رواه أحمد].

وكان النبي ﷺ يحب جوامع الكلم في الذكر والدعاء، وكان أكثر دعائه: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**». وكان يقول: «**سبحان الله وبحمده عدد خلقه، وزنة عرشه، ورضا نفسه، ومداد كلماته، ومنتهى رحمته، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، والله أكبر مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك**».

وهـذه الآية جامـعة لمعـنى ما تقدم من الأحاديث وشرحها. قـال الله تعــالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرح بعد الغم والهم، وهو تفريج الكربات، وتيسير الأمور، وتحقق الرحة والسعادة في الدنيا والآخرة، وما عولج كرب ولا أزيلت شدة بمثل ذكر الله تبارك وتعالى.

إن أزكى الأعمال، وخير الخصال، وأحبها إلى الله ذي الجلال ذكر الله تعالى، روى الترمذي وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فيضربوا أعناقكم وتضربوا أعناقهم؟**» قالوا: بلي يا رسول الله قال: «**ذكر الله**».

والـذاكرون الله تعـالى هـم السباقون في ميـدان السير إلـى الله والـدار الآخـرة، فعـن أبـي هريـرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عـن النبـي ﷺ قـال: «**سبق المفـردون**» قـالوا: ومـا المفـردون يـا رسـول الله؟ قـال: «**الـذاكرون الله كثيـرًا والذاكرات**». وهؤلا هم الـذين أعـد لهـم الله المنزلـة الكريمـة والثـواب العظيم ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وهـم المفلحـون كمـا وصـفهم الله تعـالى بقولـه: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وفي الحديث: فضل الذكر والمداومة والحث عليه.

وفيــه: ســعة فضــل الله ـ تعـالى ـ فيعطي الثـواب الجزيـل علـى العمل القليل.

وفيه: عجز الإنسان عـن استقصـاء الطاعـات لكثرتها، فـإذا أراد أن يعوض عن استقصائها ثوابًا؛ فليكن لسانه مع قلبه مشغولين بذكر الله ـ تعالى ـ وتسبيحه؛ وهذا سهل يسير على الإنسان.

وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، «**رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

ومن فوائد الذكر: أنه يطرد الشيطان، ويرضي الرحمن، ويزيل الهم والغم عن القلب، وأنه يقوي القلب والبدن، وينور الوجه

والقلب، ويجلب الرزق، وأنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، وأنه يورث المراقبة حتى يدخله باب الإحسان، وأنه يورث الإنابة لله ﷻ، وأنه يورثه ذكر الله ـ تعالى ـ له؛ كما قال سبحانه ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة.

وفي الحديث: أن الذكر طاعة سهلة ميسرة لكنها ثقيلة في الميزان؛ لذلك ندب النبي ﷺ على الاشتغال بالذكر.

وفي الحديث: فضل الذكر والمداومة والحث عليه.

وفيه: سعة فضل الله ـ تعالى ـ فيعطي الثواب الجزيل على العمل القليل.

انتهى الشرح؛ ولله الحمد والمنّة، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس